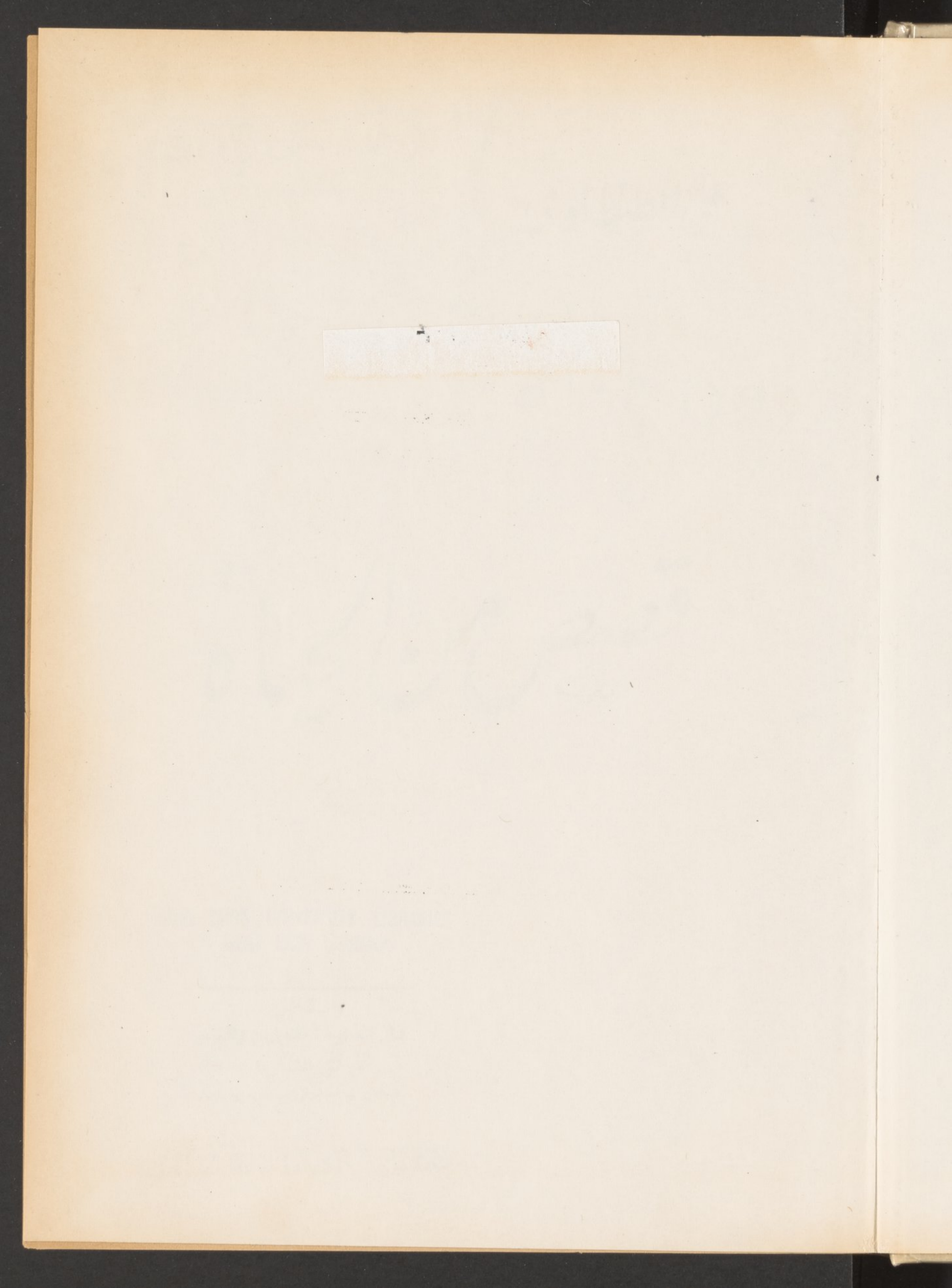
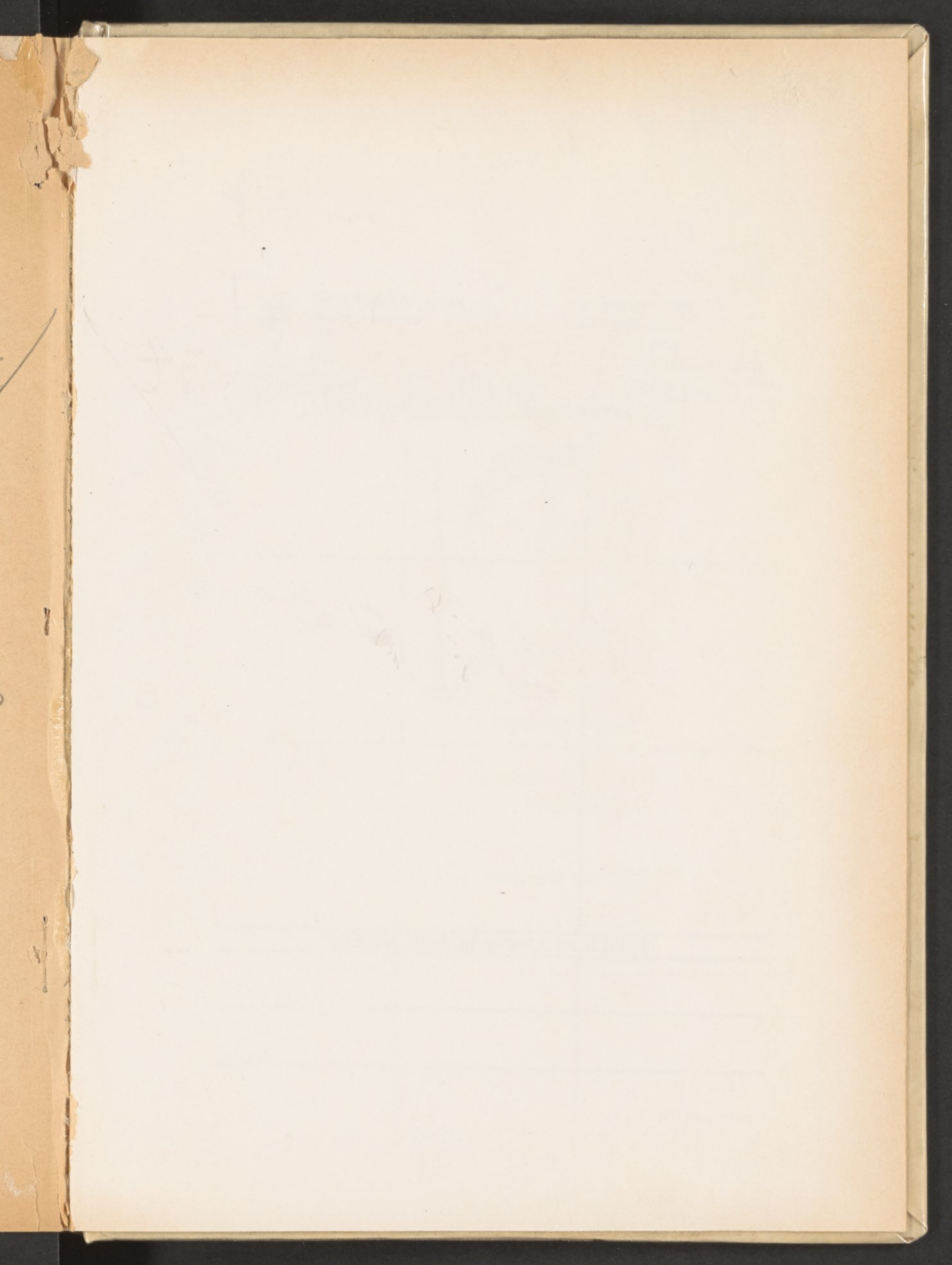
علي الطنطاوي

قصص من الحياة

منشورات
دار الدعوة للتوزيع والنشر
دمشق - حلبوني - ص.ب ٨٠٠





على الطنطاوى

قصص من الحياة

الناشر
دار الدعوة : للتوزيع والنشر
موفق الشاويش
دمشق ـ حلبوني ـ ص.ب ٨٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا
من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له
اللهم اهدنا الصراط المستقيم وارزقنا الإخلاص في العمل
والثبات عليه وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه

ترددت طويلا قبل أن آذن بنشر هذه القصص في كتاب لأني نظرت فيها بعقل الكهل (وقد كنت كتبتها بأعصاب الشباب) فوجدت فيها مشاهد لا أستطيع أن أسمح لبناتي بالاطلاع عليها ، ولا أرضى لبنات الناس ما لا أرضاه لبناتي ، فعزمت على طيِّها واخفائها ، ثم فكرت فرأيت أنها لا يمكن أن تطوى بعد ما نشرت في الرسالة وغير الرسالة من المجلات التي كان يطبع منها عشرات الآلاف من النسخ ، ثم ان الشباب يقرؤون من الادب المكشوف الذي يدعو الى الشر ، ما لا يضرهم معه أن يمروا بهذه المشاهد في قصة كتبت ليدعى بها الى الخير والاصلاح ، وانها لم تخترع اختراعا ولكنها تصور شيئا واقعا اذا نحن كتمنا خبره ، لم نستطع أن نمحو حقيقته ، واذا هم لم يقرؤوه في كتاب ، سمعوه من الناس بآذانهم ، أو رأوه في الناس بعيونهم . وفي قصيدة كعب التي نظمها في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي القصائد التي كان يستشهد بها علماء الصدر الاول كثير من أوصاف النساء ، ما منعتهم كثرته من الاستشهاد به .

على أني قد عدت الى هذه القصص ، فمشيت عليها بقلم الاختصار والحذف ، وضحيت بكثير من الصور الادبية في سبيل الحياء والخلق ، وتركت قصصا برمّتها لما رأيت أنها لا يمكن تنقيتها مما جاء فيها .

ولست أجوّز (مع ذلك كله) أن يوضع هذا الكتاب في أيدي الشباب والشابات واذا امتدت اليه يد شاب فأنا أوصيه ان أراد راحة أعصابه ، وهدوء باله ألاّ يقرأ هذه القصص (وهي : من صميم الحياة ـ الخادمة ـ بنات العرب في اسرائيل ـ طبق الاصل ـ في حديقة الأزبكية ـ صلاة الفجر) ولست أقول هذا دعاية لها ، وترغيباً فيها ، لا والله العظيم ، ولكن أقوله نصحاً للشباب ، وضناً بهم عليها ، وخشية من الله أن أكون قصدت الاصلاح فأفسدت ، ويا ليتني لم أكتب هذا الذي اضطر الى الاعتذار منه ، والندم على الاقدام عليه ، وأسأل الله أن يغفر لي ويعفو عني .

دمشق : رجب ١٣٧٨

علي الطنطاوي

اليتيمان

نشرت سنة ١٩٤٦

أحس (ماجـد) أنه لم يفهم شيئا مما يقـرأ ، وأن عينيه تبصران الحروف وتريان الكلم ولكن عقله لا يدرك معناهـا . انه لا يفكر في الدرس ، انما يفكر في هـذه المجرمة وما جرّت عليه من نكد ، وكيف نغّصت حياته وحياة أخته المسكينة وجعلتها جحيما متسعرا . ونظر في (المفكرة)[1] فاذا بينه وبين الامتحـان أسبوع واحـد ، ولا بد له من القـراءة والاستعداد ، فكيف يقـرأ وكيف يستعد ؟ وأنّى له الهدوء والاستقرار في هذا البيت وهذه المرأة تطارده وتؤذيه ولا تدعه يستريح لحظة ، واذا هي كفت عنه انصرفت الى أخته تصب عليهـا ويلاتها ؟... هـل يرضى لنفسه أن يرسب في أول سنة من سني الثـانوية وقد كان (في الابتدائي) المجلّي دائماً بين رفاقه ، والأول في صفه[2] ؟ .

وانه لفي تفكيره واذا به يسمع صوت العـاصفة ... وان العاصفة لتمر بالحقل مرة في الشهر فتكسر الاغصان ، وتقصف الفروع ، ثم تجيء الامطار فتروي الارض ثم تطلع الشمس ، فتنمي الغصن الذي انكسر وتنبت معه غصناً جـديداً ، وعاصفة الدار تهب كل ساعة ، فتكسر قلبه وقلب أخته الطفلة ذات السنوات الست ، ثم لا تجبر هذا الكسر أبدا ... فكأن عاصفة الحقل أرحم وأرق قلبـا وأكثر (انسانية) من هذه المرأة التي يرونها جميلة حلوة تسبي القلوب ... وما هي الا الحيّة في لينهـا

---

(١) وتسمى في مصر (النتيجة) واصطلاحنا أصح .

(٢) ويسمى في مصر (الفصل) .

ونقشها ، وفي سمها ومكرها . لقد سمع سبَّها وشتمها وصوت يدها ، شلَّت يدُها ، وهي تقع على وجه الطفلة البريئة ، فلم يستطع القعود ، ولم يكن يقدر أن يقوم لحمايتها خوفا من أبيه ، من هذا الرجل الذي حالف امرأته الجديدة وعاونها على حرب هذه المسكينة وتجريعها غصص الحياة قبل أن تدري ما الحيـاة ... فوقف ينظر من (الشبَّاك) فرأى أخته مستندة الى الجدار تبكي منكسرة حزينة ، وكانت مصفرة الوجه بالية الثوب ، والى جانبها أختها الصغرى ، طافحة الوجه صحة ، بارقة العينين ظفراً وتغلباً ، مزهوة بثيابها الغالية ... فشعر بقلبه يثب الى عينيه ويسيل دموعاً ، ما ذنب هـذه الطفلة حتى تسام هذا العذاب ؟ أما كانت فرحة أبيها وزينة حياته ؟ أما كانت أعز انسان عليه ؟ فمالها الآن صارت ذليلة بغيضة ، لا تسمع في هذا البيت الا السب والانتهار ، أما التدليل فلأختها ، التي تصغر عنها سنتين ، والطَّرَف لها ، كأنما هي البنت المفردة ، على حين قد صارت هي خادمة في بيت أبيها ، بل هي شر من الخادم ، فالخادم قد تلقى أناسا لهم قلوب ، وفي قلوبهم دين فيعاملونها كأولادهم ، وأبوها هي لم يبق في صدره قلب ليكون في قلبه شرف يدفعه أن يعامل ابنته ، ابنة صلبه ، معـاملة الخادم المدللة . لقد كتب الله على هـذه الطفلة أن تكون يتيمة الابوين ، اذ ماتت أمهـا فلم يبق لها أم ، ومات ضمير أبيها فلم يبق لها أب !

وسمع صوت خالته[1] تناديها : تعالي وِلِكْ يا خنزيرة[2] !

وكان هذا هو اسمها عندها : (الخنزيرة) لم تكن تناديهـا الا به ، فاذا جاء أبوها المساء فهي البنت : تعالي يا بنت ، روحي يا بنت ! أمـا أختها فهي الحبيبة : فين انت يا حبيبتي ؟ تعالي يا عيني !

(١) امرأة الاب تدعى في الشام خالة .

(٢) ولك كلمة شامية محرفة عن ويلك تردد دائما .

وعاد الصوت يزمجر في الدار : ألا تسمعين أختك تبكي ؟ أنظري الذي تريده فهاتيه لها ! ألا تجاوبين ؟ هل أنت خرساء ؟ قولي : ماذا تريد ؟

فأجابت المسكينة بصوت خائف : انها تريد الشكولاطة ...

ـ ولماذا بقيتِ واقفة مثل الدبّة ! اذهبي فأعطيها ما تريد !

فوقفت المسكينة ، ولم تدر كيف تبين لها أن القطعة الباقية هي لها . لقد اشترى أبوها البارحة كفاً من الشكولاطة ، أعطاه لابنته الصغيرة فأكلته وأختها تنظر اليها ، فتضايقت من نظراتها فرمت اليها بقطعة منه ، كما يرمي الانسان باللقمة للهرّة التي تحدّق فيه وهو يأكل ، وأخذت المسكينة القطعة فرحة ، ولم تجرؤ أن تأكلها على اشتهائها اياها ، فخبأتها ، وجعلت تذهب اليها كل ساعة فتراها وتطمئن عليها ، وغلبتها شهوتها مرة فقضمت منها قضمة بطرف أسنانها ، فرأتها أختها المدللة فبكت طالبة الشكولاطة ...

ـ ويلِكْ يا ملعونة فين الشكولاطة ؟

فسكتت ... ولكن الصغرى قالت : هناك يا ماما عندها ، أخذتها الملعونة مني !

واستاقت المرأة ابنتها وابنة زوجها ، كما يساق المتهم الى التحقيق ، فلما ضبطت (متلبسة بالجرم المشهود) ورأت خالتها الشكولاطة معها حل بها البلاء الاعظم !

ـ يا سارقة ياملعونة ، هكذا علمتك أمك ... تسرقين ما ليس لك ؟

وكان ماجد يحتمل كل شيء ، الا الاساءة الى ذكرى أمه ، فلما سمعها تذكرها ، لم يتمالك نفسه أن صاح بها :

ـ أنا لا أسمح لك أن تتكلمي عن أمي .

فتشمرت له واستعدت ... وكانت تتعمد اذلاله وايذاءه دائما

فكان يحتمل صامتـا لا يبدو عليه أنه يحفلها أو يأبه لهـا . فكان ذلك يغيظها منه ، وتتمنى أن تجد سبيلا الى شفاء غيظها منه وها هي ذي قد وجدتها ...

ـ لاتسمح لي ؟ أرجوك يا سعادة البك اسمح لي أنا في عرضك ... آه ! ألا يكفي أني أتعب وأنصب لأقدم لك طعامك وأقوم على خدمتك ، وأنت لا تنفع لشيء الا الكتابة في هذا الدفتر الاسود . لقد ضاع تعبي معك أيها اللئيم ، ولكن ليس بعجيب أنت ابن أمك ...

ـ قلت لك كفّي عن ذكر أمي ، والا أسكتّك .

واقترب منها ، فصرخت الخبيثة وولولت وأسمعت الجيران ... تريد أن تضربني ؟ آه يا خاين ، يا منكر الجميل ، ولي ... ياناس ، يا عالم ، الحقوني يا اخواتي ...

وجمعت الجيران ، وتسلل ماجـد الى غرفته أي الى الزاوية التـي سموهـا غرفة ، وخصوه بها لتتخلص سيدة الدار من رؤيته دائمـا في وجهها !

* * *

ودخل الأب المساء وكان عابساً على عادته باسراً لا يبتسم في وجوه أولاده ، لئلا يجترئوا عليه فتسوء تربيتهم وتفسد أخـلاقهم ولم يكن كذلك من قبل ولكنه استنّ لنفسه هذه السنّة من يوم حضرت الى الدار هذه الأفعى وصبّت سمّها في جسمه ، ووضعت في ذهنه أن ماجداً وأخته ولدان مدلّلان فاسدان لا يصلحهما الا الشدة والقسوة ...

وكانت الخبيثة اذا دنا موعد رواحه الى الدار ، تخلع ثيابها وتلبس ثيابا جديدة ، كما تخلع عنهـا ذلك الوجه الشيطاني وتلبس وجهـا فيه سمات الطهر والطفولة ، صنعه لها مكرها وخبثها ، ولا تنسى أن تنظف

البنتين وتلبسهما ثيابا متشابهة كيلا يحس الاب بأنها تفضل ابنتها على ابنته ..

دخل فاستقبلته استقبال المحبة الجميلة ، والمشوقة المخلصة ، ولكنها وضعت في وجهها لونا من الالم البريء تبدو معه كأنها المظلومة المسكينة ، ولحقته الى المخدع تساعده على ابدال حلته وهناك روت له القصة مكذوبة مشوهة فملأت صدره غضبا وحنقا على أولاده ، فخرج وهو لا يبصر ما أمامه ، ودعا بالبنت فجاءت خائفة تمشي مشية المسوق الى الموت ، ووقفت أمامه كأنها الحمل المهزول بين يدي النمر . فقعد على كرسي عال ، كأنه قوس المحكمة ووقفها أمامه ، كالمتهم الذي قامت الادلة على اجرامه ، وأفهمها قبح السرقة ، وعنّفها وزجرها ... وهو ينظر الى ولده ماجد شزراً ، وكانت نظراته متوعدة منذرة بالشرّ ، ولم يسع ماجداً السكوت وهو يسمع اتهام أخته بالسرقة وهي بريئة منها ، فأقبل على أبيه يريد أن يشرح له الأمر ، فتعجل بذلك الشرّ على نفسه .

انفجر البركان وزلزلت الدار زلزالها ، وأرعد فيها صوت الاب المغضب المهتاج :

ــ تريد أن تضرب خالتك ياقليل الحياء ، يامعدوم التربية ، ياملعون ؟ حسبت أنك اذ بلغت الرابعة عشرة قد صرت رجلا ؟ وهل يضرب الرجل خالته ؟ انني أكسر يدك يا شقي !

ــ والله يا بابا مو صحيح ...

ــ ووقاحة أيضا ؟ أما بقي عندك أدب أبداً ؟ أتكذب خالتك ؟

ــ أنا لا أكذبها ، ولكنها تقول لك أشياء ليست صحيحة .

عند ذلك وثب الأب وانحط بقوته وغلظته وما أترعت به نفسه من مكرها زوجته ، انحط على الغلام وأقبل يضربه ضرب مجنون ذاهب الرشد ، ولم يشف غيظه نفسه ضربه فأخذ دفتره الأسود الذي أودعه

دروسه كلها ، فمزقه تمزيقاً ... ثم تركه هو وأخته بلا عشاء عقوبة لهما وزجراً ...

* * *

تعشى الزوجان وابنتهما ، وأويا الى مخدعهما ، والغلام جاثم مكانه ينظر الى قطع الدفتر الذي أفنى فيه لياليه ، وعاف لأجله طعامه ومنامه ، والذي وضع فيه نور عينيه ، وربيع عمره ، وبنى عليه أمله ومستقبله ... ثم قام يجمع قطعه كما تجمع الأم أشلاء ولدها الذي طوّحت به قنبلة ... فاذا هي آلاف لا سبيل الى جمعها ، ولا تعود دفتراً يقرأ فيه الا اذا عادت هذه الاشلاء بشراً سوياً يتكلم ويمشي ... فأيقن أنه قد رسب في الامتحان ، وقد أضاع سنته ، وكبر عليه الامر ، ولم تعد أعصابه تحتمل هذا الظلم ، وأحس كأن الدنيا تدور به وزاغ بصره ، وجعلت أيامه تكر راجعة أمام عينيه كما يكر فلم السينما ...

رأى ذلك الوجه الحبيب ، وجه أمه ، وابتسامتها التي كانت تنسيه آلام الدنيا ، وصدرها الذي كان يفزع اليه من خطوب الدهر ، رآها في صحتها وشبابها ، ورأى البيت وما فيه الا السلم والهدوء والحب ، ورأى أباه أباً حقيقياً تفيض روح الأبوة من عينيه الحانيتين ، ويديه الممتلئتين أبدا بالطُرَف واللُطَف ، ولسانه الرطب بكل جميل من القول محبب من الكلام ...

ويكرُّ الفلم ويرى أمه مريضة فلا يهتم بمرضها ، ويحسبه مرضاً عارضاً ... ثم يرى الدار والاضطراب ظاهر فيها ، والحزن باد على وجوه أهلها ، ويسمع البكاء والنحيب ، ويجدهم يبتعدون به ، ويخفون النبأ عنه ، ولكنه يفهم منهم أن أمه قد ماتت . ماتت ؟ انها كلمة تمرُّ عليه مراً هيناً فلا يأبه لها ، وكان قد سمع بالموت ، وقرأ عنه في الكتب ، ولكنه لم يره من قريب ولم يدخل داره ، ولم يذقه في حبيب ولا نسيب ، غير

أن الايام سرعان ما علمته ما هو الموت حين صحا صبيحة الغد على بكاء أخته الحلوة المحبَّبة الى أمها ، والتي كانت محببة تلك الأيام الى أبيها ، ففتح عينيه فلم يجد أمه الى جانبها لترضعها وتضمها الى صدرها ، واشتد بكاء البنت ، وطفق الولد ينـادي : ماما ... ثم جفا فراشه وقام يبحث عنهـا ، فوجد أباه وجمعاً من قريباته ، يبكون هم أيضاً ... فسألهم : أين أمه ؟ فلم يجيبوه ... وحين أراد الغدوّ على المدرسة ، فناداها فلم تأت لتعد له حقيبته وتلبسه ثيابه ولم تقف لوداعه وراء البـاب تُقبله وتوصيه ألا يخاصم أحدا وألا يلعب في الأزقّة ، ثم اذا ابتعد عادت تناديه لتكرر تقبيله وتوصيته ، وحين عاد من المدرسة فوجد امرأة غريبة ترضع أخته ... لماذا ترضعها امرأة غريبة ؟ وأين ماما ؟ !

ويكر الفلم ، ويرى أباه رفيقا به حانيـا عليه يحاول أن يكون له ولأخته أماً وأباً ، ولكن هذا الأب تبدل من ذلك اليوم المشؤوم ، ورأى ذلك اليوم المشؤوم ، يوم قال له أبوه : ستأتيك يا ماجد أم جديدة ... أم جديدة ؟ هـذا شيء لم يسمع به ، انه يعرف كيف تجيء أخت جديدة ، ان أمه تلدها من بطنها ، أما هذه الأم فمن أين تولد ؟ وانتظر وجاءت الأم الجديدة ، وكانت حلوة ، ثيابها جميلة ، وخدودها بلون الشفق ، وشفاهها حمر ، ليست كشفاه الناس . وعجب من لون شفاهها ، ولكنه لم يحبها ولم يمل اليها ، وكانت في أيامها الاولى رقيقة لطيفة ، كالغرسة الصغيرة ، فلما مرت الأيام واستقرت في الارض ومدّت فيهـا جذورها ، صارت يابسة كجذع الدوحة ، وان كانت تخدع الرائين بورقها الطريّ وزهرها الجميل ... ولما ولدت هـذه البنت انقلبت شيطانة على صـورة أفعى مختبئة في جلد امرأة جميلة . والعياذ بالله من المرأة الجميلة اذا كانت في حقيقتها شيطانة على صورة أفعى !

وانطمست صور المـاضي الحبيب ، واضمحل الفلم ، ولم يبق منه

الا هذه الصورة البشعة المقيتة ، ورآها تكبر وتعظم حتى أحاطت به وملأت حياته ، وحجبت عنه ضياء الذكرى ونور الامل ... وسمع قهقهة فانتفض وأحسَّ كأن رنينها طلقات (متر اليوز) قد سقط رصاصه في فؤاده ، وكانت قهقهة هذه المرأة التي أخذت مكان أمه يتخللها صليل ضحك أبيه ... وأنصت فاذا هو يسمع بكاء خافتاً حزيناً مستمراً ، فتذكر أخته التي نسيها ، وذكّره جوعه بأن المسكينة قد باتت بلا عشاء ، ولعلها قد بقيت بلا غداء أيضا ، فان هذه المجرمة تشغلها النهار كله بخدمتها وخدمة ابنتها ، وتقفل دونها غرفة الطعام ، فلا تعطيها الا كسرة من الخبز ، وتذهب فتطعم ابنتها خفية ، فاذا جاء الاب العشية ، ولبست أمامه وجهها البريء ... شكت اليه مرض البنت وضعفها :

ـ مسكينة هذه البنت ، انها لا تتغذى ... انظر الى جسمها ، ألا تريها لطبيب ؟... ولكن ماذا يصنع لها الطبيب ، انها عنيدة سيئة الخلق ... أدعوها للطعام فلا تأكل ، وعنادها سيقضي على صحتها ...
فيناديها أبوها ويقول لها :

ـ ولك يا بنت ما هذا العناد ؟ كلي والا كسرت رأسك !

فتتقدم لتأكل، فترى المرأة...تنظر اليها من وراء أبيها نظرة الوعيد ، وترى وجهها قد انقلب حتى صار كوجه الضبع فتخاف وترتد ...

فتقول المرأة لزوجها : ألم أقل لك ، انها عنيدة تحتاج الى تربية ؟

فيهز رأسه ، ويكتفي من تربيتها بضربها على وجهها ، وشد أذنها ، وطردها من الغرفة ، ويكون ذلك عشاءها كل عشية !

تذكّر ماجد أخته فقام اليها فرفعها وضمها الى صدره .

ـ مالك ؟ لماذا تبكين ؟ اسكتي يا حبيبتي ؟

ـ جوعانة !

جوعانة ؟ من أين يأتيها بالطعام ؟ وقام يفتش ... فأسعده الحظ فوجد باب غرفة الطعام مفتوحا ، وعهده به يقفل دائما ، ووجد على المائدة بقايا العشاء ، فحملها اليها فأكلتها فرحة بها مقبلة عليها ، كأنها لم تكن من قبل الابنة المدللة المحبوبة ، التي لا يرد لها ، لو طلبت ، طلب ، ولا يخيب لها رجاء . وآلمه أن يراها تفرح اذا أكلت بقايا أختها وأبيها يسرقها لها سرقة من غرفة الطعام ، وعادت صور الماضي فتدفقت على نفسه وطغت عليها ورجعت صورة أمه فتمثّلت له ، وسمعها تناديه ... لقد تجسم هذا الخيال الذي كان يراه دائما ماثلا في نفسه ، حتى رده الى الماضي وأنساه حاضره ... ولم يعد يرى في أخته البنت اليتيمة المظلومة ، وانما يراها الطفلة المحبوبة التي تجد أماً تعطف عليها ، وتحبها ...

ونسي دفتره الممزّق ، ومستقبله الضائع ، وحياته المرّة ، وطفق يصغي الى نداء الماضي في أذنيه ... الى صوت أمه ...

ـ قومي يا حبيبتي ، ألا تسمعين صوت أمك ، تعالي نروح عند ماما !

فأجفلت البنت وارتاعت ، لأنها لم تكن تعرف لها أماً الا هذه المرأة المجرمة ... وخافت منها وأبت أن تذهب اليها . لقد كان من جناية هذه المرأة أنها شوّهت في نفس الطفلة أجمل صورة عرفها الانسان : صورة الأم !

ـ تعالي نروح عند ماما الحلوة : أمك ... انها هناك في محل جميل : في الجنة ... ألا تسمعين صوتها ؟

وحملها بين يديه ، وفتح الباب ، ومضى بها ... يحدوه هذا الصوت الذي يرنّ في أذنيه حلواً عذباً ، الى المكان الذي فيه أمه !

* * *

وقرأ الناس في الجرائد ضحى الغد أن العسس وجدوا في المقبرة

طفلة هزيلة في السادسة من عمرها ، وولداً في الرابعة عشرة ، وقد حملا الى المستشفى ، لأن البنت مشرفة على الموت ، قد نال منها الجوع والبرد والفزع ، ولا يمكن أن تنجو الا بأعجوبة من أعاجيب القدر ، أما الغلام فهو يهذي في حمّاه ، يذكر الامتحان ، والدفتر الأسود ، وأمه التي تناديه ... والمرأة التي تشبه الافعى !

بنات العرب في اسرائيل

نشرت سنة ١٩٥٢

هذه قصة واقعية قرأتها ملخصة في سطور في كتاب (من أثر النكبة) للاستاذ نمر الخطيب ، بطلها رجل من فلسطين يحسن الانكليزية كان له صديق من أعضاء اللجنة الدولية ، سأله أن يأخذه الى تل أبيب ليجدد ببلاده عهدا ، فأجابه الى ما سأل وألبسه لباس أعضاء اللجنة حتى غدا كأنه واحد منها .

ووصلوا تل أبيب ، فأنزلهم اليهود في فندق عظيم ، وأولوهم أجمل العناية وأكبر الرعاية ، حتى لقد أخبروهم أن ادارة الفندق ستبعث الى غرفة كل واحد منهم فتاة بارعة الجمال ، لتكون رفيقته تلك الليلة .

قال :

ولما أويت الى غرفتي ، تمثّلت لي الفتاة التي وعدت بها ، فملأت صورتها نفسي وهاجت فيها أدنأ غرائزها ، وأحطّ شهواتها ، ونسيت أني في بلد العدو ، وأن عليّ التوقي والحذر ، وارتقبت ليلة (كما يقولون) حمراء ، تلتهب فيها الأعصاب بنار الشهوة الجامحة ، وخيّل اليّ منطقُ الغريزة أني ان نلت امرأة من يهود فقد غزوت يهود في ديارها . وثقلت عليّ الساعات الباقية دون الليل ، وطالت دقائقها ، وجثم وقت الانتظار على صدري فتقارب تنفّسي ، وازداد خفقان قلبي ، وأحسست ركبتيّ تصطكان ، وكنت أقعد فلا أطيق القعود ، فأقوم فلا أرتاح الى القيام . وحاولت القراءة فكانت الكلمات تتراقص أمام بصري ، ثم تستحيل الى

صور صبايا عاريات ، وتضيع المعاني فلا أدرك الا المعنى الواحد الذي هو في ذهني .

وكذلك تصرّمت ساعات، ما أظن أنه مر علي في عمري أثقل منها . وما أظن لذائذ الوصال لو جمع لي ما يلقاه الناس كلهم منها ، تعدل آلام هذه الساعات .

... وجاء النادل (الكارسون) يقدم اليّ فتاة ، جرفتها ببصري في لمحة واحدة ، وجردتها بخيالي من ثيابها في ثانية ، فرأيتها عارية أمامي، وجمحت بي الغريزة حتى لا أقدر على الصبر عن عناقها دقيقة ، وعن ضمها الي، وعن أن أشدّ يدي عليها ، ثم آكلها عضاً ، ولم تكن فتاة ولكنها كانت فتنة في ثوب امرأة . وكانت الحبّ الذي غنى له الشعراء ، وهاموا به ـ مصوّراً فتاة .

كذلك كنتُ لما ثبّتُّ النظر أخيراً على عينيها ، لقد كانت لها عينان ، لا يستطيع السمو الى بيان وصفهما البيان ، عينان فيهما شيء لا أدري ما هو ، ولكني أحلف أني ما مكنت بصري منهما حتى أحسست بأن أعصابي المشدودة قد استرخت ، وأن دمي الفائر بالشهوة قد برد ، وأن قد طارت من رأسي كل فكرة جنسية ، وامتلأ قلبي عطفاً وحناناً ، كأنّ أمامي قطة صغيرة وديعة حلوة الوجه ، ناعمة الشعر . هذا ما شعرت به وأنا أعتذر من غرابة هذا الشعور ، وتوهمتها من طهر عينيها زنبقة من زنابق الجبل ، بيضاء كالثلج ، نقية كالندى ، لم يمسسها الا نسيم الاصيل ، ولم تقبلها الا أشعة الشمس ، ولم تبصر عرْيها الا عين أمها .

وعجبت أنا من نفسي ، مما عراني ، قبل أن يعجب القارىء مما أروي.

عجبت كيف تكون لي هذه العاطفة على بغي !

أو ليست بغيًا هذه التي يقدم جسدها اليهود قِرًى لضيوفهم كما يقدمون لحوم الخراف وشحوم الخنازير ؟ وعدت أنعم النظر اليها ،

فأرى صبيَّة في ثياب الغواني ، ولكن في عينيها حياء العذارى ، وأرى فيها ملامح رقة وتهذيب كأنها ملامح طالبة من طالبات المدرسة ، لا فتاة من فتيات الليل ، فرحت أحاول أو أوحي الى نفسي أنه دَلّ البغايا حين يسرقن نظرات الابكار .

ووقفتْ ووقفتُ وساد الصمت والسكون ، فلا حركة ولا كلام .

وعجبت هي مني أكثر من عجبي من نفسي ، كأنها ما تعودت من قبل الا لقاء وحوش في ثياب بشر ، لا يرون فيها الا ما يراه الذئب في جسم النعجة ، لا يعنيه منه لونه في نظره ، ولا ريحه في أنفه ، ولا لينه في كفه ، ولكن طعمه تحت أنيـابه ، وا نكان جسد النعجة ينـال مرة فتموت وتستريح ، وهذه (نعجة) يتعاورهـا الذئاب كل يوم ، فهي تموت كل يوم ميتة جديدة .

وقفت متململة تحاول الابتسام فلا يلوح على شفتيها الا بقايا ابتسامة مـاتت من زمن طويل . وثقل الموقف ولم يفتح عليّ بكلمة ، فأرادت الخلاص فأشارت اشارة المحكوم عليه الى الجلاّد ليعجل عليه بالانفاذ ويخلصه من الانتظار الذي هو شر من الانفاذ .

ودعوتها فقعدت الى جنبي ، وبصرها تائه في الأفق البعيد ، كأنهـا تتحرك وهي منوَّمة ، وكلمتهـا بالانكليزية ، فأجابت بهـا جواب غير متمكن منهـا ، فكلمتها الكلمات القليلة التي أحفظها من العبرية ، فعلت وجهها سحابة سوداء من الألم ، وغامت عيناها لحظة ، ولم تجب .

ففكرت هل أخاطر وأكلمها بالعـربية ، وكنت أعلم ما في ذلك من الاذى لي والضر بي ، ولكني أقدمت وقلت لها : هل أنت عربية ؟ فانتفضت انتفاضة لو كانت بصخرة لصبَّت فيهـا الروح ، ولانبجست

فيها الحياة . وأضاء ذلك الوجه الجميل ، الذي كان عليه نقابان : نقاب من التبذّل الظـاهر ، ونقاب من الألم الخفي ، وأشـرق بنور سماوي وحدّقت فيَّ بعينيها العجيبتين ، وفيهما لمعة الفرح ، وفيهما حملقة الذعر، وقالت :

ــ هل أنت عربي ؟

فترددت ما بين خوفي منها ، وبين عطفي عليها ، خفت أن تكون يهودية فتشي بي ، وأشفقت أن تكون عربية تحتاج اليَّ ، ثم غلبت ثقتي بها ، فقلت لهـا :

ــ نعم .

ــ قالت : وأنا عربية ، من أسرة (كذا) من بلدة (كذا) ومعي خمس وثمانون من بنات العرب ...

فأحسست كأن خنجـراً مسموماً قد أوقد عليـه وغرز في قلبي ، وكأن الأرض تدور بي ، ولكنـي تثبت ولم أحب أن أفجـع المسكينة بهـذا الحـلم البهي الذي رأيت ظلاله على وجههـا ، لقـد حسبتْ من خلال الفرحة الطـارئة أنهـا في يافا العربية ، وأنهـا قد عادت الى طفولتها المدللة ، وعادت لها طهارة تلك الطفولة ، وأنها لا تزال العذراء البكر تعيش بين أهليها وذويهـا فيَ حمى الابطال العـرب الذين كانوا يحرسون أرض الوطن ، وعِرْضَ بنات الوطن ، وحمى الجيوش العربية السبعة التي كانت أعلامها تلوح على الآفاق الاربعة البعيدة ، من وادي النيل ، وجنبات الاردن ، وخمائل الغوطة ، وسهول العـراق ، وبطاح نجد ، فتبعث في نفوس عذارى فلسطين الدعة والامن ، وفي قلوب شبابه الزهو والكبر ، وتمنعها أن تطيف بها رهبة من يهود .

ولكن هـذه الاشراقة ما لبثت أن بدت حتى اختفت . ان الصبح الذي حسبته قد انبلج بعد ما طال منها ارتقابه لا يزال بعيدا ، والشاطىء الذي ظنته دنا بعد ما اشتد اليه حنينها لا يزال ضائعا في الضباب ، ولا

يزال مكتوباً عليهـا أن تقاسي الذل آماداً أخرى ـ لا يزال في الكأس المريرة بقايا عليها أن تتجرعها .

خَبَتْ اشراقة النور التي وقدت على جبينها ، وانطفأ البريق الذي لمع في عينيها ، وهيض الجناح فهبطت من سماء الاحلام الى أرض الحقيقة التي قيّدتها بها قيود اليهود . وصحت من سكرة الفرح فاذا هي حيث كانت ، لا الحرية عادت ولا الاهل ، ولا الليالي الماضيات تعود .

وفاضت النفس رحمة بهـا وحنانا عليها ، فطوقتها بيدي فانكمشت والتصقت بي ، كما تفعل القطّة الوديعة ، وأخفت وجههـا في صدري ، وهي تنشج نشيجا خافتا ، تمنيت معه لو أستطيع أن اشتري سعادتهـا التي فقدتها بحياتي لأردّها عليها ، وأحسست أني أحبها منـذ الأزل ، وأني لم أعش يوما منفردا عنها ، ولا أعيش يوما بعد فراقهـا ، وأن قد امتزج منا الجسمان ، واتحد الروحان ، واختصر الزمان حتى كان هذه اللحظة وحدها ، كما يختصر شعاع الشمس في عدسة الزجاج في نقطة واحدة ، وفي هذه النقطة الاشعة كلها ، فلا ماض مضى ولا آت يجيء .

وهتفت بي ووجهها خلال ثيابي ، وأنا أحِسُّ خفق قلبها فوق صدري ، كأنه حديث من قلبها الى قلبي :

ـ لن أعود الى حمأة الرذيلة . لن أعود . خذني معك ، الى الشام ، الى الاردن ، الى الصحراء ، الى أي بلد عـربي لا حكم فيه لليهود . خذني أكن خادماً لك ، أكن أمَةً ، أو فأعنّي على الموت ، فاني لا أجرؤ وحدي عليه ، حتى لا أهين بجسدي الملوث الارض التي احتوت رفات الجدود .

* * *

لقد رأتْ فيَّ المسكينة شعاعةً تخلفت من نهارها ، وزهرة بقيت من

روضها ، فحسبت أن النهار الذي ولى وغربت شمسه يعود ، وأن الروض الذي جف وصوّح نبته يرجع . وهيهات هيهات ! لقد فقد العرب كبرياء العرب ، وأضاعوا عزة العرب ، وشهامة العرب .

لقد هتفت أسيرة عربية في قديم الدهر ، باسم ملك العرب المعتصم فنحّى الكأس وقد دعا بها ليشربها ، ووثب من فوره يجيبها .

(أجابها) معلنا بالسيف منصلتا ولو (أجاب) بغير السيف لم يجب

حتى اقتحم من أجلها جيش هرقل صاحب البرّين والبحرين ونازل الروم الذين كانوا يوما سادة الارض ، وعاد بالمرأة وعاد بالنصر الذي طبق خبره الارض ، وطاول مجده السماء .

فهل من ينقذ اليوم آلاف النساء ، نساء العرب ، من سبي أذل الامم : اليهود ؟ هيهات ! لقد فقد العرب كبرياء العرب ، وعزة العرب !

* * *

وعادت تقول وهي مخفية وجهها خجلا :

ان ترني اليوم ماشية في طريق الفجور ، فلقد كنت يوما بعيدة عنه ، جاهلة به ، وكان لي أبوان شريفان وكانت لي أخت ، وكانت ...

وشهقت شهقة أليمة .

... فهل يعلم أحد أين أختي ؟

لقد أراد لي والدي الحياة الماجدة الكريمة ، فرباني على الدين والخلق ، وعلماني حتى نلت الشهادة الابتدائية ، وتهيأت للمتوسطة ، وأطلعني أبي على روائع الادب ، وكنوز المعرفة ، وكان يرجو لي مستقبلا فكان مستقبلي .. كان ... كان ...

وشرقت بدمعها .

لقد قتلوا أمي يوم الواقعة ، أفتدري كيف قتلوها ؟ انهم وضعوا البندقية في ... كيف أقول ؟ في مكان العفاف منها ، فوقعت أمامي تتخبط بدمها ، أما أبي فهرب بي وبأختي وانطلق يعدو حتى لحقوه ، فجعلوا يضربونه بأعقاب البنادق وبأيديهم وبأرجلهم حتى سقط . واستاقونا ...

ورحت أتلفت وأنا أكاد أجن من الذعر ، أنادي : أبي ! أبي !

أحسب أن أبي يسمع ندائي بعد الذي نزل به أو يقدر على حراك . ولكن أبي قد سمع وشدّت روح الأبوة ، وسلائق العروبة من عزمه ، فنهض يسعى لينقذني وكلما ونى ذكر أن ابنته التي رباها بدمه وغذاها من روحه ورجا لها المستقبل البارع ستغدو أمَة لليهود ، فتعاوده القوة حتى استنفد آخر قطرة من قواه ، فسقط مرة ثانية قبل أن يدركنا .

تمر على الانسان المصائب الثقال فينساها . يمرض حتى يتمنى الموت ثم يدركه الشفاء فينسى أيام المرض . ويموت أليفه فيألم حتى يعاف العيش ثم ينسى موت الحبيب ، ولكن مصيبة الفتاة بعفافها لا تنسى حتى ترِدَ ذكراها معها الموت .

لقد كانت هذي الساعة بداية آلامي التي سأحملها معي الى القبر . فقدت الأب والأم ، ثم فقدت العفاف وغدوت مثل البغايا ، فأين عينا أبي ترياني ؟ أين أبي ؟ هل هو حي معذب مثلي أم قد مات واستراح ؟

اني لأرجو أن يكون قد مات . أفرأيت ابنة تتمنى الموت لأبيها ؟ نعم . حتى لا يرى ما حل ببنته فيجد ما هو أشد عليه من الموت .

ولما غدوت وحيدة في أيديهم ، وعرفت أنه لا معين لي بعد أن فقدت أبي ، تنبهت القوى الكامنة فيّ ، وأمدّني اليأس بالعزم ، وشعرت بأني كبرت فجأة حتى أصبحت بجنب أختي الصغيرة أما لها بعد أمها ، وأبا

بعد أبيها ، وأن علي أن أحميها . وقلت لنفسي : اذا كانت الدجاجة تدفع عن فراخها هجمة النسر ، والقطة ان ضويقت واستيأست تقاتل الذئب ؟ فلم أعجز عن حماية هذه الطفلة ؟ وقد كانت طفلة حقا ، كانت في الثالثة عشرة تبكي بكاء ، ما رأيت قط مثله ، وترتجف كل عضلة من جسمها كما ترتجف كل ورقة في الشجرة هبت عليها رياح الخريف .

وتنَمَّرْتُ واستبسلت دونها ولكنهم غلبوني وأخذوها مني ثم وضعوني في سيارة جيب مع ثلاثة من جنود يهود .

وطفقت أدافع بيدي ورجلي ، وأعض بأسناني حتى عجز عني أنا البنت الضعيفة ثلاثة الرجال . فلو أن كل عربي من أهل فلسطين وكل امرأة وكل ولد ، كان قاتل بسلاحه وقاتل بعصاه ان لم يجد السلاح ، وبحجارة أرض الوطن وبيديه وأسنانه لما استطاع اليهود ...

ولما ذكرت اليهود ارتجفت من الخوف . وتلفتت حولها تخشى أن تسرق همسها آذان خفية في الجدار فتنقله الى جلاديها .

قالت :

وصب فيّ الخوف على أختي قوة لم أكن أتصور أنها تكون لأحد ، فاغتنمت لحظة غفلة ممن معي ووثبت من السيارة فوقعت على ركبتي .

وكشفت عن ركبتيها وقالت : أنظر ، ثم عاودها حياء العذراء التي كانتها يوما والتي تقص قصتها فأسرعت فسترتهما .

قالت :

وجعلت أعدو حافية وقد سقط الحذاء من رجلي على التراب والشوك حتى لحقوا بي وأعادوني .

ورجعت أدافع ، فأحسست غرز ابرة في يدي ، ثم لم أعد أشعر بشيء .

وسكتت لحظة وكادت من الحياء يدخل بعضها في بعض . وصار

وجهها بلون الجمرة ثم تكلمت بصوت خافت كأنه آهـات مكتومة لم أتبينها حتى دنوت منها ولفحت أنفاسُها الحرَّى وجهي •

قالت :

ولما صحوت وجدتني متكشفة ملقاة على أرض السيارة !

وعادت تنشج ذلك النشيج الذي يفتت القلب .

لقد أراقت دم عفافها لأن رجال قومها لم يريقوا دماء أجسادهم في سبيل الأرض وفي سبيل العرض • لقد خدروها بهذه الابرة كما خدروا زعماء العرب بالوعود وبالخدع وبحطام من الدنيا قليل

* * *

قالت :

وصرنا ننتقل من يد الى يد أنا وبنات قومي العرب ، كالاماء في سوق الرقيق لم تهدر كرامتنا وحدها ولم تضع أعراضنا فقط ، بل لقد فقدنا صفات الانسانية • غدونا (أشياء) تبـاع وتشرى ، ويساوم عليهـا ، صارت لحومنا قرى لضيوف اليهود !

ان البائس ليلقى في مغارات اللصوص ، وفي سراديب السحرة قلبـا طيبا يحنو عليه ، ويخفف بؤسه •• ولكنا لم نلق هنا رحمة من أحد •

لقـد قرأت مرة في قصة كان دفعهـا اليَّ أبي مترجمة عن الكاتبة الامريكية أ • بيشرستو ، أنه كان من أحلى أماني الرقيق أن يباع معه قريبه وألا يفصل الرق الأم عن بنتها والولد عن أخته ، فكنت أعجب من تلك العصور وهوان الانسانية فيها ، فأي حقيقة مروعة مرعبة رأيت ؟ بنات العرب صرن رقيقا لليهود لا للعمل ولا للخدمة بل للخزي والفجور • وهأنذي مثل ذلك الرقيق : كل مـا أتمناه أن يجمع الرق الأبيض بيني وبين أختي !

هذا ما تتمناه بنت الأسرة العربية الشريفة بعد نكبة فلسطين . أما حنان الأب ، أما حب الأم ، أما عزة العفاف وكرامة العروبة ، وتلك الأيام التي كانت ترتع فيهـا في روض الطفولة فلم يبق من ذلك كله الا صور باهتة في أعماق الذاكرة ، لا تجرؤ هي أن تحدق فيها .. كلا انها لاتستطيع أن تسمو الى بعث هذه الذكريات .. ان الرأس الذي أحنته وصمة العار لا يقدر أن يرتفع بنظره الى السماء

ولكن الوصمة يا أختي — يا أختي على ما أنت عليه ، الوصمة ليست على جبينك أنت ، انها على جبين كل عربي يرضى لك هذا الذي أنت عليه.

وكانت ليلة ليلاء ، ما عرفت فيها الا لذع الآلام

لقد كان من المستحيل أن نفكر بالغـاية التي بعثوا بها من أجلها ، ذلك لأن الشهوة لا تنـام على فراش حشي بأشواك الذعر ، وغـريزة الجنس لا تسكن قلبا ملأته بالآلام نكبات الوطن

لقد صيّرتها جوامع الأحـزان ، أختي . ولا يستطيع الشيطان أن يدخل بين أخوين جمعتهما في ظلمة الليل أوجاع القلب الجريح

وانتهت الليلة وجاء النادل في الصباح ليقدم الفطور قوت الصباح ، ويحمل الفتاة قوت الليل ، فاضطرمت في رأسي نار النخوة لما أبصرته ، ولكنها كانت (يا للعـار) نار القش تضطرم فلا تجد الحطب الجـزل فتنطفىء

وودعتني بنظرة ... بنظرة لا يمكن أن يعبر عن وصفها ومعناهـا لسان بشري

وجاءت السيارات تحملنا لنعود من حيث أتينا ، نعود ونترك بناتنا يفتك بأعراضهن اليهود ، ومررنا بيافا ، ونظرت الى هـذه المنازل التي كانت بالأمس لنـا فصارت لغيرنا ، خرجنا منها في ساعة واحدة انحطت

علينا فيهـا النكبة كما تنحط الصاعقة ، الأثاث الذي نضدناه قعد عليه غيرنا ، والطعام الذي طبخناه أكله غيرنا ، والفراش الذي مهدناه ، آه . هل أستطيع أن أنطق بالحقيقة المرعبة ؟

ولكنها حقيقة ، ان الفرش التي مهدناها ، هتك اليهود عليها عفاف بناتنـا !

ويبقى على ظهر الأرض عربي لا يقنّع وجهه حياء ، ولا يواري وجهه خجلا ، خجلا من أمجاد الأجداد ، خجلا من سلائق العروبة ، خجلا من عزة الاسلام !

* * *

واختفت يافا ، وغابت وراء الأفق وأنا لا أزال أرى تلك النظـرة التي ودعتني بها . لن أنساها أبداً ، ولن أنسى أني تركتهم يأخذونها وأنا حي، وأني كنت جباناً ، وكنت نذلاً كالآخرين !

الموسيقي العاشق

نشرت سنة ١٩٤٥

قال لي أمس صديقي حسني : اني لأعلم شغفك بالموسيقى ، وحبك الفن القديم ، فهل لك في سماع رجل هو أحد أعمدة هذا الفن في دمشق ومن أساطينه ، وهو هـامة اليوم أو غد ، فاذا انهـار أوشك ألا يقوم مثله أبداً ؟

قلت : ما أحوجني الى ذلك ، فمن هو هذا الموسيقي الذي لا أعرفه الى اليـوم على ما ذكرت من امامته وتقـدمه ، وعلى معرفتي بأرباب هذا الفن ؟

قال : هو شوقي بك رجـل تركي ، كان من موسيقيي القسطنطينية أيام السلطان عبـد الحميد ، وانتهت اليه رياسة (العود) فيهـا ، وله اسطوانات هي عند الموسيقيين ، كرسائل الجاحظ عند جماعة الأدباء ، واسمع فعندي واحدة منها

وقام الى (الحاكي) فأداره ، ووضع اسطوانة عتيقة ، فسمعت شيئا ما حسبت مثله يكون ، وبدا لي كل مـا سمعت الى اليوم من ضـرب الموسيقيين كأنه الى جانبه لعب أطفال ، وخربشة مبتدئين

قلت : ويحك قم بنا اليه الآن

فقمنا وأخذنا معنا شيخ الموشحات في دمشق الشيخ صبحي واثنين من مجودي المغنين ، وذهبنا اليه

* * *

ضربنـا في الجبل حتى جاوزنا الدور الفخمة والقصور العـامرة ،

ووصلنا الى طائفة من المساكن هي أشبه بأكواخ ، قد بنيت من الطين وقامت دُوَيْن الصخر ، فوقفنا عند واحدمنها ، وقرع الباب دليلنا الأستاذ حسني كنعان ، ففتح لنا رجل طوال ، عريض الألواح ، حليق الوجه محمرّه ، ولكن الكبر ظاهر عليه ، قد جعّد وجهه وان لم يحن ظهره ، ولم يهصر عوده ، ورحب بنا على الطريقة التركية ، يخفض يده ، ويلوح بها على أسلوب معروف ثم يمس بها طرف ذقنه ويرفعها الى جبهته ، كأنه يقول : اني آخذ ذيل أحدكم فأقبله وأضعه على رأسي ، وبالغ في الترحيب بنا ودعانا الى الدخول فدخلنا ، فاذا رحبة نظيفة ولكنها خالية من الأثاث ، ما فيها الا أشباه كراسي ، وسدة من الخشب مفروشة ببساط هي السرير وهي المجلس ، واذا الفقر باد ، ولكن مع الفقر ذوقا ونظافة ... فقعدنا ، وحلفنا عليه ألا يصنع لنا شيئا ، فما نريد اكرامنا منه الا باسماعنا ضربه .

أخذ قيثارته (كمانه) وقسّم (تقاسيم) هزت حبة قلبي ، فأحسست بلذة ما عرفتها من قبل ، ومع اللذة شيء من السحر ، يجعلك تتطلع الى المجهول ، وتسمو الى عالم الروح ، ويوقظ فيك ذكرياتك وآمالك كلها دفعة ...

فلما انتهى ، عرض عليه حسني العود ، فأبى واعتذر وقال : انه لا يضرب عليه ...

قال حسني : كيف وأنت سيّد من جسّ عوداً ، وأنت أمام الضاربين !

قال : انني لا أستطيع !

فلما ألحفنا وألححنا قال : ان لذلك قصة ما قصصتها على أحد ، فاسمعوها ، ولو أني وجدت ما أكرمكم به لما قصصتها عليكم ، ولكني لا أملك شيئا ، ولن أجمع عليكم حرمان السماع وكتمان السبب ...!

* * *

وهذه هي القصة مترجمة الى لغة القلم :

قال : كان ذلك منذ أمد بعيد نسيه الناس وأدخلوه في منطقة التاريخ المظلمة ، فلا يرون منه الا نقطاً مضيئة مثلما يرى راكب الطيارة من مدينة يمر بها ليلا ، أما أنا فلا أزال أحس به بجوارحي كلها ، ولا يزال حيا في نفسي ، بل أنا لا أزال أحيا فيه ، وما عشت بعده قط الا بذكراه . لقد مر على قصتي زمن طويل عندكم لأنكم تقدرونه بعدد السنين ، نصف قرن ... أما أنا فأقدره بذكراه الحية في نفسي فأجده ساعة واحدة ... لحظة ... اني أنظر الآن الى عينيها ، وأشم عطرها ، وأجلس في مجلسها . ان ما أراه حولي ظلال ، وتلك المشاهد هي الحقيقة . أفعلمتم من قبل أن ذكرى قد تَضَحُ وتظهر حتى تطمس المرئيات ، وتغطي على الحقائق ، هذه هي ذكرياتي ...

كان أبي من الباشوات الكبار المقربين من السلطان ، فلما علم أني اشتغلت بالموسيقى ، كره ذلك مني ، وصرفني عنه ، وعاقبني عليه ، فلما أصررت عليه ، أهملني واطرحني ، وطردني من داره ، فلبثت أتنقل في بيوت أقربائي وأصدقاء أبي ، أمارس تعليم الموسيقى لأبناء الأسر الكبيرة ، وكان (فلان) باشا من الآخذين بأسباب الحياة الجديدة ، يحب أن يقبس عن أوربة طرائقها في معيشتها ويقلدها في السير عليها لا يدري انه لا يأخذ عاداتها لحياته ، بل سمومها لدينه وخلقه ، فدعاني لأعلم ابنته ، وكنت يومئذ في الثلاثين ، ولكنهم كانوا يقولون عني : « انه أجمل شاب في حاضرة الخلافة » ... وأحسب أني كنت كذلك ، ولكني ـ ولست أكذبكم ـ ما عرفت طريق الحرام ، والحلال ما استطعت سلوك طريقه !

قابلت الباشا ، فأدخلني على ابنته لأعلمها ، فنظرت اليها ، فاذا هي ملتفة بـ (يشمق) من الحرير الأبيض ، لا يبدو منه الا وجهها ، وانه لأشد بياضا ولينا من هذا الحرير ، لا البياض الذي تعرفونه في النساء ، بل بياض النور ، لا ، لم أستطع الابانة عما في نفسي ، انه ليس كذلك ،

هو شيء ثمين عذب مقدس ، يملأ نفسك عاطفة لا شهوة ، واكبارا لا ميلا ، وتقديسا لا رغبة ، وكانت عيناها مسبلتين حياء وخفراً ، تظهر على خديها ظلال أهدابها الطويلة فلم أر لونهما ، وكانت في نحو السادسة عشرة من عمرها ، مثل الفلة الأرجة ابّان تفتحها ...

وانصرف أبوها بعد ما عرفني بها وعرفها بي ، وبدأ الدرس على استحياء مني ومنها ، ورفعت عينيها مرة ، فمشى بي منهما مثل الكهرباء ان لمست سلكتها ... عينين واسعتين ، فيهما شيء لا يوصف أبداً ، ولكنك تنسى ان رأيتهما أن وراءك دنيا ... انها تصغر دنياك حتى تنحصر فيهما ، فلا تأمل ان رأيتهما في شيء بعدهما ... العفو يا سادة ! أنا لست أديبا ، ولا أحسن رصف الكلم ، ففسروا أنتم كلامي ، وترجموه الى لسان الأدب ، وأين الأديب الذي يملك من الكلام ما يحيط بأسرار العيون ؟ انه لعلم أوسع وأعمق من الفلسفة والكيمياء والفلك ... أعندكم في وصفها الا أن تقولوا : عينان سوداوان أو زرقاوان ، واسعتان أو ضيقتان ، حوراوان دعجاوان ، وتخلطوا ذلك بشيء من تشبيهاتكم ؟ اعرضوا عيون الفتيات تروا أنكم لم تصفوا شيئا ، هاتان عينان متشابهتان في سعتهما ولونهما وأهدابهما ، ولكن في هذه الجمال الوادع الحالم ، وفي تلك الجمال الشرس الأخّاذ ، وفي أخرى العمق والرهبة ، وفي هذه الأمل ، وعين فيها فتنة ، وعين فيها خشوع ، وعيون فيها شيء لا تعرف ما هو على التحقيق ، ولكنه يبدل حياتك ، ويقلب عليك دنياك باللمحة الخاطفة !

ولما تكلمت سمعت صوتها كأنما هو ... مالي وللتشبيهات التي لا أحسنها ؟ وأين ما يشبه به صوتها ، وفيه الخفر وفيه الرقة وفيه فتنة وفيه رفاهية ؟ لا تعجبوا فان من الأصوات الصوت المهذب والصوت الوقح ، والصوت المرفه ، والصوت البائس ، وصوتا خليعا وآخر صيّناً . ان الصوت لينطق من غير حروف . ورب ناطقة بلا اله الا الله ، وصوتها

يدعو الى الفحشاء ! وقائلة كلمة الفجور وصوتهـا ينهي عنـه ! وانك لتستطيع أن تتخيل المرأة من صوتها • ولم يكن في زماننا هـذا الهاتف (التلفون) ولكني أعذر من أسمع عنهم أنهم يعشقون بالتلفون • فالأذن تعشق قبل العين أحيانا •

لم أجاوز الدرس ولم أقل فوقه كلمة واحدة • وكنت أشد منهـا حياءً وخجلا ، ولم يكن أبناء زماننا أولي وقاحة وجرأة كهذه الجرأة التي نراها اليوم ، وندر فيهم من كان مثل (الباشا) يسمح لابنته الناهد أن تتلقى العلم عن الرجال ـ وهو يعلم أن الشاب والشابة في الطـريق أو المدرسة يتخاطبان بلغة العيون خطاب الرجل والمرأة ، قبـل أن يتحرك اللسانان بحديث المعلم والتلميذة • وانقضى الدرس بسلام ، ولكني لما فارقتها رأيت كل شيء قد تبدل ، فقد تعلقت بالحياة وكنت بها زاهدا ، ورأيت ضوء الشمس أشـد نورا وأحسست بالوجود من حولي وقد كنت أنظر اليه غافلا ، وكان لي أصحاب لم أكن أعدل بمجلسهم وصحبتهم شيئا ففارقتهم تلك الليـلة وهربت منهم ، وذهبت الى غرفتي فلم أطق فيها قراراً ، ولا اشتهيت طعاماً ولا شراباً ، ووجدتني أخرج على الرغم مني ، فأؤم دارها ، فيردني بابهـا فأهيم حولها أوغل السير في التـلال الشجراء عند (بيوغلي) لا أستطيع النأي عن دارها • صارت هي كوني ودنياي ، قد تبدلت قيم الأشياء في نظري ، فعز ما كان منهـا أو يمتّ بصلة اليهـا ، وهان كل شيء سواه ، وانطويت على نفسي أفكر فيهـا وأتصور أدقّ حركة أو سكنة منها • وكلما ذكرتها يهز شيء قلبي فيخفق كجناح طائر علقت رجله بالفخ ، ثم يـنـدفع الشيء الى عينيّ فيفيضان بالدمع • ولا أدري كيف أمضيت ليلتي ، حتى اذا أزف موعد الدرس الثاني شعرت كأني عدت الى جنتي التي خرجت منها ، وعشت ساعة في لذة لو جمعت لذاذات الأرض كلها ما بلغت نقطة من بحرها • وعندما ودعتها نظرت الي نظرة شكَّت (وحرمة الحب) كبدي وزلزلتني زلزالا ،

وكدت من سروري بها أطير فوق رؤوس الناس خفة وفرحاً ، فقد علمت أن لي عندها مثل الذي لها عندي ، على أني ما كلمتها في غير موضوع الدرس كلمة ولا لمست طرف ثوبها ، وما هي الا نظرة واحدة ولكنها قالت فأبلغت ، وحدثت فأفهمت !

* * *

وسكت الموسيقي وجال الدمع في عينيه ، ثم قال وهو يكاد يشرق بدمعه وقد ضاع في رنّة البكاء صوته :

أتدرون ما عمري اليوم ؟ أنا فوق الثمانين ، وقد مر على هذا الحب دهر ، ولكني أراه كأنه كان أمس ، وكأني لا أزال شاباً ينطوي صدره على قلب صبيّ . ولقد حسبت أني أستطيع أن أتحدث عنه كما يتحدث الشيوخ عن ماضيات لياليهم فوجدتني لا أستطيع ، لا أستطيع فاعذروني . ان هذه الذكرى قد خالطت شعاف قلبي ، ومازجت لحمي وعظمي ، واني لأحسّ وأنا أحدثكم أني أمزّق جسدي لأستلّ منه هذه الذكريات !

قلت : فأخبرنا ماذا كان بعد ذلك ؟

قال : كان ما أخشى التحدث عنه ، اني لا أحب أن أهيج الذكرى وأثيرها ، انكم لا تدرون ماذا تصنع بي ؟ انها تحرقني ، تنتزع روحي .

كان يا سادة ، أني تدلهت بحبها ، وهمت بها ، وجعلتها هي كل شيء لي ، ان كنت معها لم أذكر غيرها ، وان فارقتها ذكرتها وفكرت فيها . فهي ماضيّ وحاضري ومستقبلي ، وهي ذكرياتي كلها وآمالي ، أراها طالعة عليّ من كل طريق أسير فيه ، وأرى صورتها في صفحة البدر ان طلع عليّ البدر ، وفي صحيفة (النوطة) ان جلست الى (البيان) ، ومن سطور الكتاب ان عمدت الى القراءة في كتاب ، فاذا جلست اليها والعود في حجري ، وعيناها في عينيّ ، وأذناها الى عودي ، تخيّلت أني معانقها هي لا العود ، وغبت عني ، وسمتْ روحي الى عالم أعرفه ولا أعرف

ما اسمه ، فرجعت منه بالسحر فجرتْ به يدي على العود ، فمن هنـاك تلك (الاسطوانات) التي كنتم تعرفونها لي .

لا ، لا تلحفوا عليّ (سألتكم بالله) ، لن أذكر لكم هذه التفاصيل ، انني انتزعها من لحمي ودمي ، فدعوها لي ، انها حظي من حياتي أتعلل بها وحدي . لا أحب أن تلوكها الافواه ويتلهى بها قراء المجلات . لقد كانت الخاتمة أن أصدقاء أبي عطفوا علي ، فخطبوها لي وكان العقـد وصارت زوجتي ، ولكن الله لم يشأ أن تتم سعادتي فَمرضَتْ ثم ...

وغلب عليه البكاء ، فلم يستطع أن يخرج الكلمة ، فأدّاها باشـارة مبتلّة بالدمع ، محروقة بأنفاس الألم !

وسكتنا ـ فقال بعد هنيّة :

وقد ذهبت أودعها ، فأخذتُ يدها بيدي ، كأني أنازع الموت اياها ، وأسحبها منه ، فقالت لي :

ـ انك غداً ، تحب غيري وتضرب لها على عودك .

قلت: لك عليّ عهد الحب ، لا نظرت بعدك الى امرأة ، ولا أجريت يدي على عود .

* * *

وسكت ، ونظـر الى العود كأنه يريد أن يعتنقه لينطقه بالمعجزات ، ويترجم به عن لواعجه ، ثم غلبه البكاء مرة ثانية فقـام ، وانسللنا نحن واحداً بعد واحد ، وأغلقنا الباب ونحن نسمع نشيجه !

الكأس الأولى

نشرت سنة ١٩٤٦

كانت ليلة مخيفة من ليـالي شتاء سنة ١٩٤١ ، وكانت تعول رياحها كما تصرخ الشياطين ، وترقص في الجو كأنها مردة الجحيم قد أفلتت من قيودها ، وأقبلت تلذع وجوه الناس بمثل حد المواسي من شدة بردها ، والثلج يتطاير كأنه القطن المنـدوف ، ويتراكم على الأبواب والنوافذ ، حتى لقد بلغ سَمكه على الأعتاب وفي أصول الجدران قريباً من ذراع ، والناس قد فزعوا الى بيوتهم فاعتصموا بها ، وخلت الشوارع وأقفرت السبل فلا ترى فيها سالكاً ...

في تلك الليلة ، كانت نوبة عبد المؤمن أفندي في مخفر (الكسوة) . يقضي ليلته وحيداً يرقب الطـريق ليحرسه من المهربين والفـارين من المكس (الجمرك) ، ومن مخالفي أنظمة التموين ، منفرداً بعيداً عن رفاقه وعن مساكن القرية ، وكان قد أخذ معه على عادته طعامه وسلاحه ، ولبس كل مـا يملك من دثر الصوف ، واشتمل بمعطفه ، ولف عليـه شملته ، وأدخل كفيه في قفازيه ، وأغلق عليه بابه ، وأوقد ناره ، واضطجع على سريره مطمئنا الى أن أحداً لن يجتاز الليلة هذا الطريق الا اذا كان مجنوناً والمجنون لا يؤاخذ ... وحاول أن يهجع ساعة فيدفأ فلم يستطع لا خوفاً من أن يطرقه المفتش ، فما في الدولة مفتش يخرج الليلة من بيته ، بل من شدة البرد ، فلقد كان النَفَس يتجمد على زجـاج (الشباك) ... ثم استدارت الريح فجعلت ترد الدخان على المدفأة حتى امتلأت به الغـرفة

ولم يجد لدفعه حيلةً ، فاضطر لاطفاء النار ولبث يتقلب في البرد حتى أحس بأن أصابعه قد تجمد فيها الدم ، فامتلأت نفسه بالنقمة على هذه الوظيفة وعلى حظه من الدنيا ، وعلى الرئيس الذي ألقاه في هذه القفرة المنقطعة بعيداً عن زوجته وبنته وولديه بمرتب لا يتجاوز مائة ليرة سورية (نحو أحد عشر جنيهاً[1]) وهو قد أشرف على الأربعين وقطع سن الأمل والنشاط ، ونظر فاذا الذين هم دونه سناً وعلماً قد بلغوا بالوساطات والشفاعات المرتبة الخامسة أو الرابعة ... وفكر في هذا المرتب ماذا يشتري به ، وكيف يعيش... وأجرة داره الصغيرة المخربة التي استأجرها من قبل الحرب ثلاثون ليرة في الشهر ، وثمن رغيف الخبز من السوق عشرون قرشاً ، وكيلو اللحم بخمس ليرات ، وكيلو الرز المصري بأربع ليرات والسكر مثله ، وكيلو الشاي بعشرين ليرة ، والحذاء المتوسط بثلاثين ، وثمن القميص مهما استرخصه عشرون ، وأجرة الطبيب العادي المبتدىء خمس ليرات ، وحبة الكينا الواحدة بأربعين قرشاً ، ولوح الزجاج إن انكسر زجاج الشباك سبع ليرات[1] ...

وطفق يدير حسابه على الوجوه كلها ، ويضرب الأخماس بالأسداس ، ويتذكر كل ما تعلمه في المدرسة وفي الحياة من علم الاقتصاد وفن تدبير المنزل ، وما سمعه من أشياخ قومه وعجائز أسرته ، فلم يسعفه شيء من ذلك كله في الاكتفاء بهذا المرتب ، وقصر مصروفه عليه ، وتذكر ولده الصغير وأن أثمان كتبه بلغت أربعين ليرة ... أما كتب ولده الكبير الطالب في الثانوية فان مجرد التفكير في أثمانها يفقده ما بقي من عقله ، واذا هو أكمل الثانوية غداً ، ودخل كلية الحقوق مثلا ... رأى بلاء أنكد وخطباً أشد ، ذلك أن الأساتذة قد استحدثوا في هذه الأيام شيئاً سبقوا فيه التجار والمحتكرين ، وأتوا بما لم يأته أحد من الأولين ،

---

(١) هذه أسعار الحرب .

فطبعوا كتبهم مجاناً في مطبعة الجامعة ، ثم حددوا لها أثماناً تجعل قرش أحدهم عشرة ، ثم ألزموا الطلاب بشرائها الزاماً ، فلا يدخل الامتحان من لا يدفع هذه الأثمان ، وحجتهم في ذلك أن الطلاب لا يشترونها اذا هم لم يجبروهم ، مع أن الطلاب وغير الطلاب يشترون كتب العلماء والأدباء من غير اكراه ولا الزام ، لأنها نافعة لهم ولأن فيها متعة ، فلماذا لا يجعل هؤلاء الأساتذة كتبهم ممتعة ويجعلون فيها نفعاً ...؟ وماذا يصنع عبد المؤمن أفندي ! أيدع ابنه محروماً من التعليم ، ويضيع هذا الذكاء النادر الذي راعت بوادره المدرسين ، ويسلمه الى وظيفة حقيرة مثل وظيفته ، لا لشيء ، بل لأن المدرسين والأساتذة المحترمين ذاقوا لذة الربح ، فنسوا فضيلة القناعة ، ولأن وزارة المعارف وادارة الجامعة ، لا تحددان الأسعار ، ولا تمنعان الأساتيذ أن يكونوا كالتجار .

وعَيَّ عبد المؤمن أفندي بهذا الحساب ، وأحس بالبرد قد وصل الى عظامه ، فازدادت نقمته على الوظيفة وعلى الحياة وعلى نفسه . وعظم سخطه حين سمع صوت سيارة ... من هذا المأفون الذي يمر الليلة على الطريق ، فيزعجه من فراشه ليخرج فيفتشه ؟ انها سيارة مهربين من غير شك ، ولا بد له من ضبطها لئلا يخون أمانته التي يأكل من ورائها الخبز . ثم عاد فتذكر أن الخبز الأبيض القفار لم يستطع أن يأكله من وراء هذه الوظيفة ، فحمل مصباحه البترولي وخرج وهو ساخط على كل شيء . فلما فتح الباب ، هبت عليه عاصفة مثلجة كادت تقتلعه من أرضه ، ولكنه استند الى الجدار وقفز الى الطريق ، فأقفله بالحواجز الحديدية قبل أن تصل السيارة ... وصفر لها بصفارته ، فضاع صوتها في هزيم الرياح ، بيد أن السيارة كانت قد وصلت ورأى من فيها المصباح الخافت ، فوقفت ، فنظر عبد المؤمن أفندي فلم يجد فيها الا السائق ، ووجدها من سيارات الشحن الكبار ، وكانت عادته التي يعرفونها عنه أنه يقوم بالواجب عليه على الوجه الأكمل ، ولم يمد يده في عمره الى حرام ، ولكن هذا البرد ،

وما في نفسه من السخط والضيق عدلا به عن عادته ، فاكتفى بادخال السائق الى المخفر ليسائله ... وأغلق وراءه البـاب ، وأعد مسدسه خوفاً من أن تطمع وحدته السائق وتغريه به ، وكان عبد المؤمن أفندي رجلاً جلداً جريئاً حذراً ، وكانت قد تراءت على وجهه ظلال نقمته التي كان يحسها ، فبدا مخيفاً مروعاً .

ونظر الى السائق فاذا هو أحـد المهربين المعروفين الذين يقودون القوافل بين عمان ودمشق عن طريق البـادية ، وربما بلغت أثمان ما في السيارة الواحدة منها مائة ألف ليرة ... فهز رأسه ، وأزمع أن يضربه الضربة القاضية ، فما يعقل أن يأخذ السائق أجرة السفرة الواحدة عشرين ألف ليرة ، ويعطي مثلها رشوة لرجال الأمن على الطريق ، ثم يأكل التاجر الباقي ، يسحبه من أفواه المساكين والفقـراء ... ويبقى هو الموظف المسكين على مائة ليرة كل شهر ، وقال له :

ــ أوراقك ، والبيان المصدق بما معك في السيارة . ثم ان عليـك أن تنتظر ريثما تهدأ العاصفة ويطلع النهار لنتمكن من تفتيشها فاذا كان فيها مهرّب ، صودرت السيارة وما فيها !

ــ قال السائق : أتحب الصدق ؟

ــ قال : نعم .

ــ قال : وهل تعدني أن نتفاهم بهدوء ، ومن غير لجوء الى الشدة ، أو اقتراب من الهاتف (التليفون) ؟

ــ قال عبد المؤمن أفندي مستغربا : وما ذاك ؟

ــ قال : ان في هذه السيارة بضاعة مهربة ، هي لفـلان ، وهو من تعلم مكانته وصلته بالنواب والحاكمين ، وله فيها شريك لو سميته لك لأرعبك اسمه ، واذا أنت حجزتها ، أطلقها هو ، وأبتَ بسواد الوجه ، وربما نقلك الى الجزيرة ...

ـ فصاح به : اسكت .. وقح ! أتهددني ؟ سترى كيف أفتشها وأحجزها ، واذهب فاعمل ما تستطيعه . ان القانون يمشي على الكبير والصغير ...

ـ قال الرجل بهدوء : لقد وصفتني بالوقاحة ، واني أسامحك . اني أتكلم بلسان الواقع ، وأنا أحب أن نتفاهم على مهل . انك رجل أمين شريف ، وأنا تقديراً لأمانتك أهدي اليك هدية ، قد فوضني صاحب البضاعة بتقديمها اليك ، تغنيك عن هذا المرتب .

ـ فغضب وقال : أتعرض عليَّ الرشوة ؟ الآن أكتب ضبطاً بالحادث ، وأريك ما جزاء من ...

ـ فوالى السائق كلامه وكأنه لم يسمع شيئاً فقال : وهذه الهدية هي عشرة آلاف ليرة ...

فلما سمع بها عبد المؤمن أفندي تراخى ، ورأى السائق ذلك منه ، فقال :

وألف فوقها مني لتدعني أمرُّ الآن ، فهذا آخر مخفر قبل دمشق ، وأنا أود أن أدخلها في هذه العاصفة كيلا يعرض لنا أحد ، واذا أنا وقفت فلن أخبر مخلوقاً بما كان بيننا ، بل أقول اني قادم من طريق آخر ...

لبث عبد المؤمن أفندي لحظة واجماً ، ولكن فكره كان يدور كما تدور عجلة (الاكسبرس) ، لا يستقر على فكرة حتى ينتقل عنها الى غيرها . وكان ماضيه الشريف ، والمستقبل الذي أطل الآن عليه يتقاذفانه ، فكأنه بينهما كراكب الأرجوحة ، لا يبلغ طرفاً حتى يكر مسرعاً الى الطرف الآخر . وكان صوت ضميره يهتف به أن : دعها ولا تدنِّس نفسك بها ، فانها سُحت ، ونفسه تناديه أن خذها ووسع بها على عيالك ، وعلّم بها ولدك ... ولبث كذلك وهو يسمع من داخله مثل دقّات عقرب الثواني في الساعة : خذ ، لا تأخذ . خذ . لا تأخذ . الى ما لا نهاية له ...

وفي دقة منها ، كان فيها (خذ) ، مد يده فأخذ المبلغ ودسه في جيبه بلا شعور ، وترك الرجل ينصرف .

* * *

أفاق عبد المؤمن من ذهلته ، فأحس بمثل ما تحس به الفتاة التي فرطت ببكارتها في لحظة ضعف وخور ، وتنبهت في نفسه عواطف الخير التي كان يملكها دفعة واحدة ، واحتقر نفسه وأبغضها وكره المال ، وتمنى لو استطاع أن يلحق الرجل فيردها اليه ، ورأى ماضيه الذي فقده الآن حلواً جميلاً ، وأحب ذلك الفقر الشريف ، واستحال ما كان يجد من السخط عليه رغبة فيه وشوقاً اليه ، وفكر كيف يلقى غداً أهله وصحبه ، وتوهم أنه سيكون بينهم كمن سقط في حفرة موحلة فامتلأت ثيابه طيناً ، ثم جاء ليجالس الأطهار الأتقياء ، وشعر بجسمه يتلهب كأن فيه ناراً تتوهج ، وبالعرق يقطر في هذا البرد من فوديه ... وصار كلما حركت الريح الباب ظن أنهم قد جاءوا لاعتقاله ، وأن أمره قد افتضح ، وحار في هذا المال أين يخفيه ، فوضعه في جيبه ، ثم خاف أن يفتش ، فنزع حذاءه وجواربه ، فأحاط به رجله ثم لبسها عليه ، ثم تراءى له أن أول مكان يفتش هو الجوارب ، أليس كذلك كان يصنع كلما فتش مهربي الحشيش والهنات الصغيرات ؟ وآلمه أن يرى نفسه قد انحطت الى دركة مهربي الحشيش ، ولكنه مع ذلك مضطر الى اخفاء هذا المال ، فأخرجه ولفه في منديل ، ثم خلع سراويله ووضعه في المكان الذي لا يصل اليه أحد ... وعاد يفكر ماذا يصنع بهذا المال ، وماذا يقول لأولاده اذا سألوه من أين لك هذا ؟ وما ألف الكذب ولا تعوده ، وان هو كذب ألا تفضحه نظراته وحركاته ؟ ثم ما هي الكذبة التي يكذبها ؟ وتصور نفسه أمام المحكمة العسكرية ، وقد سقط من أعين أولاده وأصحابه ... ان زوجته تؤثر أن تراه فقيراً معدماً ، على أن يدخل عليها سارقاً مرتشياً ... واستغرق

في خواطره ... فما نبهه الا حركة في الطريق ، فأيقن أنهم جاءوا لاعتقاله ، ففزع الى مسدسه ليقتل به نفسه ، ثم تذكر أن أشد المصائب أهون من أن يموت عاصياً ، وأنها فضيحة الدنيا بين الرفاق ، ولا فضيحة الآخرة على عيون الخلائق كلها . فمشى بنفسه الى القضاء المحتوم ، وفتح الباب ، وكانت الرياح قد هدأت قليلا والثلج قد انقطع ، فرأى سيارة مطفأة الأضواء قد تعثرت بالحواجز التي كان أعادها من غير شعور منه بالذي يفعله ، وحاول سائقها أن يدوس الحواجز ويفر ، ولكنها علقت بالدواليب واعترضت سيرها فاضطر الى الوقوف ، بعد حركة عنيفة كاد يطوّح فيها بالسيارة فيرميها في الأخدود الماثل على جنبي الطريق ...

وصرخ عليه عبد المؤمن أفندي ومسدسه بيده ، فخرج من السيارة وتبعه الى المخفر وهو مصفر الوجه ، مرتعد الاوصال ، اذ كان حديث عهد بصناعة التهريب ليس له جرأة الأول وثباته ، وأقبل على الجندي فزعاً يقول : دخيلك ، أنا في عرضك ، والله هذه أول مرة ، وقد ورطوني، وليس لدي الا هذه السيارة ، هي مالي كله ومنها معيشة عيالي ...

وانكبّ على يديه يقبلها ، فتنبهت غريزة الطمع في نفس الجندي ، وعاد مثله مثل الرجل الذي أقدم على الفاحشة ، ثم ندم عليها وذهب يحاول التوبة ، فدخلت عليه امرأة أخرى قد لبست بدل الثياب الفتنة والاغراء ودعته الى نفسها ... وقال للسائق :

ـ دعك من هذا الكلام الذي لا يفيد . لا بد من مصادرة السيارة وما فيها ، الا اذا شئت أن تتفاهم ...

وكان شعور عبد المؤمن أفندي ، وهو يقول هذه الكلمة ، وقد توترت أعصابه كلها واشتدت ، وقد تجمع كالقط الذي يرى الفأر ، مثل شعور المقدم على الوصال المحرّم ، وهو يرى قبح عمله ولكن الميل اليه

غالب عليه ، فهو لا يملك لشهوته رداً ، ولما رأى السائق لا يفهم ، ويعود الى استعطافه ورجائه ، تجرأ وقال له :

باختصار : كم فوضوك أن تدفع ؟ ثم نظر حواليه هل سمعه أحد ؟ وحوّل وجهه حتى لا تقع عينه على عين السائق ، وغلب عليه الحياء اذ كانت تلك أول مرة ... فرأى السائق باب الفرج ، وقال عجلاً : الذي تريده ، الذي تأمر به ، بَس(١) اسمح لي أمرّ .

قال : اثنا عشر ألف ليرة ! وتوهم لما قالها أنه قذف قنبلة ذرية أخرى، كالتي ألقيت على هيروشيما ، وأحس رجّتها في أذنيه ... فارتاع الرجل وصاح : أرجوك ، أنا داخل على حريمك(٢) ، والله ما معي الا خمسة آلاف ، ان السيارة محملة غزلا ، وليست كالتي مرت قبلها ، تلك فيها حرير . قال : هات وامشِ .

وقبض عبد المؤمن أفندي المبلغ فصار معه ستة عشر ألفاً ، مرتب مائة وستين شهراً في الوظيفة كسبها في ليلة ، فكيف غفل عن هذا المورد أيامه الماضية كلها ... وعاد يفكر في الشرف والطهر وفي الفضيحة ... وأحس كأنه قد جن ... ففتح الباب ، وخرج يعدو مع الريح لا يدري الى أين يذهب ...

لقد كان يريد أن يفر من المخفر ومن الحكومة ، ومن الرشوات ، ومن صوت الضمير ... ويريد أن يفر من نفسه !

ولم يدر أنه شرب (الكأس الأولى) وفسد ، ولم يعد يصلحه شيء !

---

(١) بس معربة قديمة ولا بأس باستعمالها .
(٢) هذا من العامي الذي لا ينكره الفصيح .

أستاذ

نشرت سنة ١٩٤١

لما بلغنا قرية (صاريتا) كان الصبح يتنفس ، فطرقنا أول باب لقيناه ، فلما فتح لنا واحتوانا (المنزل) المعد للضيفان ، سقطنا من الكلال والاعياء كالقتلى ، فلم نلبث أن غرقنا في لجة الكرى . ولا عجب أن يبلغ منا التعب هذا المبلغ وقد سرنا الليل كله على الأقدام نصعد جبلاً ثم نهبط وادياً ثم نتسلق الصخر ، حتى أدركنا هذه القرية التي فرت من العمران ، وتغلغلت في الأودية المقفرة من لبنان الشرقي حتى وجدت هذه الذروة التي لا يضارعها شيء في عزلتها وعلوها وضياعها بين الأرض والسماء فاستقرت عليها .

ولما أفقنا ورأينا احتفاء القوم بنا ، وعجبهم من سُرانا اليهم وقدومنا عليهم ، سألناهم وضربنا معهم في شعاب الأحاديث ، فعلمنا أنه لم ينزل بلدهم (أعني أنه لم يصعد اليها ...) غريب عنها قبلنا ، وكانوا يكلموننا على تخوُّف وحذر ، فلما اتتسبنا اليهم ، وعرفناهم بنفوسنا داخلهم شيء من الاطمئنان . غير أنهم لم يكونوا يجيبون عن أسئلتنا وانما يحيلونها على الأستاذ (نحن فلاحون لا نفهم عنكم ، ولكن اذا جاء الأستاذ ...) ورأيتهم يذكرون الأستاذ كما تذكر الرعية الملك المحبوب ، تبرق عيونهم حباً ، وتخشع أصواتهم احتراماً ، فكنت أعجب أن يكون لمعلم القرية ، وهو لعمري أستاذهم مثل هذه المنزلة ، وعهدنا بمعلمي القرى أن الجندي أكبر في عيون الفلاحين منهم . وقلت : ألا تدعون لنا هذا الأستاذ المحترم حتى نراه ؟ فلما سمعوا هذه الكلمة اضطربوا وتلفتوا يتبادلون النظرات ،

وعراهم مثل ما يعرو المؤمنين سمعوا كلمة الكفر . وكانت سكتة طالت ، فأعدت السؤال ، فقال صاحب المنزل وهو يبذل أكبر الجهد حتى يمسك غضبه فلا يؤذي ضيفه : ان الأستاذ يزار ولا يزور . فلما سمعت ذلك اطمأننت وقلت : لا بأس ، انّا نتشرف بزيارته ، ولو علمت عادته ما سألتكم دعوته ، فقوموا بنا اليه . فقاموا وقد سرى عنهم بعض الذي وجدوا ، ومشينا نصعد في طرقات القرية الضيقة الملتوية ، وأنا أتصور هذا (الأستاذ) بعين الوهم فلا أراه الا مثل من عرفت من معلمي الصبيان ، غير أن له فيما يبدو دهاء ومكراً ، مَخرَق بهما على الفلاحين وموّه عليهم حتى حسبوه شيئاً وما هو بشيء .

حتى اذا بلغنا ذروة الجبل وجدنا عليها بيتاً هو أعلى بيت في القرية و (العين) أسفل منه ، وحوله حديقة لطيفة ، فدخلنا البيت فاذا فيه فرش نظيف ، وأثاث من أثاث المدن ، وخزانة كتب بالقرب منها مكتب صغير عليه أوراق وأقلام ، وكتاب مفتوح عرفت من نظرة واحدة أنه « الاحياء » للغزالي ، فلا والله ما أظن أني عجبت من شيء عجبي منه . ولبثنا هنيهة ، ثم دخل علينا شيخ أبيض اللحية ، قد وضع على كتفيه عباءة ستر بها ثوباً من ثياب التفضل أبيض نظيفاً ، فرحب بنا بلهجة فصيحة وانطلق يحدثنا . أما الفلاحون فقد جلسوا عند الباب لم يقتربوا من الشيخ اجلالاً له ، وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير .

كان الشيخ يتكلم وكنت أحدّ النظر اليه وأكدّ ذهني لأذكر أين رأيت هذا الوجه . فلما طال ذلك مني ولحظة قال : مالك يا بني ؟ قلت : أظن أني أعرفك يا سيدي . فضحك وقال : وأنا أعرفك يا بني ، أما كنت في المدرسة التجارية سنة ١٩١٨ ؟ فتأملته ورأيت كأني رجعت طفلاً أنظر من وراء ثلاث وعشرين سنة الى أستاذي الجليل الشيخ « عبد الواسع » ، فلم أملك أن صحت : أستاذي ! ووقعت على يديه أقبلهما ، وأقبل يمسح على ظهري ويقبل جبيني ، وقد استعبر كل من حضر .

أستاذي الذي ترك المدرسة وأحيل الى المعاش منذ عشرين عاماً ، وانقطعت أخباره عنا وحسبناه مات ، لا يزال حياً ؟ ويقيم في قرية (صاريتا) الضائعة بين السماء والأرض ! ان هذا لعجيب .

* * *

قلت وقد سكن المجلس بعد أن حرّكته هذه المفاجأة الغريبة : وكيف عرفتني يا سيدي الأستاذ ، وقد غيرتني الأيام ؟ قال : ما تغيرت عليّ ، ولقد ذكرتك من أول نظرة . ألم تكن في الصف الخامس حينما انتهت الحرب ، وخرج الأتراك من الشام ليدخلها الشريف ؟ ألم تكن في المقعد الأول حيال الشباك ، والى جانبك (سرّي) أين هو (سرّي) الآن ؟ قلت : لا أدري يا سيدي ، ولم ألقه أبداً بعد تلك السنة . قال الشيخ مترفقاً ناصحاً بلهجته التي كان يخاطبني بها وأنا صغير (لم أنسها) قال : ولم يا بنيّ ؟ لماذا لا تصل اخوان المدرسة ؟ أما علمتك الحياة أن صداقة المدرسة خير صداقة وأمتنها ؟ أصلحك الله يا ولدي .

وأطرق الشيخ يفكر ، ثم قال : هل علمت يا ولدي أن المعلم يتمنى ألا يكبر تلاميذه أبداً ، وأنه لا يتصورهم الا كما عرفهم أول مرة ولو صاروا رجالاً ؟ أنا لا أرى فيك الآن الا ذلك الصبي الذي كان في المقعد الأول حيال الشباك . فقدر المحنة التي يصاب بها المعلم حين يرأسه أحد تلاميذه . أتعرف عدنان ؟

قلت : ومن عدنان ؟ قال : لا . لم يكن معكم ، هو أصغر منكم . عدنان هذا كان من أصغر تلاميذي وأحبهم اليّ . لقد جعلته الأيام ناظر المدرسة التي كنت فيها ، فتصوره وهو يدعوني اليه ويستقبلني قاعداً ، ويأمرني بأمره . ولقد نالني مرة بسوء لأني لم أوفه ما يراه حقه من الاحترام . وكيف أحترمه يا ولدي وأنا لا أقدر أن أرى على كرسيه الا

عدفان الطفل ذا الشعر الاشقر ؟ كيف أحترمه ؟ أأحترم ولدي ! سامحه الله . سامحه الله لقد آلمني وآذاني .

ان المعلم يحس بوخزة في كبده اذا أعرض عنه تلاميـذه أو أنكروه أو ترفعوا عليه . كأن أولئك الأطفال هم الذين ترفعوا عليـه . لا يعلم المسكين أن الطفل لا يبقى أبد الدهر طفلاً ... لا . لا يتخيل ذلك أبداً ...

وسكت الشيخ قليلاً ثم رجع يقول : وكنت ترفع أصبعك دائماً ، أرأيت ؟ اني لم أنسك . وكيف ينسى المعلم تلاميذه وهم بعض ذكرياته ، والذكريات هي الحيـاة .

ثم سألني : وماذا تشتغل أنت الآن ؟ فضحكت وقلت : معلم .

قال : آه ... مسكين ... لماذا اخترت هذه المهنة يا ولدي ؟ قلت : اني سأتركها عما قريب يا سيدي ، لقد دخلت القضاء . قال : وتظن أنك تستطيع ؟ ان تلاميذي الذين أحببتهم ومنحتهم قلبي ، قد أنكروني ... لم أعد أخطر لهم على بال . لم يزرني منهم أحـد ... لقد رأيت منهم ألوان الجحود ، ولكني لا أزال أحبهم ، وأتمنى لو أستطيع أن أضمهم الى صدري ... آه ... كم يتألم الأب اذا رأى ولده يعرض عنه وينكره ويمر كأنه لا يعرفه ؟ لم ألق منهم خيراً ، ومع ذلك فأنا أحب أن أنشىء غيرهم ، وأن أصب البقية البـاقية من روحي وحياتي في نفوس أطفال جدد ، أعلم أنهم لن يكونوا خيراً من أولئك ، ولكن هذه هي آفة المهنة ... انها مهنة ليس فيها الا الألم ... ولكن صاحبه يستمرئه ويجزع لفقده كصاحب (الكوكائين) يأخذه وهو يأخذ حيـاته ، فاذا افتقده ، حن اليه ... أليس هذا من الغرائب ؟

اني أمر على مدرسة القـرية ، فأسمع الطـلاب يرددون درساً ، أو يرتلون أنشودة ، فيخفق قلبي في صدري ، وأحسد هذا المعلم الذي أخذ مني أولادي ... لا تعجب يا ولدي ... سل الفلاح الذي يشق الأرض

ويغرس فيها البذر وينتظر النبتة الضعيفة ... فاذا ظهرت تعهدها بالسقي والعناية ، وقاس طولها يوماً بعد يوم ، فلا تنمو أنملة الا وضع في هذه الأنملة أمله ورجاءه وخوفه واشفاقه وأحاطها بعواطفه ، وصب فيها من ماء حيــاته ... حتى اذا نما النبت واستطال ، وظللته غصونه ، وتدلى من حوله زهره ، وأينع ثمره ، اضطر الى بيعه ... فما هي الا عشية أو ضحاها حتى يراه في يد غير يده ... سَلْه ُ كم يتألم ويشقى ، ويتقطع القلب منه حسرات كلما نظر الى هــذه الأشجار ، وذكر ما له فيها من ذِكَر وما أنفق عليها من أصباحه وأماسيه ، ومن حبه وأماني نفسه ... وانها لأشجار ... جمادات لا تعقل ... فكيف بي وقد ربيت بشراً ثم أعرضوا عني ونسوا عواطفي وحبي ... ومــا نسيتهم ولا أقلعت عن حبهم ؟

وما كان لي يا ولدي أن أزعجــك بحديثي لولا أني أنفّس به عن نفسي . انني أعيش وحيداً في هذه القرية المعتزلة لا أدري كيف أزجي الباقي من أيام حياتي . اني أشكو الملل ، ولا أطيق النوم ، فلا أجد الا النجم أراقبه وذكرياتي أناجيها . وكثيراً ما تثقل عليَّ هذه الذكريات ، حتى لأضلّ قلبي بين حاضر لا متعة فيه وماض لا رجعة له .

لا ، يا ولدي ، لا تحرص على هذه المهنة . اتركها ان استطعت فهي محنة لا مهنة . هي ممات بطيء لا حياة . ان المعلم هو الشهيد المجهول الذي يعيش ويموت ولا يدري به أحد ، ولا يذكره الناس الا ليضحكوا من نوادره وحماقاته ...

* * *

وعدنا من العشية نسلك تلك الأودية ، ونتخطى تلك الصخور عائدين من (صاريتا) ولا يزال حــديث أستاذي يدوي في أذني ، فأحس به في هذه البرّية الساكنة قوياً مجلجلاً ، ولكن الناس لا يسمعونه ، وان هم سمعوه لم يحبوا أن يفهموه !

الخادمة

نشرت سنة ١٩٤٦

قال : ان لديّ قصة أحب أن أقصها عليك ، وانك لتعلم أني لست ممن يؤلف القصص ، ولست ممن يحسن الاستعارة والتشبيه وسائر أبواب المجاز التي تعلمنا أسماءها في المدرسة ، فلا تأمل أن تسمع مني قصة أدبية معقودة من وسطها بعقدة فنية ، مردودة الأول على الآخر ، فيها الصورة النادرة ، والفكرة المبتكرة ، والأسلوب البارع ، فليس عندي من ذلك شيء ، وانما هي واقعة أرويها كما رأيتها وسمعتها ، وانّ فيها لدرساً نافعاً لمن يرى الحياة مدرسة ، فهو يدأب على الاستفادة منها والانتفاع بها ، فهل تحب أن تسمعها ؟

قلت : نعم

قال : لا أدري من أين أبدأ القصة لتجيء محكمة الوضع يرضى عنها أهل الأدب ، فدعني أبدأها من نصفها ، فما لك في أولها كبير نفع ، وان أولها ليلخص مع ذلك في كلمة ، هي أن لي أقرباء اخوة ثلاثة شباباً أعزاباً يقيمون مع أمهم العجوز التي ربتهم وقامت عليهم منذ تركهم لها أبوهم أيتاماً صغاراً ، حتىاذا كلّت وهرمت ، وعجزت عن خدمة الدار ، ذهبوا يفتشون لها عن خادم تعينها ، ولو فتشوا عن ثلاث زوجات لهم لكان ذلك أهون عليهم وأدنى اليهم ، فلما طال التفتيش وزادت الحاجة ، وجدوا بنتاً من (التواني) فقنعوا بها ، وأنت تعلم أن (التواني) قرية منزوية في حدور (القلمون) الأدنى ، مما يلي (القطيفة) ضائعة بين تلك الأودية المقفرة والجبال ، وان أهلها من أقذر القرويين وأجفاهم وأبعدهم عن المدنية ، على صحة فيهم وجمال . وكانت بنتاً — كما

يقولون ـ ذكية ، فسرعان ما ألفتهم وألفوها ، وأقامت فيهم سنين طويلة ما أنكروا منها شيئاً ، ولم أرها أبداً على كثرة ما كنت أتردد على الدار ، حتى كان اليوم الذي جعلته مبدأ قصتي هذه ...

* * *

وكنت أزور أقربائي هؤلاء ، فدعوني الى الشاي ، فاذا هي تدخل فتقدمه اليّ ، واذا فتاة في نحو السادسة عشرة قد تخمرت بخمار أبيض لفّته من فوق رأسها الى ما تحت ذقنها ، فعلَ القائمة الى الصلاة ، فسترت به شعرها وجيدها ، وبدا منه وجهها مدوّراً أبيض مورّداً يطفح بالصحة والصبوة ، ويُشعّ منه السحرُ والدلال ، وكانت تلبس ثوباً قصيراً لا يكاد ينزل عن الركبتين ، يكشف عن ساقين بضّتين غضّتين ممتلئتين في غير سمن ، ممشوقتين في غير هزال ، مصبوبتين صبّ التمثال ، وفوق الثوب صدار من وشي رقيق كالذي تتخذه أنيقات الخادمات ، قد شدّ شدّاً ، فهو يُبرز من ورائه نهدين راسخين ، يلقيان عليه ظلاً لهما خفيفاً لا يعرف موقعه من النفس الا من قرأ سطور النهود في صدور العذارى ... وكانت تحمل الشاي بأكف كأنها خلقت بلا عظام ، وكان جسمها ينبض بالعاطفة التي تلين أقسى الرجال ، وتستخرج الصبوة من قرارات النفوس فتظهرها ، ولو قيدتها قيود من الخلق المتين ، ولو غَطّتها ستُور من الهمّ الدفين ، ولو أنساها صاحبَها علمٌ يشتغل به ، أو مال يسعى وراءه ، ولو أن الصبوة قد ماتت ، لردّها هذا الجمال المطبوع حيّة ... أما عيناها ، فدعني بالله من وصفهما ، فما أدري ما لونهما وما شكلهما ، فان لهما سرّاً يشغلك عن التفكير في وصفهما ... انهما تروعانك فتبقى معلقاً بهما ، فاذا حاولت أن تضبط نفسك وتعود الى ما كنت فيه ، لم تشعر الا وأنت قد عدت اليهما ... ان فيهما مغناطيس يجذب الأبصار والقلوب ...!

فلما خرجت ، قلت : أهـذه هي الخادم القروية التي جئتم بهـا من (التواني) ؟

قالوا : نعم .

قلت : فأخرجوها من هذه الدار ، فانها أخطر من البارود ! فضحكوا وعدُّوها نكتة ...

* * *

وعدت مرة أخرى ، فاذا هي بلاخمار ، فسألتها عنه ، فقالت — ويا ليتها لم تقل ، فما كنت أدري أن لها مع جمالها هذا الصوت الذي يرنُّ كأجراس الفضة في مواكب الأحلام .. أو كرنّات العيدان في خيـال متذكر ليلة غرام — قالت :

— اني قد استثقلته فألقيته أمام الأقرباء ، وأنت منهم (مُشْ هيك) ؟

وشفعتها ببسمة من فيها ، وغمزة من مقلتيها ، وهزة من كتفيها ... فما هذه البنت ؟ ! ومن أين لهـا هذا كله ؟ ! وحياتك لو أنها ربيت في مسارح (مونمارتر) في باريز لكان هذا كثيراً منها ، فكيف تعلمته في مزابل (التواني) ؟ !

وعبستُ فما أحببت أن أوغل معها في هذا الطريق ، فولّت ترقص رقصاً لا تمشي مشياً ، وشعرها الذهبي حقـاً لا تشبيهاً ، المنشور على كتفيها وظهرها ، البالغ حقويها يرقص معها !

وعدت بعـد ذلك ، فاذا هي قد جزّت شعرهـا على (الموضة) ، وأمرّت يد الزينة على وجه مـا يحتاج الى زينة ، وطرحت صدارها ، ولبست ثياب فتاة غنية مدللة ، لا ثيـاب خادم ، فانفردت بأكبر الأخوة من أقربائي فقلت له :

— انك أنت واخوتك من أمتن الناس خلقاً وأقومهم سيرة ، ولكن

هذه البنت تفتن والله العابد ، وتستزل الزاهد ، وتحرك الشيخ الفاني ... وانها لتسحر بكل نظرة وكل حركة ، ويكاد جسمها يتفجر اغراء بالمعصية ، واذا أنتم أبقيتموها في هذه الدار فما أظن الأمر ينتهي بسلام !

واستجاب لما قلته له ، ورآه حقاً ، فأخرجها وأدخل مكانها زوجة صالحة ...!

* * *

قال : ودخلت البنت داراً أخرى ، دار قوم مترفين منعَّمين لا يسألون عن المال أين ذهب ، وكانوا كلهم ثلاثة : أباً تاجراً جاهلاً ، همه عمله في النهار ، وسهراته في الليل ، وأماً شغلها ثيابها وزياراتها واستقبالاتها ، وولداً شاباً في العشرين طالباً في الجامعة صاحب جد ودراسة وخلق ودين ، غير أنه كان — ككل الصالحين من لداته — يطوي صدره على مثل البارود المحبوس في القنبلة اذا طار منها مسمار الأمان ، أو صدمتها صدمة فرجَّتها تمزقت ومزقت من حولها ! وكانت الصدمة لها هذه الخادمة اللعوب !

وبدأت من اليوم الاول تولي اهتمامها صاحبنا الذي أسميه (الشاب) كراهة أن أصرح باسمه ، وتنسج حوله خيوطها ... فاذا ناداها لحاجة له — ولم يكن له بدٌّ من أن يناديها — قفزت قفزة الغزال وأقبلت تحفُّ بها شياطين الشهوة ... فتراه منصرفا عنها ، فتبسم له ، وتسأله عما يريده ، بصوت يقطر فتونا ، وتسلط عليه من عينيها مغناطيس مكهرباً يذيب القلوب ، ولو كانت من صفا الجلمود ، وان أعانته في رفع نضد ، أو تسوية كرسي ، أو ناولته شيئاً ، دنت الملعونة منه حتى لامست بهذا الجسم اللدن الدافىء المكهرب ، جسمه القويَّ القَرِمَ الى (اللحم) ! أو قرَّبت وجهها الفتان من وجهه حتى ليحسَّ لسع أنفاسها ، ويشم رائحة جسمها ، وانها لأفتن من كل عطور الدنيا وطيبها ، وأين العطر من ريح جسم المرأة ؟ أو تتعمد حركة تزيح ثوبها القصير لحظة عن بياض

فخذيها . وكان المسكين بشرا ، اجتمعت عليه صبوة الحب في نفسه ، واغراء الجمال في خادمته .. وحماقة أبويه اللذين جاءاه بها وغفلا عنه وعنها ، وصارا يتركانه معها وحيدين في الدار طول النهار ، حتى لقد بعثاها مرة تناوله الصابون في الحمام ... وثار في أول الأمر عليها ، وأعرض عنها ، ثم أحسّ أن سمّها سرى في جسده وروحه ، فاستنفر آخر قوى الفضيلة في نفسه وألح على أبويه في اخراجها من المنزل ، فأبيا ، وكيف يفرطان فيها وقد وجداها بعد طول البحث ، وكبير العناء ؟ وهل تدع (الستّ) زياراتها وسينماها ، وتشتغل هي : بالطبخ والكنس لمجرد أن البنت الخادمة جميلة و (دلّوعة) ويخشى منها ؟ كلام فارغ !

هكذا كان يفكر الأبوان المحترمان .. وضُربا بالعمى عن حقيقة لا تخفى على عاقل ، هي أن الرجل والمرأة حيثما التقيا وكيفما اجتمعا : معلماً وتلميذة ، وطبيبا وممرضة ، ومديراً وسكرتيرة ، وشيخاً ومريدة ، فانهما يبقيان رجلا وامرأة ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما خلا رجل بامرأة (هكذا ، على الاطلاق) الا كان الشيطان ثالثهما ! »

ومرض الشاب ، وعجز عن الاحتمال ... فكانت الخادمة هي التي تقوم على خدمته ، وتصرم الليل كله ساهرة عليه ، وتبدل ثيابه فتراه كما هو وتستبيح بالنظر واللمس كل اصبع في جسده ، وهو لا يحسّ بها ، حتى اذا تماثل للشفاء ، ومرّ في طريق النقاهة رآها الى جانبه ، وكان المرض قد أضعف عزمه وأوهن ارادته ، فانكسر السد وطغى الحب ... وفي ليلة كان فيها النعاس قد نال منها ، حلف عليها الا أن تستريح وتنام ، وكان في الغرفة سرير آخر فاستلقت عليه أمامه ... وكان هذا أكثر من أن تحتمله أعصاب رجل في الدنيا ، فطار النعاس ، وكانت النتيجة المحتومة لهذه المقدمات ! ودخلت (الست) في الصباح ، فرأت الخادمة بين ذراعي ابنها ! !

صحت البنت من سكرتها ، وصحا الأهلون وأرادوا اصلاح ما فسد ،

وهيهات ! ان الماء قد انسفح على الرمل فمن يردّ الماء المسفوح ؟ وعود الكبريت قد احترق فمن يعيد العود المحروق ؟ وعرض البنت قد مزق فمن يرتق العرض الممزق ؟ لا أحد !

ووثبوا يفتشون كالمجانين عن طريق للخلاص ، وأقبل الشيطان مرة ثانية ، وكانت المؤامرة ، وانجلت عن ستر هــذه الجناية بجناية أخرى ، هي أن ترد البنت الى أبيها الذي يطلبها ليزوجها من ابن عمها ، وقبلت ، وماذا تصنع اذا هي لم تقبل ؟

وكان الفصل الآخر من المأساة واني سأختصره اختصاراً :

دبّر الأمر على عجل ، وعقد العقد ، وسيقت العروس (الشامية ... الى الشاب القروي) ، وحسب المسكين كأنما رأى ليلة القدر فدعا فهبطت عليه حوراء من حور الجنان ... وكان الدخول ، واحتوى بين ذراعيه الخشنتين ذلك الجسم الذي تتقطع عليه نفوس أبناء الأمراء حسرات و... فاذا الثمرة مقطوفة !

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ماذا ؟ صار ابن العم في السجن ، والبنت في القبر ! واســدل الستار على فصل جــديد من هذه المأساة التي تتكرر فصولها دائماً في بيوت الشام .

قصة أب

نشرت سنة ١٩٤٦

دخل عليّ أمس ، بعد ما انصرف كتّاب المحكمة ، ولبست معطفي لأخرج ، رجل كبير يسحب رجليه سحباً لا يستطيع أن يمشي من الضعف والكبر . فسلم ، ووقف مستنداً الى المكتب وقال :

اني داخل على الله ثم عليك[1] ، أريد أن تسمع قصتي ، وتحكم لي على من ظلمني .

قلت : تفضل ، قُلْ أسمع .

قال : على أن تأذن لي أن أقعد ، فوالله ما أطيق الوقوف .

قلت : أقعد ، وهل منعك أحد من أن تقعد ؟ أقعد يا أخي ، فان الحكومة ما وضعت في دواوينها هذه الكراسي وهذه الأرائك الفخمة الا ليستريح عليها أمثالك من المراجعين الذين لا يستطيعون الوقوف . ما وضعتها لتجعل من الديوان (قهوة) يؤمّها (البطّالون ...) الفارغون ليشتغل الموظف بحديثهم عن أصحاب المعاملات ... ويضاحكهم ويساقيهم الشاي والمرطبات ، والناس قيام ينتظرون لفتَة أو نظرة من الـ (بك) !

لا . لسنا نريدها (فارسية) كسروية في المحكمة الشرعية ، فاقعد مستريحاً فانه كرسي الدولة ، ليس كرسيّ أبي ولا جدي ، وقل ما تريد ...



(١) تعبير عامي لا بأس به ، وقد أبقينا على مثله في حديث الرجل .

قال : أحب أن أقص القصة من أولها ، فأرجو أن يسعني صبرك ، ولا يضيقَ بي صدرك ، وأنا رجل لا أحسن الكلام من أيام شبابي ، فكيف بي الآن وقد بلغت هذه السنّ ، ونزلت عليّ المصائب ، وركبتني الأمراض ... ولكني أحسن الصدق ولا أقول الا حقاً ...

كنت في شبابي رجلا مستوراً أغدو من بيتي في حارة (كذا) على دكاني التي أبيع فيها الفجل والباذنجان والعنب ، وما يكون من (خُضر) الموسم وثمراته ، فأربح قروشاً معدودات أشتري بها خبزي ولحمي ، وآخذ ما فضل عندي من الخُضر فيطبخه (أهل البيت[1]) ونأكله وننام حامدين ربنا على نعمائه ، لا نحمل هماً ولا نفكر في غد ، ولا صلة لنا بالناس ولا بالحكومة ، ولا نطالب أحداً بشيء ولا يطلب منا شيئاً . ولم أكن متعلماً ولا قعدت في مدرسة ، ولكني كنت أعرف كيف أصلي فرضي ، وأحسب دراهمي ... ولقد عشت هذا العمر كله ولم أغش ولم أسرق ولم أربح الا الربح الحلال ، وما كان ينغّص حياتي الا أنه ليس لي ولد ، فجرّبنا الوسائل وسألنا القابلات ولم يكن في حارتنا طبيب ولم نحتجْ اليه . فقد كان لنا في طبّ (برو العطار) وزُهوراته وحشائشه ما يغنينا عن الطبيب والصيدلي . واذا احتجنا الى خلع ضرس فعندنا الحلاق ، أما أمراض النساء فمردّ أمرها الى القابلة ، ورحم الله أم عبد النافع قابلة الحارة ، فقد لبثت أربعين سنة تولّد الحاملات ولم تكن تقرأ ولا تكتب .

أقول انّا سألنا القابلات والعجائز فوصفن لنا الوصفات فاتخذناها ، وقصدنا المشايخ فكتبوا لنا التمائم فعلقناها ، فلم نستفد شيئاً ، فلم يبق الا أن ننظر أول جمعة في رجب لنقصد (جامع الحنابلة[2]) ، فلما

---

(١) كذلك يكني الشاميون عن الزوجة الى اليوم على عادة العرب من كراهية التصريح بذكرها .

(٢) في الصالحية على سفح جبل قاسيون وهو غير دير الحنابلة الذي كان قائماً قبل أن يبني آل قدامة حي الصالحية من نحو ثمانمئة سنة .

جاءت بعثت (أهل البيت) فقرعت حلقة الباب وطلبت حاجتها فنالت طلبها[٣] ... وحملت ...

وصرت أقوم عنها بالثقيل من أعمال المنزل لأريحها خشية أن تسقط حملها وأكرمها وأدللها . وصرنا نعدّ الأيام والساعات حتى كانت ليلة المخاض فسهرت الليل كله أرقب الوليد ، فلما انبلج الفجر سمعت الضجة وقالت (أم عبد النافع) : البشارة يا أبا ابراهيم ! جاء الصبي .

ولم أكن أملك الا ريالاً مجيدياً واحداً فدفعته اليها .

وقلّبنا الصبي في فرش الدلال ، ان ضحكَ ضحكت لنا الحياة ، وان بكى تزلزلت لبكائه الدار ، وان مرض اسودّت أيامنا وتنغّص عيشنا . وكلما نما أصبعاً كان لنا عيد ، وكلما نطق بكلمة جدّت لنا فرحة ، وصار ان طلب شيئاً بذلنا في اجابة مطلبه الروح ... وبلغ سن المدرسة ، فقالت أمه : ان الولد قد كبر فماذا نصنع به ؟

قلت : آخذه الى دكاني فيتسلى ويتعلم الصنعة .

قالت : أيكون خضرياً ؟

قلت : ولم لا ؟ أيترفع عن مهنة أبيه ؟

قالت : لا والله العظيم ! لا بد أن ندخله المدرسة مثل عصمة ابن جارنا سموحي بك . أريد أن يصير (مأموراً) في الحكومة فيلبس (البدلة) والطربوش مثل الأفندية ...

وأصرّت اصراراً عجيباً ، فسايرتها ، وأدخلته المدرسة ، وصرت أقطع عن فمي وأقدم له ثمن كتبه . فكان الأول في صفه ، فأحبه معلموه وقدروه وقدّموه ...

---

(٣) خرافة دمشقية وثنية من آمن بها أو بأمثالها من الخرزة الزرقاء لرد العين ، والسحر والشعوذات واعتقد أن لغير الله نفعاً أوضرراً فيما وراء الأسباب الظاهرة فقد خالف الاسلام .

ونجح في الامتحان ، ونال الشهادة الابتدائية . فقلت لها : يا امرأة ! لقد نال ابراهيم الشهادة ، فحسبنا ذلك وحسبه وليدخل الدكان .

قالت : يوهْ ! ويلي على الدكان... أضيّع مستقبله ودراسته ؟ ! لابد من ادخاله المدرسة الثانوية .

قلت : يا امرأة ، من علّمك هذه الكلمات ؟ ما مستقبله ودراسته ؟ أيترفع عن مهنة أبيه وجده ؟ قالت : أما سمعت جارتنا أم عصمة كيف تريد أن تحافظ على مستقبل ابنها ودراسته ؟ قلت : يا امرأة ، اتركي البكوات ... نحن جماعة عوام مستورون بالبركة ، فما لنا وتقليد من ليسوا أمثالنا ؟

فولولت وصاحت . ودخل الولد الثانوية ، وازدادت التكاليف فكنت أقدمها راضياً ... ونال البكالوريا .

قلت : وهل بقي شيء ؟

قال الولد : نعم يا بابا . أريد أن أذهب الى أوربا .

قلت : أوربا ؟ وما أوربا هذه ؟ !

قال : الى باريز ...

قلت : أعوذ بالله ! تذهب الى بلاد الكفار ؟ والله العظيم ان هذا لا يكون !

وأصرَّ وأصررت وناصرته أمه ، فلما رأتني لا ألين ، باعت سواريْ عرسها وقرطيها ، وذلك كل مالها من حلي اتخذتها عدة على الدهر ، ودفعت ثمنها اليه فسافر على الرغم مني !

وغضبتُ عليه وقاطعته مدة ، فلم أردَّ على كتبه ، ثم رق قلبي وأنت

تعلم ما قلب الوالد ؟ وصـرت أكاتبه وأسأله عما يريد ... فكان يطلب دائماً ...

أرسلْ لي عشرين ليرة... أرسل لي ثلاثين... فكنت أبقى أنا وأمه ليالي بطولها على الخبز القفار وأرسل اليه ما يطلب !

وكان رفاقه يجيئون في الصيف وهو لا يجيء معهم ، فأدعوه فيعتذر لكثرة الدروس ، وأنه لا يحب أن يقطع وقته بالأسفار !

ثم ارتقى فصار يطلب مئة ليرة ... وزاد به الأمر آخر مرة فطلب ثلاثمئة !

تصور يا سيدي ماثلاثمئة ليرة بالنسبة لخضري تجارته كلها لايساوي ثمنها عشرين ليرة ، وربحه في اليوم دون الليرة الواحدة ؟ وياليته كان يصل اليها في تلك الأيام التي رخصت فيها الأسعار ، وقل العمل ، وفشت البطالة ، ثم انه اذا مرض أو اعتلّ علة ، بات هو وزوجته على الطوى... فكتبتُ اليه بعجزي ونصحته ألا يحاول تقليد رفاقه ، فان أهلهم موسرون ونحن فقراء فكان جوابه برقية مستعجلة بطلب المال حالاً !

وانك لتعجب يا سيدي اذا قلت لك اني لم أتلق برقية قبلها في عمري . فلما قرع موزع البريد الباب ودفعها الي ، وأخذ ابهام يدي فطبع بها في دفتره ، انخرطت كبدي من الخوف ، وحسبتهـا دعوة من المحكمـة ، وتوسلت اليه وبكيت ، فضحك الملعون مني وانصرف عني ، وبتنا بشر ليلة ما ندري ماذا نصنع ، ولا نعرف القـراءة فنقرأ ما في هذه الورقة الصفراء ، حتى أصبح الله بالصباح ولم يغمض لنا جفن ، وخرجت لصلاة الغداة فدفعتها لجارنا عبده أفندي فقرأهـا وأخبرني الخبر ، ونصحني أن أرسل المبلغ ، فلعل الولد في ورطة وهو محتاج اليه !

فبعت داري بنصف ثمنهـا ، أتسمع يا سيدي ؟ بعت الدار بمئتي

ليرة ، وهي كل ما أملك في هـذه الدنيا ، واستدنت البـاقي من مراب يهودي دلوني عليه بربا تسعة قروش عن كل ليرة في الشهر ، أي أن المئة تصير في آخر السنة مئتين وثمانية ! وبعثت بذلك اليـه وخبرته أني قد أفلست !

وانقطعت عني كتبه بعد ذلك ثلاث سنوات ، ولم يجب على السيل من الرسائل التي بعثت بها اليه ! !

ومر على سفره سبع سنين كوامل لم أر وجهه فيها ، وبقيت بلا دار ، ولاحقني المـرابي بالدين ، فعجزت عن قضـائه ، فأقام علي الدعوى ، وناصرته الحكومة عليّ لأنه أبرز أوراقاً لم أدر ما هي فسألوني : أأنت وضعت بصمة أصبعك في هذه الاوراق ؟

قلت : نعم . فحكموا علي بأن أعطيه ما يريد والا فالحبس . وحبست يا سيدي . نعم حبست وبقيت (المرأة) وليس لهـا الا الله ، فاشتغلت غسّالة للناس ، وخادمةً في البيوت ، وشربت كأس الذل حتى الثمالة .

ولما خرجت من السجن قال لي رجل من جيرانـا : أرأيت ولدك ؟ قلت : ولدي ؟ ! بشّرك الله بالخير . أين هو ؟ قال : ألا تدري يا رجل أم أنت تتجاهل ؟ هو موظف كبير في الحكومة ويسكن مع زوجته الفرنسية داراً فخمة في الحيّ الجديد .

وحملت نفسي وأخـذت أمه وذهبنا اليه ، وما لنا أمنيّة في العيش الا أن نعانقه كما كنا نعانقه صغيراً ، ونضمه الى صدورنا ونشبع قلوبنا منه بعد هـذا الغياب الطويل . فلما قرعنا الباب ، فتحت الخادمة ، فلما رأتنا اشمأزت من هيئتنا ، وقالت : ماذا تريدون ؟ قلنا : نريد ابراهيم . قالت : ان البك لا يقابل الغـرباء في داره ، اذهبا الى الديوان . قلت : غرباء يا قليلة الأدب ؟ أنا أبوه . وهذه أمه .

وسمع ضجتنا فخرج ، وقال : ما هذا ؟ وخرجت وراءه امرأة فرنسية جميلة .

فلما رأته أمه بكت وقالت : ابراهيم حبيبي ؟ ومدَّت يديها وهمَّت بالقاء نفسها عليه ، فتخلى عنها ونفض ما مسته من ثوبه وقال لزوجته كلمة بالفرنساوي ، سألنا بعد عن معناها فعلمنا أن معناها (مجانين) !

ودخل وأمر الخادم أن تطردنا ... فطردتنا يا سيدي من دار ولدنا !

وما زلت أتبعه حتى علقت به مرة فهددني بالقتل اذا ذكرت لأحد أني أبوه وقال لي : ماذا تريد أيها الرجل ؟ دراهم ؟ أنا أعمل لك راتباً بشرط ألا تزورني ولا تقول انك أبي ! !

ورفضت يا سيدي الراتب وعدت أستجدي الناس ، وعادت أمه تغسل وتخدم حتى عجزنا وأقعدنا الكبر والمرض فجئت أشكو اليك فماذا نصنع ؟

فقلت للرجل : خبرني أولا ما اسم ابنك هذا وما هي وظيفته ؟

فنظر اليَّ عاتباً وقال : أتحب أن يقتلني ؟ !

قلت : ان الحكم لا يكون الا بعد دعوى ، والدعوى لا تكون الا بذكر اسمه .

قال : اذن أشكو شكاتي الى الله .

وقام يجرُّ رجله يائساً ... حتى خرج ولم يعد !

العجوزات (١)

نشرت سنة ١٩٤١

... أغلق الشيخ الباب فتنفس أهل الدار الصعداء ، وأفاقوا افاقة من يودع الحلم المرعب ، أو الكابوس الثقيل ، ثم انفجروا يصيحون ، يفرغون ما اجتمع في حلوقهم من الكلمات التي حبسها وجود الشيخ فلم ينبسوا بها ، وانطلقوا في أرجاء الدار الواسعة . والأولاد (صغار أولاد الشيخ وأحفاده) يتراكضون ويتراشقون بما تقع عليه أيديهم من أثاث الدار ، ويتراشّون بالماء ، أو يدفع بعضهم بعضاً في البركة الكبيرة التي تتوسط صحن الدار ، فيغوص الولد في أمواهها ، فتعدو اليه أمه أو من تكون على مقربة منه فتخرجه بين قهقهة الصغار وهتـافهم وتقبل عليه لتنضو عنه ثيابه وتجفف خشية المرض جسده ، فاذا هو يتفلّت من بين يديها ، ثم يركض وراء اخوته وأبناء عمه ليأخذ منهم بالثأر ، والماء ينقط من ثيابه على أرض الدار المفروشة بالرخام الأبيض والمرمر الصافي ، التي أنفقت الأسرة ساعات الصباح كلها في غسل رخامها ومسحه بالاسفنج ، حتى أضحى كالمـرايا المجلوّة أو هو أسنى ... وعلى السجاد الثمين الذي يفرش القاعات الكثيرة والمخادع ، وهم ينتقلون من غرفة الى غرفة ، ومن درج الى درج ، ويفسدون ما يمرون به من الأغراس التي لم تكن تخلو من مثلها دار في دمشق ، من البرتقال والليمون والكباد والفراسكين والنارنج والأترجّ (الطرنج) وقباب الشمشير والياسمين والورد والفل ، تتوسط ذلك كله الكرمة (الدالية) التي تتمدد على (سقـالة) تظلل

---

(١) في هذه القصة صورة لدمشق القرن التاسع عشر .

البركة تحمل العنب (البلدي) الذي يشبه في بياضه وصفائه اللؤلؤ ، لولا أن الحبة الواحدة منه تزن أربع حبات مما يسمى في مصر والعراق عنباً ... والجدة تعدو وراءهم ما وسعها العدو تصرخ فيهم صراخاً يكاد من الألم يقطر منه الدم :

« وَلَكْ يا وَلَدْ انت ويَّاه ... يقصف عمري منكم ... وسختم البيت ... يا ضيعة التعب والهلاك ... الله يعجل عليَّ بالموت حتى أخلص منكم ! »

فيختلط صراخها بصياح الأولاد ، وضحك الضاحكين منهم وبكاء الباكين ، وهم يتضاربون ، ويسقطون ما يعثرون به من الأواني والكئوس ... ولا يصغي لنداء الجدة أحد منهم ...

* * *

ويلبثون على ذلك حتى ينادي المؤذن بالظهر ، فتنطفيء عند ذلك شعلة حماستهم ، وتتخافت أصواتهم ويحسون بدنوّ ساعة الخطر ، فينزوي كل واحد منهم في ركن من أركان الدار ينظر في ثيابه يحاول أن يزيل ما علق بها من الأوساخ ، أو أن يصلح ما أفسد منها ، كيلا يبقى عليه أثر يعلن فعلته ، ويتذكرون ما هشموا من أثاث المنزل حين عاثوا فيه مخربين ، فيجمع كل واحد منهم ما يقدر عليه من حطام الأواني فيلقيه في زاوية الزقاق في غير الطريق الذي يمر منه الشيخ ، ويرجع النسوة الى أنفسهن فيسرعن في اعداد الطعام واصلاح المنزل. وتدور العجوز لتطمئن على أن قبقاب الشيخ في مكانه لم يزح عنه شعرة ، لا تكل هذه (المهمة) لكنتيها ولا لبناتها ، لأنها لم تنس طعم العصي التي ذاقتها منذ أربعين سنة ... في ذلك اليوم المشئوم الذي وقعت فيه الكارثة ولم يكن قبقاب الشيخ في مكانه ، وضم اليها القدر مصيبة أخرى أشد هولاً وأعظم

خطراً ، فتأخر صبُّ الطعام عن موعده المقدس (في الساعة الثامنة الغروبية) عشر دقائق كاملات ...

وللشيخ حذاء (كندرة) للعمل ، وخف (صرماية) للمسجد ، و (بابوج) أصفر يصعد به الدرج ويمشي به في الدار ، (وقبقاب) للوضوء ، وقد تخالف الشمس مجراها فتطلع من حيث تغيب ، ولا يخالف الشيخ عادته فيذهب الى المسجد بحذاء السوق ، أو يتوضأ ببابوج الدرج ...

وتعد العجوز قميص الشيخ ومنديله ، وتهيىء (البقجة) التي تضع فيها ثياب السوق بعد أن تساعده على نزعها وتطويها على الطريقة التي ألفتها وسارت عليها منذ ستين سنة ، من يوم تزوج بها الشيخ وكان في العشرين وكانت هي بنت ست عشرة ، وهي لا تزال تذكر الى الآن كيف وضح لها أسلوبه في الحياة وبيَّن لها ما يحب وما يكره ، وعلمها كيف تطوي الثياب وكيف تعدّ القبقاب ، كما علمها ما هو أكبر من ذلك وما هو أصغر وحذرها نفسه وخوفها غضبه اذا هي أتت شيئاً مما نهاها عنه ، فأطاعت ولبثت هذا العمر كله وهي سعيدة مسعدة طائعة مسرورة لم تخالف الا في ذلك اليوم المشئوم وقد لقيت فيه جزاءها ، ونظرت العجوز الساعة فاذا هي في منتصف الثامنة . لقد بقي نصف ساعة ... ففرقت أهل الدار ووزعت عليهم الأعمال ، كما يفرق القائد ضباطه وجنده ويلزمهم مواقفهم استعداداً للمعركة ، فأمرت بنتها الكبرى باعداد الخوان للطعام ، وبعثت بالأخرى لتمسح أرض الدار التي وسخها الأولاد ، وأمرت كنتيها بتنظيف وجوه الصغار وابدال ثيابهم حتى لا يراهم الشيخ الا نظافاً ... ثم ذهبت ترد كل شيء الى مكانه ، ولكل شيء في هذه الدار الواسعة موضع لا يريمه ولا يتزحزح عنه ، سنة سنَّها الشيخ لا تنال منها الغِيَر ولا تبدلها الأيام ، فهو يحب أن يضع يده على الشيء في ظلمة أو نور ، في ليل أو نهار ، فيلقاه في مكانه . ولما اطمأنت العجوز

الى أن كل شيء قد تم ، نظرت في الساعة فاذا هي دون الموعد بخمس دقائق ... فاستعدت وغسلت يديها ووجهها ولبست ثوباً نظيفاً كعهدها ليالي عرسها لم تبدل العهد ، واستعد أهل الداربكبارهم وصغارهم . فلما استوى عقرب الساعة الثامنة أرهفوا أسماعهم فاذا المفتاح يدور في الباب . انه الموعد ولم يتأخر الشيخ عن موعده هذا منذ ستين سنة الا مرات معدودة عرض له فيها شاغل لم يكن الى دفعه من سبيل . فلما دخل أسرعوا اليه يقبلون يده وأخذت ابنته العصا فعلقتها في مكانها ، وأعانته على خلع الحذاء وانتعال البابوج الأصفر ، وسبقته زوجته الى غرفته لتقدم اليه ثياب المنزل التي يتفضل[1] بها .

* * *

غاضت الأصوات ، وهدأت الحركة ، وعادت هذه الدار الواسعة الى صمتها العميق ، فلم يكن يسمع فيها الا صوت الشيخ الحازم المتزن ، وأصوات أخرى تهمس بالكلمة أو الكلمتين ثم تنقطع ، وخطى خفيفة متلصصة تنتقل على أرض الدار بحذر وخوف ... وكانت غرفة الشيخ التي يؤثرها على يمين الايوان العظيم ذي القوس العالية والسقف المنقوش الذي لا تخلو من مثله دار في دمشق ، والذي يتوجه أبداً الى القبلة ليكون لأهل الدار مصيفاً يغنيهم عن ارتياد الجبال في الصيف ، ورؤية ما فيها من ألوان الفسوق ، يشرفون منه على الصحن المرمري وأغراسه اليانعة وبركته ذات النوافير ... وكانت غرفة الشيخ رحبة ذات عتبة مستطيلة تمتد على عرض الغرفة التي تعلو عن الأرض أكثر من ذراع كسائر غرف الدور الشامية ، تغطيها (تخشيبة) مدّ عليها السجاد وفرشت في جوانبها (الطراريح) : الوسائد والمساند ، وقامت في صدرها دكة أعلى ترتفع عن (التخشيبة) مقدار ما تهبط عنها العتبة . وكان

(١) أي يتبذل .

مجلس الشيخ في يمين الغرفة يستند الى الشباك المطل على رحبة الدار ، وقد صفّ الى جانبه علبه وأدواته ، وهنّ حق النشوق الذي يأخذ منه بيده ما يَنشقه من التبغ المدقوق الذي ألفه المشايخ فاستحلوه بلا دليل حتى صاروا يشتمّونه في المسجد كما حرموا الدخان بلا دليل ... والى جنب هذا الحق علبة نظارات الشيخ ومنديله الكبير والكتابان اللذان لا ينتهي من قراءتهما : الكشكول والمخلاة ، وفي زاوية الشباك أكياس بيضاء نظيفة مطوية يأخذها معه كل يوم حينما يغدو لشراء الطعام من السوق ، فيضع الفاكهة في كيس واللحم في آخر ، وكل شيء في كيسه الذي خصصه به ، وهذه الأكياس تغسل كل يوم وتعاد الى مكانها . وعن يساره خزانة صغيرة من خشب السنديان المتين أشبه الأشياء بصندوق الحديد ، لا يدري أحد حقيقة ما فيها من التحف والعجائب ، فهي مستودع ثروة الشيخ وتحفه ، ومما علم أهل الدار عنها أن فيها علباً صغاراً في كل علبة نوع من أنواع النقد : من النحاسات وأنصاف المتاليك والمتاليك وأمّات الخمسين وأمات المائة والبشالك والزهراويات الى المجيديات وأجزائها والليرات العثمانية والانكليزية والفرنسية ، كل نوع منها في علبة من هذه العلب ، فاذا أصبح أخذ منها مصروف يومه الذي قدره له يوم وضع (ميزانية الشهر) ، ثم اذا عاد نظر الى ما فضل معه ، فضم كل جنس الى جنسه . وفي هذه الخزانة (وهي تدعى في دمشق الخرُستان) ، الفنار العجيب الذي كان يخرجه اذا ذهب ليلاً (وقلما كان يفعل) يستضيء به في طرق دمشق التي لم يكن فيها أنوار الا أنوار النجوم ومصابيح الأولياء وسرجهم ، وأكثر هذه السرج يضاء ببركة الشيخ عثمان نهاراً ويطفأ ليلاً ... وفيها الكأس التي تطوى ... والمكبرة التي توضع في شعاع الشمس فتحرق الورقة من غير نار ... وفيها خواتم العقيق التي حملها الشيخ من مكة ، فأهدى الى أصحابه قسما منها وأودع الباقي خزانته ... وفيها الليرات الذهبية التي كان

يعطيها الأطفال فيأكلونها لأن حشوها (شكولاطة) ... وكانت هذه هي عجائب الدار السبع !

وأمام الشيخ (الرحلاية) وفوقها (السكمجاية) ، وهي صندوق صغير فيه أدراج دقيقة ومخابىء وشقوق للأوراق ، وبيوت للأقلام في صنعة لطيفة ، وهيئة غريبة ، كانت شائعة يومئذ في دمشق ، موجودة في أكثر البيوت المحترمة ...

والويل لمن يمس شيئاً من أدوات الشيخ أو يجلس في مكانه . ولقد جنى الجناية أحدالأطفال مرة فعبث بعلبة النشوق فأسرعت أمه فزعة وأخذتها منه وأبعدته وأعادتها الى مكانها ، فانزاحت لشؤم الطالع عن موضعها مقدار أنملة وعرف ذلك الشيخ ، فكان نهار أهل المنزل أسود ، وحرموا بعده الدنوّ من هذا الحمى !

* * *

كان الشيخ في الثمانين ولكنه كان متين البناء شديد الأسر ، أحاط شبابه بالعفاف والتقى ، فأحاط العفاف شيخوخته بالصحة والقوة ، وكان فارع الطول عريض الأكتاف ، لم يشك في حياته ضعفاً ، ولم يسرف على نفسه في طعام ولا شراب ولا لذة ، ولم يحد عن الخطة التي اختطها لنفسه منذ أدرك . فهو يفيق سحراً والدنيا تتخطر في ثوب الفتنة الخاشعة والخشوع الفاتن ، والعالم ساكن لا يمشي في جوانبه الا صوت المؤذن وهو يكبِّر الله في السحر يتحدَّر من أعلى المنارة فيخالط النفوس المؤمنة فيهزها ويشجيها ، يمازجه خرير الماء المتصل يصعد من نافورة الدار يكبِّر (هو الآخر) ربه ويسبح بحمده ، (وان من شيء الا يسبح بحمده) ، فيقف الشيخ متذوقاً حلاوة الايمان ، ثم ينطلق لسانه بـ (لا اله الا الله) تخرج من قرارة فؤاده المترع باليقين ، ثم ينزع ثيابه وينغمس في البركة يغتسل بالماء البارد ما ترك ذلك قط طول حياته ،

لا يبالي برد الشتاء ولا رطوبة الليل . وكثيراً ما كان يعمد الى قُرص الجليد الذي يغطي البركة فيكسره بيده ويغطس في الماء ثم يلبس ثيابه ويصلي ما شاء الله أن يصلي ، ثم يمشي الى المسجد فيصلي الصبح مع الجماعة في مجلس له وراء الامام ما بدله يوماً واحداً ، ويبقى مكانه يذكر الله حتى تطلع الشمس وترتفع فيركع الركعتين المأثورتين بعد هذه الجلسة ، ويرجع الى داره فيجد الفطور معداً والأسرة منتظرة ، فيأكل معهم اللبن الحليب والشاي والجبن أو الزبدة والزيتون والمكدوس ، ثم يغدو الى دكانه فيجدها مفتوحة قد سبقه ابنه الأكبر اليها ففتحها ورتبها .

والدكان في سوق البزازين أمام قبر البطل الخالد نور الدين زنكي (١) ، وهي عالية قد فرشت أرضها بالسجاد وصفّت أثواب البز أمام الجدران ، ووضعت للشيخ وسادة يجلس عليها في صدر الدكان ويباشر أبناؤه البيع والشراء بسمعه وبصره ، ويدفعون اليه الثمن ، فاذا ركد السوق قليلاً تلا الشيخ ما تيسر من القرآن أو قرأ في (دلائل الخيرات) أو تحدّث الى جار له مسنٍّ حديث التجارة ، أما السياسة فلم يكن في دمشق من يفكر فيها أو يحفلها ، وانما تركها الناس للوالي والدفتردار والقاضي والخمسة أو الستة من أهل الحل والعقد ، وكان هؤلاء هم الحكومة (كلها ...) وكان الشيخ مهيباً في السوق كهيبته في المنزل ، تتحاشى النسوة المستهترات الوقوف عليه ، واذا تجرّأت امرأة فكشفت وجهها أمامه لترى البضاعة ، كما تكشف كل مستهترة ، صاح بها فأرعبها وأمرها أن تستتر وأن تلزم أبداً حدود الدين والشرف ، وكانت تبلغ به الهيبة أن يعقد الشباب بينهم رهاناً ، أيّهم يقرع عليه بابه ، ويجعلوا الرهان ريالاً مجيدياً أبيض ، فلا يفوز به أحد منهم .

وكان الشيخ قائماً بحق أهله لا يرد لهم طلباً ، ولا يمنعهم حاجة

---

(١) وكان مكان المدرسة النورية قصر هشام بن عبد الملك .

يقدر عليها ، ولكنه لا يلين لهم حتى يجرؤوا عليه ، ولا يقصّر في تأديب المسيء منهم ، ولا يدفع اليهم الفلوس أصلاً . وما لهم والفلوس وما في نسائه وأولاده من يخرج من الدار ليشتري شيئاً ؟ وما لهم ولها وكل طعام أو شراب أو كسوة أو حلية بين أيديهم ، وما اشتهوا منه يأتيهم ؟ ولماذا تخرج المرأة من دارها ، اذا كانت دارها جنّة من الجنان بجمالها وحسنها ، ثم ان فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ؟

* * *

يلبث الشيخ في دكّانه مشرفاً على البيع والشراء حتى يقول الظهر : (الله أكبر) ، فينهض الى الجامع الأموي وهو متوضىء منذ الصباح ، لأن الوضوء سلاح المؤمن ، فيصلي فيه مع الجماعة الأولى ، ثم يأخذ طريقه الى المنزل ، أو يتأخر قليلاً ليكون في المنزل عندما تكون الساعة في الثامنة . أما العصر فيصليه في مسجد الحي ، ثم يجلس عند (برو العطار) فيتذاكر مع شيوخ الحي فيما دقّ وجل من شؤونه ... اختلف أبو عبده مع شريكه فيجب أن تؤلّف جمعية لحل الخلاف ... والشيخ عبد الصمد في حاجة الى قرض عشر ليرات فلتهيأ له ... وعطا أفندي سلّط ميزابه على الطريق وآذى السابلة فلينصح وليجبر على رفع الأذى عن الناس ...!

أي أن هذه الجماعة محكمة ، ومجلس بلدي ، وجمعية خيرية اصلاحية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وكان (برو العطار) مخبر اللجنة ووكيلها الذي يعرف أهل الحي جميعاً برجالهم ونسائهم ، فاذا رأى رجلاً غريباً عن الحي يحوم حول أحد المنازل سأل عنه من هو ؟ وماذا يريد ؟ واذا رأى رجلاً يماشي امرأة نظر لعلّها ليست زوجته ولا أخته ، ولم يكن في دمشق صاحب مروءة يماشي امرأته في طريق فتعرف به حيثما سارت ، بل يتقدمها أو تتقدمه ويكون بينهما بعد بعيد ، واذا

بنى رجل غرفة يشرف منها على نساء جاره أنبأ الشيخ وأصحابه فألزموه هدّه ، وان فتح امرؤ شباكاً على الجادة سدّوه ، لأن القوم كانوا يحرصون على التستر ويكرهون التشبه بالافرنج ، فالبيوت تبدو من الطريق كأنها مخازن للقمح لا نافذة ولا شباك ، ولكنها من الداخل الفراديس والجنان . فكان الحي كله بفضل الشيخ وصحبه نقياً من الفواحش صيّناً ، أهله كأهل الدار الواحدة لا يضنّ أحد منهم على الآخر بجاهه ولا بماله ، واذا أقام أحدهم وليمة ، أو كان عنده عرس أو ختان ، فكل ما في الحي من طباق و(صوان) وكؤوس تحت يده وملك يمينه .

* * *

مرّ دهر والحياة في هذه الدار سائرة في طريقها لا تتغير ولا تتبدل ولا تقف . مطّردة اطراد القوانين الكونية ، حتى جاء ذلك اليوم ...
ودقّت الساعة دقّاتها الثمان ، وتهيأ أهل الدار على عادتهم لاستقبال الشيخ ، ولكن العجوز الطيبة والزوجة المخلصة لم تكن بينهم ، وانما لبثت مضطجعة على الأريكة تشكو ألماً شديداً لم يفارقها منذ الصباح . وأدار الشيخ مفتاحه ودخل فلم يرها وهي التي عوّدته الانتظار عند الباب ، ولم تحد عن هذه العادة مدة ستين سنة الا أيام الوضع ويوم ذهبت لتودع أباها قبل وفاته ، فسأل الشيخ عنها بكلمة واحدة أكملها باشارة من يده ، فخبّرته ابنته وهي تتعثر بالكلمات هيبة له وشفقة على أمها ، أنها مريضة . فهز رأسه ودخل ، فلما وقع بصره عليها لم تتمالك نفسها فنهضت على غير شعور منها تقبل يده ، فلما مست أصابعه أحسّ كأنما لمسته جمرة ملتهبة ، وكان الشيخ على ما يبدو من شدّته وحزمه وحبه النظام ، قوي العاطفة ، محباً لزوجته مخلصاً لها ، فرجع من فوره ولم يأكل ، ولم يدر أحد في المنزل لماذا رجع ولم يجرؤ على سؤاله

واكتفوا بتبادل الآراء في تعليل هـذه الحادث الغريب ، الذي يشبه في أنظارهم خروج القمر عن مداره . ومضت على ذلك ساعة أو نحوها ، ثم سمع المفتاح يتحرك في البـاب فسكتوا وحبسوا الأنفاس وترقّبوا هذه المفاجأة . فدخل الشيخ وصاح : « روحوا من الطريق » ، فاختبأ النسوة ليدخل الضيف ، غير أنهن نظرن من شقّ البـاب ـ على عادة نساء البلد ـ فأبصرن الطبيب وكن يعرفنه لتردده على المنزل كلما تردد عليه المرض ... وكان الطبيب شيخاً وكانت بينه وبين العجوز قرابة ، ومع ذلك فقد أمر الشيخ العجوز بلبس ملاءتها وألا تظهر منها الا ما لا بد من اظهاره ، ثم أدخله عليهـا ، فجسّ نبضها ، وقاس حرارتها ، ورأى لسانها . وكان ذلك منتهى الدقة في الفحص في تلك الأيام ، ثم خرج مع الشيخ يساره حتى بلغا البـاب ، فودعه الشيخ وعاد ، فأمر بأن تبقى العجوز في غرفتها وأن تلزم الحمية وتتناول العلاج الذي يأتيها به ...

* * *

مرت أيام طويلة والعجوز لم تفارق الفراش ، وكان المرض يشتد عليهـا حتى تذهل عن نفسها ، وتغلبها الحمّى فتهذي ... « صـارت الساعة الثامنة ... يلاّ يا بنت ، حضّري الخوان ... والقبقاب ؟ هل هو في مكانه ... » ؟ وتهم أحياناً بالنهوض لتستقبل زوجهـا ، وكانت بنتاها وكنّتاها يمرضنها ويقمن في خدمتها فاذا أفاقت حدثتهن وسألتهن عن الشيخ هل هو مستريح ؟ ألم يزعجه شيء ؟ والدار ؟ هل هي كمـا تعهدها أم قد اضطربت أحوالها ؟ ذلك همهـا في مرضها وفي صحتها ، لا هم لها سواه .

وحل موسم المعقود وهي مريضة فلم تطق على البقاء صبراً ، وكيف تتركه وهي التي لم تتركه سنة واحـدة من هـذه السنين الستين التي عاشتها في كنف زوجها ، بل كانت تعقد المشمش والجانرك والباذنجان

والسفرجل ، منه ما تعقده بالسكر ومنه ما تعقده بالدبس ، وكانت تعمل مربّى الكبّاد واليقطين ، فيجتمع لهـا من أنواع المعقودات والمربيات والمخللات (الطرشي) ومن أنواع الزيتون الأسود والأخضر والمفقّش والجلّط وأشكال المكدوس معمل أمقـار (كونسروة) صغير تقوم به هذه الزوجة المخلصة وحدها صامتة[1] ، ولا يعيقها ذلك عن تربية أولادها ولا عن ادارة منزلها وتنظيفه ولا عن خياطة أثوابها وأثواب زوجها وبنيها ، بل تصنع مع هذا كله البرغل ، وتغسل القمح وتعجن العجين .

حل الموسم فكيف تصنع العجوز المريضة ...؟ لقد آلمها الأمر وحزّ في كبدها ، وبلغ منها أكثر مما بلغ المرض بشدّته وهوله ، فلم يكن من ابنتها المخلصة وكنّتها الوفية الا أن جاءتا بالمشمش فوضعتاه أمام فراشها وطفقتا تعقدانه أمامها ، وتعملان برأيها فكان ذلك أجمل ما تتمنى العجوز .

واشتدّت العلّة بالمرأة وانطلقت تصيح حتى اجتمع حولها أهل الدار جميعاً ، ووقفوا ووقف الأطفال صامتين وحبهم لهذه العجوز الطيبة التي عاشت عمرها كلها لزوجها وبنيها يطفر من عيونهم دمعاً حـاراً مدراراً ، وهم لا يدرون ماذا يعملون ، يودون لو تفتدى بنفوسهم ليفدوهـا . ثم هـدأ صياحها ، وجعل صوتهـا يتخافت حتى انقطع ، فتسلل بعض النسوة من الغرفة ، ووقف من وقف حائراً يبكي .

ولكن العجوز عادت تنطق بعد ما ظنوها قضت ، فاستبشروا وفرحوا ، وسمعوها تتكلم عن راحة الشيخ وعن المائدة والساعة الثامنة والبابوج والقبقاب ... بيد أنها كانت يقظة الموت ، ثم أعقبها الصمت الأبديّ . وذهبت هذه المرأة الطيبة ، وكان آخر ما فكرت فيه عند موتها ، وأول ما كانت تفكر فيه في حياتها : زوجها ودارها ...



(١) لا يزال ذلك كله في بيوت الشام الى اليوم .

ارتفع الكابوس عن صدور الأطفال حين اختل نظام الفلك ولم يبق لهذا الموعد المقدس في الساعة الثامنة روعته ولا جلاله ، ولم يعد يحفل أحد بالشيخ لأنه لم يعد هو يحفل بشيء . لقد فقد قرينه ووليفه وصديق ستين سنة ، فخلت حياته من الحياة ، وعادت كلمته لا معنى لها ، وانصرف عن الطعام وأهمل النظام ، فعبثت الأيدي بعلبه وأكياسه ، وامتدت الى (الخرستان) السرية التي أصبح بابها مفتوحاً ، فلم تبق فيها تحفة ولا مالاً ، وهو لا يأسى على شيء ضاع منه بعد ما أضاع شقيقة نفسه . وتهافت هذا البنــاء الشامخ ، وعاد ابن الثمانين الى الثمانين ، فانحنى ظهره وارتجفت يداه ووهنت ركبتاه ، ولم يكن الا قليــل حتى طويت هذه الصفحة ، فختم بها سفر من أسفار الحياة الاجتماعية في دمشق كله طهر وتضحية ونبل !

طبق الأصل

نشرت في سنة ١٩٤٦

ان الحياة تؤلف قصصاً ، يعجز أبرع أهل الفن عن توهّم مثلها ، ولكن الحياة لا تذيع (مؤلفاتها) ولا تعلن عنها ، فتبقى (مخطوطة) مخبوءة لا يصل اليها ولا يقرؤها الا رجل حديد البصر ، طويل اليد ، ذو جلد على البحث وصبر على التنقيب ، ولست ذلك الرجل ، ولا أنا من عشاق المخطوطات وروّاد المباحث[١] ، ولكن الأيام ألقت هذه القصة في طريقي ، فوجدتها (مطويّة) في سجلات محكمة من المحاكم ، مقطّعة الأوصال ، مفرقة الأجزاء ، فألصقت أوصالها ، وجمعت أجزاءها ، و (نشرتها) في الرسالة ، ومالي فيها الا الرواية !

* * *

بدأت هذه القصة في مخفر للشرطة في مدينة (كذا) في ظهيرة يوم وهج عصيب من أيام تموز[٢] تسعَّر فيها الجو ، وأقفرت الشوارع من السالكين الا سالكاً بسيارة تطوي له الأرض ، أو عربة تخبُّ به خيولها يقطر العرق من صدورها وأعرافها ، أو صاحب حاجة مفلساً يخوض الهاجرة ماشيا في قضائها ، أو موظفاً مسكيناً انصرف الى منزله لا يجد اذا كان أميناً أجرة سيارة ولا عربة ولا حمار لو أنها تؤجَر الحمير الآن ، كما كانت تؤجَر من زمان ...

---

(١) بحث فتش ، والمباحث في الاصل المكان المجهول .

(٢) تموز هو الاسم العربي لشهر يوليو ، ولا يعرف بغيره في الشام كله والعراق ، اما اهل الحجاز ونجد فاشهرهم قمرية وتواريخهم هجرية .

وكان في المخفر أربعة من الشرطة قد نزعوا أرديتهم ، وحلّوا مناطقهم ، واستلقوا على مقاعدهم في كسل وارتخاء ، واستسلم كل لأفكاره وهمومه ، أو انطلق سادراً في أودية الأحلام ، فذو العيال منهم يفكر في همّ البيت ومشاكل النفقات ، والخبيث يكدّ ذهنه يفتش عن شيء برّاني[1] وما أهون الوصول اليه في هذه الأيام التي فشت فيها الرشوات والبراطيل[2] حين غلت الأشياء كلها ولكن رخصت الضمائر ، وسعّرت الحكومة الأشياء كلها وتركت الذمم ، والعزب التقي يداري من شهوته مثل لذع النار تؤرثها مشاهد الطريق ويحبسها خوف الله والعار ، ان كان قد بقي في (العشق ...) اليوم من عار .

والماجن يتعلل بذكريات ليلة فاجرة ويتلمّظها[3] ويلتذ بالتفكير في فجور جديد ... وكانوا سكوتاً لا تسمع منهم الا أغنية الصمت التي ليس لها آخر ، يقطعها بين الفترة والفترة سؤال مختصر يلقيه أحدهم بصوت خافت تتعثر كلماته وهي سائرة في الفضاء من الضجر والملل ، يجيب عليه الآخر بهزة من رأسه أو بكلمة مفردة يمضغها بين أسنانه ويبتلع الحرف الأخير منها ، يعود السكون كمان كان !

ويفتح الباب .

ويرفع الشرطيون الأربعة رؤوسهم ينظرون من هذا المتطفّل الثقيل الذي دخل عليهم هذه الساعة ، وكل واحد منهم يتمنى أن يكفيه غيره مشقة صرفه والتخلص منه ، ولم يكن فيهم من ينشط لعمل ولا لحديث ، ولكنهم لا يرون القادم حتى يطير الخمول من نفوسهم ، ويدبّ النشاط

---

(١) شيء براني من العامي الفصيح . وفي الخبر من اصلح جوّانيه أصلح الله برّانيه ، انظر القاموس .

(٢) البرطيل الرشوة . وبرطلته رشوته فتبرطل ، فهي من العامي الفصيح .

(٣) وعامة الشام يقولون تلمض .

في أجسامهم ، وينسى ذو العيال همّ البيت ، وطالب الرشوة لذة المال ، وينسى (العاشق) المحروم فتاة أحلامه ، وتتعلق أبصارهم بالقادم وكأن الدهشة قد ثبّتتها في محاجرها فهي لاتتحرك ولا تطرف ، ثم ينظر كل في ثيابه فيصلح منها ما يستطيع ، ويمد يده الى قميصه فيحكم زيقه(٤) والى ردائه فيرتديه ، ويقف مستعداً كأنما قد فاجأه المدير العام ، ويتم ذلك كله في لحظات !

ولم يكن القادم المدير العام بل تلك الفتاة الجميلة المتكبّرة التي كانت تمر بهم كل يوم شامخة الأنف تنظر دوما الى الأمام ، لا تتنازل أن تلقي عليهم نظرة واحدة ... وكانت تترك وراءها كلما مرّت عبقاً من الروعة والسحر ، فقد كان جمالها من الجمال الشرس الأخّاذ الذي يروع الناظر اليه ويشدهه حتى يتركه وكأنما قد أصابه دوّار حلو وخدر لذيذ ...

فاذا ابتعدت وصحوا من سكرة جمالها ، عادوا الى الحديث عنها فأنفقوا فيه نهارهم . ولقد تسقّطوا أخبارها فلم يسمعوا عنها ما يريب ، برغم هذه الثياب (الفظيعة) التي كانت تخرج بها ، ثياب أزهى من زهر الربيع ، وأرقّ من دين الراقصات ، وأقصر من عمر الحب ! غشاء من الحرير الى ما فوق الركبتين ، يبرز ما تحتهما ويصوّر ما فوقهما ، والذراعان باديتان والشعر يتموّج على الكتفين خصلا تزري بخالص الحرير .

ووقفت الفتاة تصوّب فيهم نظرات متعالية ثم قالت عابسة زاوية ما بين عينيها ، ضامّة شفتين كزر الورد على فم لا يتسع للكلمات ، لا يصلح الا للقبَل :

---

(٤) زيق القميص من العامي الفصيح .

ـ أمام باب المخفر شاب وقح لا يزال يلاحقني كلما مشيت في الطريق، فأرجو سؤاله عما يريده مني !

وعرفوا الذي يريده منها ، وكانوا في قرارات نفوسهم يريدون مثله ، وكانوا قوماً همجاً[1] متأخرين ذوي عقول قديمة رجعية . لا يفهمون من تكشف البنات الا (ذلك) المعنى العتيق جداً ... لا يعلمون أن الدنيا تقدمت ، وأن البنت تتكشف على الساحل للسباحة ، وفي المدرسة للرياضة ، وفي الطريق وفي الترام للصحة وحدها فقط ... لا غير ...

ولكنهم أسرعوا مع ذلك الى الباب ليقبضوا على هذا (الوقح) الذي تطاول الى سماء الجمال ، فأراد أن يدنّس الكوكب الذي تستنير به قلوبهم ، ولا يجرؤون على التأميل فيه والتفكير في الوصول اليه ، وكل منهم يود أن يسبق الى اتخاذ اليد عند الآنسة الفتّانة المتكبرة ذات الثياب (الفظيعة) ! وجاءوا به .

* * *

وكان شابا مخنّثا خليعاً ، تحس اذا نظرت اليه أن رجولته كورقة النقد المزوّرة لها لونها ونقشها ، ولكن ليس لها قيمتها ، ولا تشتري لصاحبها الا مكاناً في السجن ، كما أن رجولة هذا الشاب لا تكسبه الا موضعاً في جهنم ... وكان الشرطيون الأربعة يحفّون به بقاماتهم المديدة ، وأجسامهم التي تتفجر بالقوة ، كما تحف أربعة سنانير بفأر هزيل ، ينظرون اليه بازدراء واحتقار ، أهذا هو المخلوق الذي يطمع في هذه الآنسة ويطمح الى أن يكون (رجلها) من دون الرجال ؟ !

وزجروه وأوعدوه ، ولكنه لم يزدجر ولم يخف ، لبث ينظر الى الفتاة بعيون ثعلب ، ويبتسم ابتسامة قرد مهذب ، فلم يكن من أحد

---

(١) من العامي الفصيح .

الشرطيين الا أن لطمه (بيد ما وقف عليها طبيب) لطمة تركت على وجهه من آثار الأصابع خطوطاً يكاد ينبثق منها الدم ، وترنّح ومال ، ولكنه تصبّر واستند على نضد ، وقال لها :

ـ أيرضيك هذا يا آنسة ؟ أتحبين أن أفضح السر ؟

فانتفضت وقالت :

ـ أي سرّ يا كلب ؟ أيها السادة : أرجوكم وضع حد لهذه المهزلة !

فكروا عليه بالضرب واستاقوه الى (القفص) ، فلما ابتعد عن الفتاة ، قال لهم :

ـ أنا أحذركم . انكم تعتدون عليّ بغير (موجب قانوني) . ان هذه البنت برغم ما تظهره من التسامي ... انها عشيقتي ، وأنا أعرف كل بقعة في جسمها ، وآية ذلك أن في أعلى فخذها علامة كذا ، وقد قبضت مني ليلة أمس اذ باتت عندي الى الصباح ، ثلاثين ليرة ذهبية .

* * *

ابتعد الشرطيون فتشاوروا فرأوا أن يدعوا أباها ، وكان تاجراً كبيراً وثرياً من أثرياء الحرب الذين أصابوا فيها غنى فاحشاً جعلهم ينتقلون نقلة واحدة الى منازل (الأكابر ...) ، فتركوا حياة الفقر ، ولكنهم تركوا معها حياة العفاف والستر ، وقلّدوا الأكابر في مناعمهم ، ولكنهم قلدوهم أيضا في رذائلهم . وأكثر ما تعيش الرذيلة راسبة في القعر أو طافية على الوجه ، فلا تراها الا في أسفل السلم الاجتماعي أو في أعلاه ، أما الأوساط فهم الأخيار وهم الصالحون ...

واستَبقوا الفتاة والشاب في المخفر ريثما يحضر الأب .

ووقفت السيارة الفخمة بالباب ، ودخل أخو البنت جاء به الرسول

اذ لم يجد والدها ، فلما أبصر أخته في المخفر وأبصر معها هـذا الشاب المخنَّث زاغ بصره وحدثه قلبه بالشر ، فانتحى به الشرطي ناحية ونفض اليه خلاصة القصة ، فلم يتمالك أن جرَّ أخته فأدخلها غرفة خالية عند الباب ، وواراها وهي متعجبة تبصر ولا تفهم ، وتحسّ منه الغضب ولا تعرف السبب ، ومدَّ يده مسرعاً فرفع ثوبها الرقيق القصير قبل أن تنتبه له أو تدري ما هو صانع . فلما رأى العلامة ، أحسّ أن دماغه قد غلي فجأة كما يغلي الماء في ابريق الشاي ، وثار كما يثور المرجل ثم شعر أنه قد (تبخّر[1]) من رأسه وأنه انقلب مجنونا ... ودارت به الأرض وتداخلت المرئيات ونسي هـذا (التجدد) الذي استحبّه ودعا اليه وارتضاه لأخته وزوجته كما ارتضاه أبوه ... ونسي أنهم هم الذين اشتروا للبنت هـذه الثياب ، وهم ألبسوها اياها بعد الملاءة السوداء والنقاب الصفيق ، وهم أرسلوها الى المدرسة (الحديثة) التي أنشأتها الجمعية النسائية ... وهم تركوها تدرس على الشباب وتجالس الأغراب ، وهم بعثوا بها وحدها تقيس الطرقات وتجاور في السينمات... وأحسَّ بالجرح في قلبه ، وانصبّت نقمته على الفتاة وحدها ، فبصق عليها ولعنها ، ثم رفع يده فصكَّ هذا الوجه الجميل صكّة طنت في آذان الشرطيين فأحسوا حرَّها على وجوههم وحزتها في قلوبهم ، اذ قد فهموا منها أن قصة هذا (المخنث) صحيحة ، وأن الفتاة التي حسبوها بطهرها وكبرها وسحرها أمنع من نجم السماء ، قد بذلت أعزَّ شيء عليها لهذا ... المخلوق !

وأقبل الأخ فأعطى الشاب ثلاثين ليرة ذهبية من غير أن يلقي عليه نظرة أو يقول له كلمة ، ثم استاق أخته وخرج ، ولم يبصروا منها الا قفاها ، ولكنهم أبصروها مطأطئة الرأس ، قد ذهبت عنها تلك الكبرياء

---

(١) كذلك يستعمل الناس كلمة (تبخر) ولم أجدها بهـذا المعنى في القاموس وما بين يدي الآن غيره .

وبطل ذلك السحر ، أو أن ايمانهم بزلتها خيل اليهم ما زعموا أنه رأوه ...
ومضت السيارة بالأخت وأخيها .

* * *

تركها في مقعد السيارة كأنما هي عِدْل ملقى ، وقاد السيارة الى الضيعة المعتزلة حيث كان أبوه ، فأسرع اليه فساره وأعلمه بالأمر ، فسرعان ما امّحى طلاء (التمدن) الكاذب عن هذا التاجر الذي أعطاه الله مالاً ولم يعطه عقلاً ولا ديناً شأن أكثر أغنياء الحرب . وسرعان ما عاد ذلك العربي الذي كان يئد البنات خوف العار ، والذي تحوي لغته كلمة لا يمكن أن تترجم لأنه ليس في لغات الناس ما يقابلها ويحمل معانيها هي كلمة : العرض ، وكذلك يبين اذا جد الجد ، وكانت النتيجة الضرورية لهذه المقدمات (التي هي التكشف والانطلاق والاستهتار) ... أننا لا نزال كعرب الجاهلية في غيرتنا ، وأن هذا التجديد تمويه ، وقديماً قال المثل الأوربي : حك جلد الروسي يظهر لك التتري !

ثم عاد فجاء بالبنت ، فلما رأت أباها ، انفجرت عواطفها التي كبتتها المفاجأة الظالمة التي فاجأها بها أخوها وأجهشت وألقت بنفسها بين ذراعيه ، وقالت : أبي ! وحسبت أنها بلغت الحمى الآمن . واذا بالأب يدفعها فتسقط ، ثم يركلها بقدمه ويقول :

ـ أنا لست أباك أيتها العاهرة ، لعنة الله عليك !

فتجحظ عيناها دهشة ، ثم تثور مرة واحدة ، وتصرخ :

ـ مالكم ؟ هل جننتم ؟ اذا كانوا قد حكوا لكم شيئاً ، أو وشوا وشاية فاسألوني وتحققوا ، فان ...

فيقول الأب :

ــ أولك عين تحدق ، ولسان يناقش يا ملعونة ؟ قولي : ما هي صلتك به ؟ قولي الحق والا ذبحتك كما تذبح النعجة ...

ــ من هو الذي تعنيه ؟ اني لا أفهم !

فيقول الأخ :

ــ لا تفهمين يا فاجرة ؟ الكلب الذي دفعتُ له ثلاثين ليرة بدلا عن التي قبضتها ثمن بكارتك وعرضك وشرفك ...

ــ أنت والله مجنون ، أي ثلاثين ليرة ؟ وما دخل عرضي وشرفي ، وأنا لم أكلّمه في عمري ، ولم أعرفه .. والله والله ان ...

ــ لا تذكري اسم الله بلسانك الدنس .

ويهجم عليها فيشدّها من شعرها ، ويخرج بها ... اعلانا لختام المحاكمة ، وثبوت الجرم !

* * *

ارتقب الشرطيون أياماً فلم يروا البنت تمرُّ بهم ، وطفقت أمها تسأل عنها في المنزل ، ومعلمها يسأل عنها في المدرسة ، فيقولون للأم : هي في رحلة مدرسية . ويقولون للمعلم : هي في سفرة عائلية . وكاد الشرطيون ينسونها ، وتضيع صورتها في مشاهد الحياة وهمومها ، وفرغت كأس الحديث عنها فلم يبق لهم ما يتساقونه ، فعادوا الى صمتهم وتكاسلهم واستلقائهم على كراسيّهم ... ولكن الشرطي (العاشق) الذي رآها تشبه فتاة أحلامه لم ينسها ... فكان كلما انتهى عمله في المخفر يلقي بزّته العسكرية ويلبس ثيابه المدنية ، ويتعقّب ذلك (الشاب) يحصي عليه حركاته وسكناته ، ليضبطه (متلبسا بجرمه) ويمسكه معها فلا يراه الا منفرداً ... حتى كاد ييأس منه وينصرف عن ملاحقته لولا هذه المصادفة :

وجده مع فتية من لِدَاته عند حلاق ، فدخل فقعد كأنه ينتظر دوره ليحلق ، فسمع منه حديثاً خافتاً ورأى على وجهه ابتسامة ظفر ، ثم أبصره يُخرج لهم من جيبه الذهب ليروه ، فخفق قلبه وعلم أن الحديث عنها ، فتلطف ودنا وأصغى فسمعه يقول :

ـ « لا والله اني لم أكلمها في عمري ، ولم أمسس جلدها ولا أعرف اسمها ، ولكنها كانت بنتاً جميلة في السابعة عشرة ، وتلبس هذه الثياب القصيرة التي يهبّ عليها النسيم ، فيحركها فتكشف كل ما تحتها ، فألحقها عن بعد لأمتع البصر بما يبدو من خفايا حسنها . وكانت يوماً على درَج المدرسة ، وكنت واقفاً تحت الدرَج بحيث لا تراني ، فانحنت لتصلح حذاءها انحناءة كشفت نصفها الأسفل كله ، وكانت تلبس (كلسوناً) من الحرير الشفاف يوضع من صغره في علبة كبريت ، ويصغر عن منديل ، فأبصرت هذه العلامة ... » .

وعاد الشرطي الى رفاقه بالنبأ ، فوجدوا شيئاً يعملونه .

* * *

أحضروا الشاب ومن كان معه ، وحققوا واستنبطوا وهددوا فلم يسعه الا الاقرار ، ولم يسعهم الا الشهادة ، وكتب الضبط بالحادث ودعي الأخ الذي دفع المال .

فلما حضر وسمع الحديث شحب لونه حتى كأنه قد نزف دمه كله ، وانقلب وجهه فصار كوجوه الموتى ، ودنا من الشاب وهو يرتجف كمن مسّته قشعريرة ، وقال له بصوت رهيب مخيف لا يشبه أصوات البشر :

ـ ألا تعرفها ؟ ألم يكن بينك وبينها شيء ؟

قال الشاب فزعاً :

ـ لا والله ، لا والله ، ما كلمتها في عمـري ولا مسستها ، وهـذه ليراتك ...

ـ قال : ليراتي يا ابن الكلب ، بعد ما ذبحت البنت البريئة ؟

وانقلبت عيناه في أم رأسه ، وصار مثل الوحش الهـائج ، وتلفت حوله فوجد قضيب حديد يتخذونه مزلاجا ... فتناوله ونزل على الشاب ضرباً به على رأسه ، وهم جميعاً يحاولون امساكه فلا يقدرون عليـه ، حتى سقط الشاب ميتاً عنـد قدميه وسط بركة من الدم ، فداس على عنقه وبصق عليه ، ثم ارتخت يداه بالقضيب ، وقال :

ـ أسلّم نفسي ! أنا ذبحت أختي وقتلت هذا الكلب !

في جبال الشام

نشرت سنة ١٩٤٦

قلنا : قف بنا لحظة يا قطب . لقد هلكنا من التعب

قال القطب : امشوا ...

ومدَّ (الشين) مَدَّةً ساخر بنـا ، وأوسع خطاه فصمتنا وتبعناه مرغمين .

وعدنا نمشي في هـذه البرّية الواسعة ، وقد انتصف الليل وغاب القمر ، واحتوانا الظلام بسكونه الموحش وسواده المطبق ... وثقـل علينا هذا الصمت ، فقال القطب : غنّوا ...

وحاولنا أن نغني كما كنا نغني في أول الليل ، ولكن التعب والوحشة والنَعَس ، كل أولئك كان يحبس أصواتنـا ويمسك ألسنتنا ، فخرج الصوت ضعيفاً متقطعاً ثم هبط حتى اختفى ، ورجعنا الى الصمت ...

وتجسَّمت وحشتنا ، حتى كانت الجبال البعيدة تظهر لنـا في ظلام الليل كأنهـا أشباح الرعب ، والأشجار أمثـال العفاريت الشواخص ، والسواقي التي كنا نمرّ عليها كان ماؤها يبدو لنـا أسودَ يملأ خريرهُ القلوب رهبة ... وكذلك أحـال الظلام كل ما هو جميـل في الوجود بشعاً مرعباً ...

ولاح لنا من بعيد ضوء يتراقص على حاشية الأفق ، فقال القطب :

ـ هذه هي (التكيَّة) !

فسرّي عنا ، وتجددت قوانا ، وعلمنا أنّا قد بلغنا آخر المرحلة ، ودنا المنزل .

وكان ذلك سنة ١٩٢٥ . وكانت احدى رحلاتنا مع (القطب) .

وكنا نقوم بهذه الرحلات قبل أن يعرف فينا نظام الكشفية وقبل أن يدخل بلدنا ، نقطع فيها ما لا تقطعه كشّافة على وجه الأرض ، نسير خمسين كيلا[١] في اليوم نصعّد في الجبال ، أو تتسلق الصخر ، نخوض ظلام الليل وحرّ الهاجرة ، نحمل أثقالنا على ظهورنا ، تتعرض للوحوش واللصوص والمخاطر ، حتى لم تبق بقعة حول دمشق قريبة أو بعيدة الا بلغناها ، ولا قرية الا دخلناها ، ولا عين الا وردناها ، وكان قائدنا (القطب) وليس (القطب) اسمه ، ولكنه لقب لقبناه به أخذاً من الخرافة الصوفية المشهورة[٢]...واسمه الشيخ حسين[٣] ، وهو خطاط وامام مسجد ومعلم صبيان متقشف زاهد يقبل من الدنيا كلّ ما جاءته به ، فيأكل راضياً ما يجد ، ويلبس ما يلقى ، ويعرف ربعَ أهل دمشق ويعرفه نصفهم . ومن مزاياه أنه أقدر الناس على السير ، حتى انه ليستطيع أن يقطع عمره كله بالمشي ...

... وكان قد خرج بنا فجرَ هذا اليوم من دمشق الى الرّبوة فدُمَّر ، فالهامة ، فالجُدَيدَة ، فبَسِّيمة ، فالفيجة ـ أسماء رياض من عرفها من القراء علم أن الله لم يخلق في الأرض أجمل منها ، ومن لم يعرفها فليحفظها في ذاكرته ، فلعل الله يكتب له السعادة يوماً بزيارة دمشق فيسأل عنها حتى يراها .

---

(١) الكيل على وزن الميل معرب (كيلو متر) .

(٢) واشهر من تكلم فيها ونشرها الشعراني وهي عقيدة ينكرها الاسلام ويأباها كعقيدة وحدة الوجود وأمثالها مما لا يجتمع مع التوحيد في قلب واحد .

(٣) هو الشيخ حسين البفجاتي رحمه الله .

فلما بلغنا الفيجة وهي على عشرين كيلاً من دمشق ، وفيها العين العظيمة التي تسقي دمشق ماء عذباً صفّاه الله ونقّاه ، فلم تصفّه آلة ولا مِصفاة ، أقمنا فيها الى المساء ، فلما أذّن المغرب صلّيناه وسرنا على اسم الله ، فمررنا على دَير قانون وسوق وادي بردى وتلك القرى ، نسلك قرارة الوادي العميق تارة ، ونركب الجبل تارة أخرى ، وكنا أقوياء في أول الطريق ، نسير بجد ونشاط ، وكان القمر الوليد يضوّيء لنا الطريق ، فلما مضت ثلاث ساعات من الليل غاب القمر ، وعمّ الظلام ، ونال منا التعب ، فما قاربنا التكية حتى كدنا نسقط اعياء ...

وشدّ قربُ التكية أعصابنا ، فغنينا أغنية وطنية معروفة ، فلم نسمع الا صوت الرشّاش (المتراليوز) .

فقال القطب : خاف منا الكلاب ، غنّوا يا أولاد !

وكانت الثورة السورية قائمة ، وهؤلاء (الكلاب ...) انما هم الفرنسيون ولهم مركز قوي في التكية لحماية معامل شركة الكهرباء والترام ، وكانوا يقتلون في تلك الأيام البريء وهو في داره ، فكيف بمن يقدم عليهم وسط الليل منشداً الأناشيد الوطنية ؟

واستمر صوت الرشاشات ونحن مستمرون في انشادنا وسيرنا فرحين بهذه التسلية الجديدة التي أنقذتنا من مَلال الطريق . وأشهد أن الفرنسيين مجانين ، ولكنهم عقلوا هذه المرة ، لأنهم وجدوا من هو أكثر جنوناً منهم ، وهو نحن ... فوقفوا الضرب ، وأقبل علينا واحد منهم ، فأنار مصباحه ونظر الينا ...

وكان ركبنا مؤلفاً من القطب ، والشيخ شريف ... وهو مدير مدرسة أهلية ، وسلطان الشاي الأخضر في دمشق ، ومؤلف أناشيد ، وهو أسرع الناس غضباً وأسرعهم رضا ، يشتعل كالبنزين وينطفيء كالبرق ، والشيخ طه ... وهو معلم ولكنه كان ضابطاً في الجيش قبل

أن يكون معلماً ، وأنا ، وسبعة من تلاميذ الشيخ شريف ...

لقد كنا ك (ركب النميري) !

فلما رآنا ورأى هذه الهيئات العجيبة ، وهـذه الأحمال التي كنـا نحملها والتي يعجز عن حملها ثلاثة بغال ... رأى قوماً ليسوا من الثوار ولا من أهل القتال ، فماذا يكون هؤلاء ، وماذا يدفعهـم الى السير في هذه البرّية نصف الليل ؟

وسألنا ـ وكنا نعرف من الفرنسية كلمات ـ فتكلمنا بها ، وكنـا نكرر كلمة (بروموناد) أي نزهة ... فلم يشكّ الرجل أننـا مجانين ، وأدخلنا المخفر وجاء بترجمان فكلمنا ، فلما عرف قصتنا كاد يقضي عجباً ، وسمح لنا بالمسير ...

قال القطب : الى أين نسير ؟ اننا نريد أن ننام هنا !

قال الضابط : هذه منطقة عسكرية . ممنوع !

قال : اذن أعطونا طعاماً ، وقطرة لعينيّ فان بها رمداً ، وعلبة كبريت . فأعطوه ما يريد .

فلما خرجنا ، قال القطب :

ـ أرأيتم كيف غزوناهم وأخذنا طعامهم ؟ آه . لو كان معنا سلاح لذبحنا الكلاب ... والآن . لم يبق الا أن نمشي الى (بلودان)[1] .

وكانت بلّودان في رأس جبل لا نستطيع تسلّقه في أقل من ساعتين، وبيننا وبين الجبل مسيرة ساعة ، والاعياء والنّعَس بالغان منا ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ...

---

(١) بلودان على (٥٠) كيـلا من دمشق وهي مصيفها وفيهـا كانت اجتماعات الجامعة العربية .

ولما بلغنا بلودان كان السحر قد اقترب ، ولم يكن يحسن أن نقرع باب أحد من الفلاحين في تلك الساعة ، فقصدنا المسجد وجرّب القطب مفاتيحه في الباب فانفتح لنا ، فاستلقينا من التعب على الأرض ، ووضع كلّ رجليه تلقاء رجلَيْ الآخر ، والتفنا ببسط الجامع ونمنا ...

ولما جاء المؤذن لأذان الفجر ، فتح البـاب ودخل يتعوّذ ، وأوقد عود كبريت ، ونظر فرأى ما هاله ، وما قفّ له شعره ، رأى جِناً نائمين كل جِنّي طوله خمسة أمتار وله رأسان رأس من هنا ورأس من هناك ، ووقف المسكين مكانه وقد ألصقه الرعب به فما يملك أن يريم ، وجاء بعد قليل رجل آخر فقال له :

ـ مالك لا تؤذّن يا أبا عبده ؟

قال : أ ... أ ... أ ...

وأشار الينا وعقد الخوف لسانه ، فنظر الآخر فشدُهَ ...

وأحسسنا نحن فقمنا ، وعرف القوم القطب ، فأقبلوا عليه يعاتبونه على ما صنع بهم ...

ونهضنا كما ينهض الجمل نشط من عقال ، وقد وجدنا لهذه النومة القصيرة على الحصير القاسي بعد التعب الشديد مـا لا نجده لنوم ليلة كاملة في البلد على السرير ، ووقفنا للصلاة ، وكان قد اجتمع فيها أهل البلد كلهم لا يتخلف عن الصلاة أحد ، وما أهل البلد ؟ انهم بشيوخهم وكهولهم وشبانهم لا يَعْدون الأربعين ...

فلما سلمنا أخذوا يتسابقون الى دعوتنا ، فقال القطب :

ـ القـاعدة !

وكانت القاعدة أنه لا يستضيف أحـداً ولا يدخل داراً ، ولا يرزأ

أحداً شيئاً ، وانما يقصد المنازهَ والعيون ، وكانوا يعرفون هذه القاعدة فتركوه ، فذهب بنا الى (عين أبي زاد) ...

ومررنا على القرية فاذا هي قرية صغيرة خـاملة فقيرة ، أهلوها على الفطرة النقيّة ، لا يعرفون الحسد ولا الغش ولا السرقة ، ولم يسمعوا بالقمار ولا بالخمر[1] ، وليس فيهم من يقرب الزنا أو يفكر فيه . والقرية تطلّ على منظر من أعجب مناظر الدنيـا ، فهي على رأس جبل تقوم في أسفله (الزَّبداني) ، وهي القصبة ، وفيهـا دار الحكومة والقائمقام والقاضي وقائد الدرك ، وأمامها سهل الزبداني كله الى منبع (بردى) ، وعن يمينها وادي (سِرْغايا) ، وعن شمالهـا بُقّيْن ومضايا ، ومن أمامها مدخل وادي بردى ... وفيها المياه العذبة ، والعيون الصافية ، وفيها العنب والتين والتفاح الذي لا نظير له ، ولكنها منقطعة عن الدنيا لا يكاد يصعد اليها أحـد ، لعلوّها وضيق الطريق وصعوبته ، وقلّة الدواب ، وكان وجهَ القرية الشيخُ سليمان الرنكوسي وهو رجل ذو مزايا ومناقب ، فمن مناقبه أنه امـام المسجد ، وخطيب الجمعة ، ومعلم الأولاد ، وكاتب الرسـائل والعرائض ، وبائع القماش ، ومصلح بوابير الكاز ، ومقسّم المواريث ، ومسجل عقود البيع ، وقاضي البـلد ... فكأن أهل القرية أسرة واحدة تقيّة فاضلة ، والشيخ سليمان هو كبيرها !

وبلغنا العين ، ونصبنا الخيمة التي كنـا نحمل أجزاءهـا مفككة ، وأوقدنا النار ونصبنا القِدْر ، وفتحنا الحقائب فأخرجنا اللحم والخُضَر ، فطبخنا وأكلنا وشربنا الشاي الأخضر ، ثم جلسنا أمـام العين جلسة لو تعبنا أضعاف ذلك التعب لكانت مستحقة له ، معوّضة عنه ...

ورأيت الفلاحين يتوافدون على القطب : هذا يأتيه بعشر تفاحات ، وهذا يهدي اليه قبضة من التين اليـابس أو الزبيب ، وهذا يحمل اليه كأساً من اللبن ، فكان يقبل منهم ويثيبهم عليـه ، سكاكر ملوّنة ، أو

---

(۱) لا تنس ان الكلام عن بلودان سنة ١٩٢٥

قضامةً على السكر ، أو لوح صابون ، ورأيت من يأتيه بشيء يأخذ عوضه ثم يقعد لا يذهب ، فلما تكامل عددهم أخرج الشيخ كتاباً من خرجه ، وجعل يقرأ عليهم ويعظهم ، فتسيل دموعهم من خشية الله ...

* * *

ومرت السنون على هذه الرحلة حتى نيَّفت على العشرين ، وقطعتني الحياة وهمومها ، وأسفاري وعملي في غير ديار الشام ، عن هذه الرحلات ، وباعدت ما بيني وبين (بنلّودان) فلم أرها بعد تلك الزورة ...

... حتى اذا كان هذا الربيع المنصرم ، لقيت (القطب) ، فقال لي : أتذكر تلك الرحلة ؟

قلت : نعم ، أذكرها ولا أنساها .

قال : هل لك في مثلها ؟

قلت : قد تغيَّرت الدنيا يا قطب ، ولم أعد أستطيع أن أمشي ، ان الناس يعرفونني ...

قال : امشي ...

ومدَّ (الشين) فأذكرني ليلة التكية ، فشاقتني الذكرى فقبلت ما عرض عليَّ ...

... ولبسنا مثل ثيابنا تلك ، وجمعنا من بقي من أصحابنا ، ومشينا ، فاذا الطرق التي كانت كأنها من جمالها معابرُ الفردوس ومسالك الجنان ، والتي كنا نسير فيها فلا نلقى الا فلاحين يكرموننا ، صارت شوارع واسعة لا تنقطع السيارات فيها ساعة ، وكلما مرت بنا سيارة أبطأت في سيرها ونظر من فيها الينا ، كما ينظرون الى (عجائب المخلوقات) ، ثم ولَّتْ عنا ، ونحن نسمع منها ضحكات النساء الخليعات علينا ، وضحكات شباب هم مثل النساء ، وقذفتْ في وجوهنا غبارها ودخانها ، وما ذنبنا الا أننا نمشي على أقدامنا في حرّ الشمس ...

ووجدنا الأماكن التي كنا نستريح فيها ، والتي كانت من طهرها كأنها معابد الجمال في الأرض ، صارت قهوات وخمارات ما فيها لأمثالنا مكان ، فكنا نبيت على الصخر ، وعلى ظهور الجبال ، حتى بلغنا (بلودان) ، فمسحنا أعيننا وحسبنا أننا في حلم ... أهذه بلودان ؟ هذه المدينة العامرة ، ذات الشوارع والقصور ؟ أهؤلاء الشباب الذين يمشون متبخترين بأكمامهم القصيرة ، وشعرهم المرجّل المدهّن المعطّر ، ووجوههم المصقولة ، أهؤلاء هم رجال بلودان ؟ وهؤلاء النساء الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ، أهنّ نساء بلودان ؟ !

وصارت ثيابنا وهيئتنا شُهرةً[1] لنا ، وصرنا ضحكة القوم ، ولم نجد مكاناً نحطُّ فيه ، فسألنا فدلّونا على الفندق .

وجئنا الفندق الذي شادته الحكومة بأموال هذه الأمة المسلمة ، لننزل فيه بالأجرة لا صدقة ولا احساناً ، وكان الفندق الضخم كأنه شعلة واحدة من النور ، وكان فيه تلك الليلة فرقة راقصة بولونية ... ولعلها يهودية ... وقد فتحت قاعات القمار لكل راغب وصفّت كؤوس الخمر لكل شارب ، وازّينت الغانيات لكل طالب ، وانتشر اللصوص والنشالون وهم في ثمين الحلل وغالي الثياب ، وعبث الكبراء في السهرة عبث الصبيان ، وعكف المعلمون على موائد القمار ، وأسلم كلٌّ زوجته لمن يراقصها ليضمّ بين ذراعيه زوجة آخر ، وتربّع ابليس على المسرح يضحك فرحاً ... !

ولما جئنا ندخل الفندق بثيابنا الوطنية ، ثياب الأمة التي بني بأموالها هذا الفندق ، منعونا وأخرجونا !

فوقفنا ، وجعلنا نفتش كأنما أضعنا شيئاً نفيساً .. وهل شيء أنفس مما أضعنا ؟

---

(١) الشهر بالضم ظهور الشيء في شنعة .

لقد أضعنا كثيراً حين أضعنا تلك القـرية الحقيرة ... لقد كانت جاهلة ولكنها كانت فاضلة ، وكانت فقيرة ولكنها كانت شريفة ، وكانت بعيدة عن الحضارة ولكنها كانت بعيدة أيضاً عن رذائلها ! !

وأحسست بدمعة سقطت على خـدي ، فأخذت بيـد (القطب) وصعّدنا في الجبل ، نريد أن نهرب من هذه الدنيا ، التي ليست دنيانا ... لقد كانت لنـا من عشرين سنة دنيـا ، وكان لنا فيها أصدقاء ، فماتت وماتوا ...!

صلاة الفجر

نشرت سنة ١٩٣٩

... أفاق في الساعة التي ألف ، فضرب ببصره الى الجدار حيث الساعة الكبيرة ، ليرى كم بقي من الليل ، فلم يجد على الجدار ساعة ، وانما وجد صورة لامرأة عارية ، تبدو له على ضوء المصباح الكليل كابية مظلمة عليها من الوحشة والقبح ستار ، فعاف النظر اليها ، وأجال عينيه في أرجاء الغرفة ، فاذا هو منكر لها ، لا يعرفها ولا عهد له بها ، واذا هو يرى الى جانبه على السرير امرأة عارية مفتوحة الفم تغطّ غطيطاً منكراً ، وقد سالت الأصبغة على وجهها واختلطت ، فتعوّذ بالله من هذا الحلم وألقى برأسه على الوسادة ، يفكر تفكيراً مبهماً مختلطاً ، فما لبث أن عاد الى المنام فرأى نفسه ملكا من ملوك الأساطير ، مضطجعاً على سريره المرصّع بالذهب ، المحلّى بالياقوت والمرجان ، والوصائف قائمات على رأسه ، عاريات السوق ، باديات النحور والصدور ، ينثرن عليه الورد ، ويضمّخن مفرقه بالمسك والعنبر ، وأمامه المغنّون والمغنّيات ، والى جانبه فتاة جمع الله فيها ما تفرق من سمات الجمال ، فلم يتمالك أن أهوى على فمها بقبلة ...

... فأحسّ بها تدفعه عنها ، فنظر فاذا هو مستيقن أنما يراه حقيقة ثابتة ، وأن حلمه الجميل قد احتواه هذا الواقع القبيح ، وذكر ما كان بينه وبين هذه البغي التي قدمت اليه فراشها ، وأحاطته بذراعيها ، فأحسّ بالاشمئزاز ، وذلّ في عين نفسه وتضاءل .. ماذا فعلت بنفسي ؟ أهذه هي مبادئي وأخلاقي ؟ وبعد فماذا أصنع الآن ؟

وهم بايقاظ ايمانه واللجوء الى ربه ، ولكنه لم يستطع فقد ألفت المعصية حجاباً على قلبه ، ورانت الخطيئة عليه ، فأحسّ بالألم يقطع في فؤاده ، فقام الى ثيابه يرتديها على عجل ليخرج من هذه الدار القذرة التي أضاع فيها عفافه ، وخسر طمأنينة نفسه .

وفكر في الناس ، ألا يرونه ؟ ثم رأى أن لا بد له من الخروج من هذه الدار التي يحسّ أنه فيها كمن ألقي في بركة قذرة ليموت فيها غرقاً ...

وألقى على المرأة نظرة أودعها كل ما في نفسه من كراهية واحتقار وبصق مشمئزاً وخرج هارباً .

ولكن كيف له بالهرب من نفسه ، والفرار من ضميره الذي يذيقه من التقريع والازدراء ما ليس لمخلوق بحمل مثله طاقة ؟ وكان شارع الرشيد خالياً مقفراً الا من أعقاب السابلة ، من كل بائس أو داعر لأنه لا يبقى يقظاً في مثل هذه الساعة الا البؤس والرذيلة . وكانت ليلة مجنونة ذات رياح تعوي في هذا الليل مثل عواء الذئاب الجائعة يخالطه أصوات آلاف من البُوم تنعب معاً ، فتملأ أصواتها الفؤاد السليم ذعراً ، فكيف بمثل فؤاد رجب أفندي المروع الكليم ... وكانت الأمطار تسكن لحظة ثم تعود فتهطل ، تنصبّ انصباباً كأنما هي تريد افراغ السحاب في دقيقة واحدة ، والريح تضرب حباتها فتصرفها ذات اليمين وذات الشمال ، والبروق تسطع خلال ذلك تخطف الأبصار ، والرعد يدوي فتحس أن قد تقلقلت بساكنيها الأرض .

وضرب رجب أفندي بيده الى جيبه فألفاه فارغاً وذكر أنه دفع مرتبه كله الذي قبضه أمس لهذه البغي ... فعظم عليه الأمر ، وبلغ من سخطه على نفسه أن ودّ لو عضّ يده بأسنانه ، أو قطع شعره بيده ، واستفظع ما أتى وفكر في أهله الذين لم يَغِبْ عنهم من قبل ، ولم يبت ليلة الا

معهم ، فكر في أمه التي يعلم أنها لا يغمض لها جفن ما دام نائياً عن الدار ، وأبيه الشيخ المسكين الذي لا يفكر الا فيه ، ولا يعنى الا بسعادته .
ماذا يقول لهم ؟ ومن أين يعوّض عليهم مرتبه الشهري الذي ينتظرونه ساعة بعد ساعة ، ليشتروا به الخبز ... أيقول لهم انه وضعه كله في يد مومس ثمناً لليلة اثم وعار ؟

لا . الموت أهون من ذلك ! وفكر في الموت فعلا : ماذا عليَّ اذا ألقيت بنفسي في دجلة فسترت فيها اثمي ... ولكن هذا الخاطر امّحى من رأسه على عجل ، لأن رجب أفندي كان متديناً يعلم أن المسلم لا يعمد أبداً الى هذا الانهزام الشائن من غمرة الحياة وباب العفو مفتوح أبداً ، والتوبة تغسل النفوس مهما تراكمت عليها أوضار الآثام ... وهمَّ بأن يستغفر الله ويدعوه ، ولكن الحياء من الله عقد لسانه ، أن يتوجه اليه ويسأله وهو غارق في حمأة الرذيلة الى أذنيه ونسي أن الدعاء يكون أدنى الى القبول كلما كان العبد أقرب الى الاضطرار ، وأن الندم على ما مضى والعزم على الاقلاع عن الذنب فيما يأتي ، مع تركه والانصراف عنه دواء يشفي أكبر المذنبين من أشد الذنوب والله كريم غفّار ، لو جاءه العبد بقراب الأرض خطايا وجاء معها بالتوبة الصادقة بشروطها الثلاثة لجاءه الله بقرابها مغفرة ، والله غفور رحيم ...

* * *

وكان رجب أفندي في الخامسة والعشرين ، في السن التي تركب المرء فيها شياطين الشهوة ، وتزين له السبل اليها ، فلا ينفعه اذا خطا الخطوة الأولى عقل ولاتفكير ، ولا يقف الا في آخر الطريق كالصخرة على شفير الوادي تكون ثابتة مستقرة ما بقيت مكانها فاذا زحزحتها وقلبتها قلبة واحدة هبطت الى أعماق الوادي ... وكان رجب أفندي قد نشأ متديناً ، وكان شيخاً بعِمامة وجبَّة يطلب العلم على المشايخ لم

يدخل مدرسة نظامية ولم يختلط بشباب العصر ، فكانت العمامة عصمة له من البلاء ، سداً يحول بينه وبين (الأوتيلات[1]) والمراقص والحانات ، وكانت نفسه كهذه العمة التي على رأسه صفاءً وطهراً وبياضاً ولكنه اضطر منذ أعوام الى العمل في ديوان من دواوين الحكومة فنزع العمة مكرهاً ، وودعها آسفاً ودخل اللجة وهو جاهل بالسباحة ، ليس له بطبيعة الماء خبرة ، ولا بمسير الموج علم ، فحملته موجة فألقته بحيث ترى ... ولو أنه عرف طرق الشر لما سلكها ، ولو كان متزوجاً لما هوى ، ولو أحسن اختيار أصحابه لما انساق هذا المساق ، ولكنه كان جاهلاً بما وراء الدار والمدرسة والسوق ، يستوي عنده في عالم الرذيلة جلوس في قهوة ، أو شهود رواية في سينما ، ومعاقرة الخمرة في الحانة ، ومجالسة البغي في الماخور . وكان عزباً ، ونفس العزب مهما اتقى وصلح كصندوق الديناميت لا يؤمن انفجاره اذا داناه لهب أو مسته نار ، ونفس العزب يلهبها كل ما في السوق من متبرجات سافرات ، وما على الشاطىء من عارين وعاريات ، وما في السينما والقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأيان تأمن انفجار الديناميت ؟ ثم جاءت طامة الطامات فالتف حول رجب أفندي نفر من زملائه تطوعوا لاغوائه احتساباً لوجه ابليس ، فوجدوه شديداً عنيفاً ورأوه قد ثار الثورة الكبرى لما أرادوه على دخول القهوة ، فعلموا أنه قد صفّ قوى نفسه كلها في هذه المعركة الصغيرة ، لم يبق لما وراءها شيئاً ، وأيقنوا أنهم اذا غلبوه هذه المرة غدا منقاداً لهم طيّعاً . فما زالوا به يراوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من يثق بهم على مسمع منه : هل في دخول القهوة ما يمسّ الدين أو العِرْض ، أفتونا يا مسلمون ؟ . فيقولون : لا ... وانما هي مضيعة للوقت ، مفسدة للصحة ، وانها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافي الدين ،

---

(١) كلمة الاوتيلات في العراق مرادفة لكلمة المواخير لانها لم تكن الا كذلك حتى انشئت الفنادق الحديثة المعروفة .

ولا تعدء في المكفرّات ... ومـا زالوا به حتى دخل القهوة ، فجلس مستحيياً يتصبب منه العـرق ، ويظن أن كل مافي الأرض عيون تنظـر اليه ... ثم لم يطق البقاء فخرج ، ولكن رجله علقت في الفخ ... واعتاد القهوات ، وسـار الى السينمات ، فاعتقد أنه هوى وزلّ مُذ دخـل القهوة ، وأن السدّ بينه وبين الرذائل كلها قد انهار ، فلم يقف في طريقه شيء ، وعرف ذلك أصحابه من عباد ابليس المخلصين ، فأتمّوا لعبتهم على ذقنه ، ليستكملوا سرورهم بكمال هذه الرواية ، فأخذوه الى دار من تلك الدور التي تسمى (أوتيلات) أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنضم على ماخور من شر المواخير ، ومعبد من معـابد ابليس ، وأغروا به الفتاة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ، وكان المسكين قد قرأ دواوين الشعر الغزل ، وروايات الحب العذري كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ، أو روميو آخر ...

* * *

وكان رجب أفندي يعرض في نفسه هذه القصة وهو يمشي متسللا في ظلال الجدران ، في هذه الليلة العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد اليها بعد ذلك فسمع حديث شقائها ... وبكى لبكائها ، كما كان يفعل المحبّون الذين قرأ أخبـارهم في الأشعار والروايات وصبّ بين يديهـا ما كان في جيبه من مال .. وكيف ندم وتنبه ايمانه في نفسه ، فعزم على ألاّ يراها من بعـد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن الشاب العصري لا يليق به أن يفعل ذلك فعـاد مرة ثالثة ورابعة ، وهي دائماً في أثواب الممثلة العـاشقة الغريرة تهيج نفسه وتطمعه ولكنها لا تطعمه ، وتعرض عنه ولكنها لا تؤيِسُه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيهـا ، ولكنه لا يصل الى شيء .

واستيقظ ايمانه كرّةً أخرى ، فأزمع أن يتركهـا أبداً ، وذهب الى

مكتبه بعزيمة جديدة ، وراحة بال وأدّى عمله بنشاط ظاهر ، ومرت على ذلك أيام حسب فيها أن كل شيء قد انتهى ، وأن هذه السحابة قد انقشعت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل اليه كتاباً منها فقرأه وغضب ومزّقه باضطراب عصبي ظاهر ، وخرج يمشي الى داره ، فأحس أن نفسه تنازعه الذهاب اليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدّت رغبته في زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها واعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً وردّ على تحيتها باعراض ، فسألته : مالك أيها الحبيب ؟ فقال : لا شيء ! لست حبيب أحد .

وشعر بالارتياح ، وسرّه أنه استطاع أن يخاطبها بمثل هذه اللهجة ، وتوقع أن تجيبه بجفاء فيغضب ويصارحها بالقطيعة ، ولكنها ظلت صامتة ، وظل هو مطرقاً ينظر جواب ما قال .. فطال عليه الأمر فرفع بصره ليرى ما تصنع ، فالتقت نظراتهما وخيّل اليه أنه رأى في عينيها معنى الألم والعتب والاخلاص يلوح له من خلال جفونها الناعسة ، وأهدابها الطويلة فتضعضع ولان وخفق قلبه بشدّة وأحس بالرغبة الملحة في الاقتراب منها وعناقها ، ونهض ليدنو منها ولكنه لم يجرؤ على ذلك فلبث قائماً . قالت : مالك ؟ فلم يجب ، فمدت اليه يدها لتجلسه ، فلما أحسّ بأصابعها بين أصابعه اهتز جسمه كله ، وانتفض على نحو ما يصف الشعراء والقصصيون ... وجلس الى جانبها وألقى يده على كتفها كأنما كان ذلك عفواً ، فشعر بلذة وسرّه ما كان من جرأته ففكر في أن يلفّ يده حول عنقها ولكنه خشي أن تغضب .. وأن ترى في ذلك تعدياً على عفافها ، وذكر أن ماجدولين غضبت لمّا قبلها ستيفن لأن هذه القبلة قد أفسدت الهوى العذري ... الذي كان بينهما ، ثم اشتدّت رغبته في تطويقها بذراعه ، فتردد حيناً ثم لف ذراعه حول عنقها ، وأتم ما كان يفكر فيه فأسند رأسه الى كتفها كما شاهد الممثلين في السينما يفعلون ، فلم يبد عليها شيء من الغضب فأوغل في الجرأة فأخذ يدها بيده الأخرى

ورفعها الى فمه فمسّ أناملها بشفتيه ... ونظر ماذا تفعل ؟ فاذا هي قد ألقت رأسها فوق رأسه حتى لامست خصلات شعرها وجهه ، فالتهبت النار في أعصابه وهمّ بها فوثبت كالقطة .. وجعلت تشكو اليه ما عليها من الدّين ، فدفع اليها كل ما في جيبه .. فلما احتوت المال يدها تخلصت منه فلم يدر كيف خرج الى الشارع ...

وذكر كيف أزمع الاتصال بها مرة واحدة ، أو الاعراض عنها مرة واحدة واطراحها ونسيانها وأنّى له ذلك وهي لا تدع الى اغرائه طريقاً الا سلكته ، انه يراها كالأفعى المبرقشة ، ويتصورها أحياناً حشرة قذرة ولكنه يود مع ذلك لو قبض عليها فهصرها اليه وعصرها وأكلها أكلاً ...

وذكر كيف كان الندم يغمر نفسه ، فيأوي الى غرفته يشتغل بالمطالعة ، ويقبل على كتب الرقائق ويخرج الى المقابر والمستشفيات ، يتّعظ برؤية المرضى والتفكير في الأموات ، حتى اذا أحس البُرْءَ قليلا جاء رفاق السوق بالمرض العضال ... وذكر كيف كان ينفق في كأس من الويسكي أو الشمبانيا ما يكفي أسرته أسبوعاً كاملاً ، كل ذلك من أجل هذه الفتاة التي اتصل بها أخيراً ، فتكشّفت له عن حشرة حقيقية ، يبصق عند رؤيتها اشمئزازاً ...

* * *

وكان يفكر وهو يسير مسرعاً ، يريد أن يفر من الناس حتى لا يراه أحد ، فلم يَعِ على نفسه الا وهو في ضاحية (الأعظمية) ...

قال لي وهو يحدثني حديثه :

... فلما بلغتها سمعت المؤذن يمجّد الله ويذكره ذكر السحر .

ورأيت جارنا أباصالح ، يمشي الى المسجد وهو يقول : لا اله الا الله ، يقتلعها من قرارة قلبه ، فتواريت منه كيلا يراني ، وجعلت أذكر أيام كنت

لا أعرف هذا السهر الذي جر عليَّ كل بلاء ، فكنت أنام عقب العشاء ، ثم أفيق في السحر ، فأرافق أبا صالح الى المسجد ... فرأيت بيني وبينه أمداً بعيداً وتمثلت لي خطاياي وآثامي كلها ، لأن صوت المؤذن وجلال السحر قد نبَّهـا في نفسي الذخيرة الدينية ، فأدركت قيمة الاستقامة ، ولذة العفاف ، وعلمت أن هذه السعادة التي يحسُّ بها المؤمن لا تعدلها لذائذ الجسم ، ومتع الحب ولا توازيها ... وأدركت أن الصلة بالمرأة سراب خادع تراه من بعيد ، وتسمع وصف زلاله الصافي ، ومائه النمير ، فيبهجك الشوق اليه ، ولكنك اذا جئته لم تجده شيئاً ... جرِّبْ هذه الصلة مرة تحسَّ بهوانهـا وسخفها ... لا ... لا تجرِّبنها ، فانَّ من جرَّب المجرب حلَّتْ به الندامة ولا تغامر بدينك وشرفك لتعلم هـذه الحقيقة بل ثِقْ بما أقول لك . ولا تُثِرْ هـذه النار في نفسك فانك لاتستطيع أن تطفئها . انه لا يطفئها الا أن تستمتع بكل جميل في الكون، وهيهـات . انك اذا استطعته لا تقوم صحتك به ، ولا تدوم لك وأنت تنفق منها بلا وعي ولا حساب .

لما أحسست بذلك أسـرعت الى الحمام فتطهَّرت ، وخرجت أؤم المسجد تائباً ، وأحلف لك أني لم أجاوز بابه حتى وجـدت مثل ارتياح الغريق اذا خـرج الى الهواء ، أو المختنق اذا فتح له مجـرى النفس ، وشعرت أني أسمو وأرتفع ، وأن هذه الأغلال التي كانت تقيِّد روحي قد تحطمت وانكسرت ، وأن عبء الخطايا قد نزل عن كتفي ، ولما وقفت في الصف وقلت : (الله أكبر) خرجتُ من دنياي .

وقرأ الامام : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً » فجـاء ذلك برداً على كبـدي وسلاماً ، فصحَّحتُ التوبة ، ورأيت أن أصل البـلاء من رفاق السوء فهجرتهم جميعاً ، وقطعت حبل ودِّهم ، وتركت سهر الليل ، فأعـاد الله

الي ما كُن سَلَبْنيه من الأنس وسعادة الروح بالتوجه اليه ومراقبته ...
وله الحمد على ذلك .

الآن عرفت جمال الدنيا ، لا كما يقول أصحابك الأدباء ، من أن المرء لا يعرف جمال الدنيا الا بالحب وأن المحب لا يرى الدنيا جميلة الا اذا أضاءتها عينا من يحب ، فاذا غابتا غاب جمالها . أيُّ كون هذا الذي تحتويه عينا امرأة قد تكون بغيًّا ؟

اننا نحتاج الى مبشرين بالفضيلة ممن عرف الرذيلة وخبرها ، أما من دعا الى الفضيلة لأنه لم يقدر عليها فهو شر من الشيطان ، لأنه ان قدر عليها انقلب داعراً خبيثاً فأضلَّ معه من كان اهتدى بهديه ، والشيطان يدعو الى الرذيلة علناً فلا يضل به الا من أراد الضلالة . وليست فضيلة العاجز الا انتقاماً لنفسه من القادرين . ولقد ترددت بين الحياتين : حياة يلذها الشبان ويأنسون بها وهي حياة الانطلاق من كل قيد ، والسعي وراء اللذة ، والاستجابة الى داعي الهوى ، وحياة لا تعجب أكثر الشباب لأن لها غاية سامية ، ووراءها حياة آخرة ، وفوقها اله قادر يعلم صاحبها أنه ان فاته حظه من لذة عاجلة فانية ، ناله من اللذة الآجلة الباقية ، فتأدَّبت بأدب القرآن فكنت أغضّ البصر ، وأنزّه اللسان عن الفحش ، وأبتعد عن المغريات فنلت والحمد لله السعادة كلها !

قلت : أتأذن لي بنشر حديثك ؟

قال : نعم ، ولهذا حدثتك به ولكن دع الأسماء لا تصرّح بها .
وكذلك فعلت !

من الادب الرمزي

قصة بردى

نشرت سنة ١٩٤٠

تفتّحت أبواب السماء بغيث منهمر استمرّ ليلة من (تلك) الليالي طولها عشرة آلاف سنة ، فأغرق البحر وابتلع البرّ ، ومدّ أصابعه من خلال التراب وأدخلها من شقوق الأرض حتى بلغ (بردى) وهو (جنين) في بطن أمه الأرض ، تطيف به أحشاء ليّنة من جَلْمَد الصخر ، تحنو عليه وتغذّيه ، فغمره بالماء حتى ضاق به مكانه ، وامتد البلل الى عظامه فخرج ...

وكانت الشمس قد طلعت على الأرض بعد (تلك) الليلة تمنحها الدفء وتغمرها بالنور ، و (تحدّد) فيها مملكة البر والبحر بعد أن كانت بحراً كلها ، فوقف (الوليد) ينظر مشدوهاً فيرى سهلاً أفيح جميلاً تحيط به جبال يَتَيهنَ شباباً ويَمِسن جمالاً ، ولكنه عار أجرد ، فآلمه عريه وتجرّده ، وودّ لو سعى في أرجائه يزرع فيه الحياة ويضع في تلك السفوح (بذور) المدن والقرى . ولكنه كان ضعيفاً فلم يستطع أن (يمشي) ، وتصرّم النهار وهو جاثم مكانه لا هو قادر على الرجوع الى بطن أمه ، ولا هو قادر على السير ، وأوحشه سكون الليل وظلامه ، ولم يعطف عليه الجبل ولا سامره السهل ، فلبث وحيداً حتى جاءت فتاة من بنات (الدّلب) كانت قد سمعت به فأحبّت أن تراه ، فلما أبصرته عشقته وحَنَت عليه ، وأضجعته على ركبتيها تهمس في أذنيه أحاديث المدن البعيدة الحلوة والأودية المسحورة ... حتى نام !

* * *

ومرت أيام نما فيها الوليد ، فغدا صبيًا (يمشي) في (السهل) ، ثم شبّ فصار فتى قويًا ، (يعدو) نحو (الوادي) عدواً ...

راعَ ظهوره أهل تلك الديار فأعرضوا عنه باديَ الرأي ، ثم مالوا اليه فأحبوه ، واتخذوا مولده عيداً ، فنشر له السهل أعلامه الخضر ، وجمع له باقات الزهر ، وفرش له الجبل سفوحه ، وزيّنها بالورد ، وملّكوه عليهم ...

وكان (بردى) الشاب ، طموحاً عالي الهمة ، فلم يقنع بملك ذلك السهل ، سهل الزبداني ، ولم يكفه أن خضعت له جبال مضايا وبلودان ، وأبى الا أن يخرج فاتحاً لا يقف حتى يملك الوادي كله ، فحشد عسكره ، ودخل الوادي بطبوله وراياته يَثِبُ على الصخر وثباً ، ينشد أنشودته (الهادرة) ، ولم يكن في الوادي الا أميرات صغيرات ، مُلكهن صخرة يخرجن من تحتها ، وساقية يجرين فيها ، فلم يلبثن أن بايعنه وخضعن له ، واندمجن في جيشه ، وسمعت الأشجار بمسيره فقامت على طريقه صفّين تحييه و (تصفّق) له .

حتى اذا اقترب من (الفيجة) جاءه رائده فقال له : قف ، فان ههنا ملكة جبارة عرشها صخرة هائلة ، وجيوشها تملأ الوادي وتمتد الى أبواب المدينة الأبديّة الأزليّة التي كانت من قبل ، وستبقى بعد المدائن كلها : دمشق !

(فقهقه) بردى ضاحكاً من حماقة رائده . أي مدينة وجدت من قبله ؟ وأي شيء يعرف القدم والبقاء الا الله القديم بلا ابتداء ، الباقي بلا انتهاء ؟ ثم زمجر وأقسم لئن وجد تلك المدينة قائمة من قبله ليدكنّها دكا ، وان وجدها تنتظره ليجعلنّها باذن الله سيّدة مدن الأرض . أما تلك الملكة فليحطمنّ عرشها ، ويبدّدن جندها ...

* * *

وتقابل البطلان بردى (الأسمر) القوي (سلطان الزبداني) الغازي الفاتح ، والفيجة (البيضاء) الفتّانة (ملكة الوادي) واصطف الجيشان هذا من هنا ، وهذا من هناك لا يختلطان[1] . ثم أقبلا فاصطرعا . فغلبت رجولة بردى وخضعت له الفيجة وسارت تحت ركابه ذليلة صاغرة ، وهي أعزّ منه جنداً ، وأسمى نسباً ، وأكرم عنصراً .

ومشى يجول في الوادي ويصول ، ويملأ أرجاءه بنشيده الحماسي المرعد .

لم يجاوز الا قليلاً حتى قابل أميرة صغيرة تخطر على السفح الجميل ، وفي (عينها الخضراء) صفاء وفيها وداعة ولها سحر ، كأن الناظر اليها يشرب خمراً ، تلقي أغنيتها بصوت ناعم حالم . كأنه همس القلب في أذن الطيف الحبيب . فأصغى اليها الجبل الأصمّ ، ومال من الحنو عليها ، وعانقتها الشمس ، فلما اضطرت الى فراقها احمرّ جفناها[2] من كثرة البكاء . فذابت من حرارة الوجد قلوب (الثلج) وسالت مدامعها على خدود الجبال فاخضرّت منها السفوح ، فمن ذلك سميت (الخضراء) . ثم لما عادت الشمس بَسَمَ الوادي ، فمن ذلك سمي وادي (بسّيمة)[3] وكان لهذه الفتاة أمّ وصّتها حين ألقتها في لجّة الحياة أن تحترس من النهر ، وتحذر أن (يخطفها) ثم (يبتلعها) فانه شاب غدّار طيّاش ...

* * *

لما أحسّ بها بردى صرخ مختالاً : من هذا الذي جرؤ على أن يمشي معي في الوادي ، وينتزع مني مجدي ، وتبسم له الشمس من

---

(١) ذلك مشاهد الى اليوم في الفيجة .

(٢) اعني حمرة الشفق .

(٣) من زار الشام ومصايفها ولم ير بسيمة والعين الخضراء فلا يقل اني رأيت الشام لئلا يقول غير الحق .

دوني ، وتحنو عليه وتسمع نشيده الصخور الصم ولا تميـل عليَّ ولا تصغي لنشيدي ؟...

فلما أبصرها شغفته حبـاً ، ودلَّهته غراماً ، فعمد اليهـا ليخطفها ، فقامت دونها الصخور ووقفت تحميها (الدلبة)[٤] العظيمة التي تعيش هناك ، وتلوح بأذرعها مهدّدة ، فعجز عنها . وأنّى له الوصول اليهـا وهي نائمة في حضن الجبل ومملكته لا تتجاوز الوادي ... فحطم الحب كبرياءه ، وما أجلّ ما يفعل الحبّ ! فتطامن ومشى ذليلاً . فلمـا رأته فتنها بصمته ، وحرّك قلبها بأحزانه فمالت اليه ، وشغفت (ببريق) عينيه وقوته وشبابه ، فنسيت وصاة أمهـا ، وتمنّت لو نامت على ذراعيه . فلما جرّبت ذلك حملها وطار بها الى دمشق .

ومرّ على بردى نصف مليون من السنين ، وهـو السيد المطلق ، يجري حراً أبياً ، لا يقف في وجهه شيء ، حتى يجوز بدمشق ، ثم يذهب فيستريح في (العُتيبَة) ... ثم ظهر الانسان على الأرض .

* * *

وفي ذات صباح جاءه طائر يلهث عطشاً . فلما سقاه أحب الطائر أن يجزيه خيراً ، فخبّره أنه رأى هناك في الرمال المحرقة التي تملأ (الجنوب) أمة من الناس ، يمشون في طلب الماء . وقال له : اني أخاف عليك منهم ،

---

(٤) في بسيمة عند العين واحدة من شجرة الدلب لا يدري أحد متى ولدت . وقد ادركت في الشام دلبة أعظم منها ، كانت في شارع فيصل ، في مدخل السروجية ، احسبها قد ادركت معاوية بن ابي سفيان وقد نخرها الكبر ، فاتخذوا في جوفها مخزناً . واظن أن محيط جذعهـا كان أكثر من اثني عشر مترا . وكان يستند الى فرع منها جناح كبير من منزل كان هناك ، وقد قطعها جمال باشا (عليه من الله ما يستحق) مثلما قطع اعناق البشر !

فهم من أهل الجزيرة التي لا تغلب . من العرب . انهم بنو الشمس ، بنو الصحارى ، بنو الموت ، أفتظن أن الموت يمس أبناءه ؟

فضحك بردى وصرفه بسلام !

* * *

ووصل أول رجل من القافلة ، وكان من أهل (الجزيرة) . وهل خرج الى الدنيا في فجر الحياة غيرهم ؟ فلما رآه صاح باخوته أن تعالوا انظروا كم يحمل من ماء الحياة ونحن هالكون عطشاً . فاقبضوا عليه كيلا يفلت من أيدينا . ضعوا له الحواجز في طريقه كيلا يهرب ...

وأراد أن يضربهم ضربة واحدة فيهلكهم فلم يقدر عليهم . وقدروا هم عليه فأحسَّ أن نجمه قد شرع في الأفول ... عطّلوه عن سيره ، وغلبوه على أمره ، ثم صنعوا معه صنع كل عدو غالب . فرّقوا جماعته . وجعلوا أمّته الواحدة أمماً سبعاً ، فبعد أن كان كله بردى صار بردى ويزيد وتورا وباناس والقنوات والديراني والقناة ، ثوّروا عليه أبناءه حتى استقلوا عنه واعتصموا منه بأكناف الجبلين ... ثم سلبوه الفيجة واستاقوها (مقيَّدة بالحديد) [1] الى دمشق ...

ولقد غضب بردى مراراً وهاج ، فكان يهجم على المنازل وساكنيها ، فيشردهم شذر مذر ، ولا يبقي منها حجراً على حجر ، ويحسب أنه انتهى منهم ، فاذا هم يلدون غير من مات ، ويبنون غير ما انهدم ... فكَلّ وأيِس ... وأحسّ أنه صار شيخاً !

* * *

ووقفت على بردى وهو يمشي في (المرجة) رحبة دمشق تحت قصر

---

(١) جرّ ماء الفيجة الى بيوت دمشق في أنابيب الحديد .

أمية مشية الشيخ العاجز المتهافت ، فقلت له : هيه ... مالك ؟ تَعبت ؟ أو قد شِخت ؟

قال : دعني يا غلام ، فاني أساير الأيام ، فلما كانت مقبلة جادّة كنت أقبل معها عدواً ، فلما تولّت وهزلت ... تولّيت ...

ومالي لا أنِي ، وقد بادَ مجدي ، وساء جَدي ؟ ألا يا ليتني ماعرفت الانسان !

وسكت لحظة ، ولاحت على خدّه دمعة تجري مع الماء ، ثم قال : على أني رأيت والله ناساً كراماً ... أجلّوني وعرفوا قدري ، وكنت أمرّ بين أيديهم مرّ الرحيق السلسل ... وكنت أمشي في الرياض على فتيت المسك ، وأنام على غناء ، وأصبح على شعر ، وأضحى على كرم ومجد ونبل ... فأين أنت يا قصر البريص[1] .

وأين أولئك الذين كانوا لباب البشرية ، وكانوا مثلها العليا مجسّمة ، أولئك المسلمون الذين شادوا مجداً جدع أنف الدهر ؟ أين ذلك الرجل[2] الذي مرّ عليّ يوماً وكنت أمشي في الربوة على باب دمشق في الموضع الذي امتلأ هواؤه بجراثيم ذلك المرض الفظيع ، فلا يمر به أحد الا أصيب به ، المرض الذي يسمّونه الحب فلا يذهب الى الربوة من كان يخاف الحب ، لأنه لا يرى هذا الجمال الا تفتّح له قلبه ، فذهب يفتش عمن يحب... مرّ عليّ ذلك الرجل العظيم ، فرأى الأغنياء لهم في الربوة قصور ومنازل ، والفقراء ما لهم الا حجارة الجبل وحصى الوادي ، فلم ينصرف حتى أقام لهم متنزهاً ما رأى الناس مثله ، يجري

---

(١) عنـدي شواهد على أن موضع قصـر البريص في موقع (سوق النحاسين) اليوم ـ وكان أمام باب الفرج الذي يسمى اليوم باب المناخلية وهو احد ابواب دمشق .

(٢) نور الدين .

تحته (تورا) ، ويجـري فوقه (يزيد)[٣] وهو بينهمـا جنّة ، فيهـا ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين . فان اشتهوا ثمراً مدوا اليـه أيديهم ، وان اشتهوا لحماً ناولتهم السمك حياً ، فنقلوه من الماء الى المقلاة[٤] ، وان أرادوا لذة العين وجدوا ما لا مزيد عليه في دار الدنيا ، وعند الله في الآخرة مزيد ..

فأين أولئك الناس ، وأين اليوم أمثالهم ؟

وسكت بردى هنيّة ، ثم رجع يقول ...

لقد شاقتني أمس تلك القصور وهاتيك المنازل ، وقد سدّوا اليها الموارد ، وأقفلوا الأبواب ، (فانسللت) من شقوق الأرض حتى بلغت قاعة في الدار العظيمة ، دار القوتلي ، التي ترى عرصاتها من (منـارة العروس) اذا أنت صعدت اليهـا ، ونظرت الى ما تحتك الى الشمال ، وراء قبر الملك الظاهر ، ترى عرصاتها فتحسبها حيّا كاملاً ، أو أطلال قرية كانت هناك ... دخلت القاعة فيا أسفي ، ماذا وجدت ...

لا الروض باق ولا أهلوه باقونا ... ذوى الزهر ، وجفّ المـاء ، وصارت البرك حفراً قاحلة ، وقد كانت تضحك فيها أوانس الماء متراقصة ضحك الحيـاة في هذه الدار ... وتَعَرّت الجـدران ، وقد كانت نقوشها ومقَرْنَصاتها آية في مصحف الفنّ ...

اللهم اني أستغفرك ــ ولم يبـق من ذلك (الصيني) الذي يمـلأ (الكتبيّات) والرفوف الا قطع غاصت في التراب فبدت منها أطرافها ، ولا من السجّاد الثمين الا خيوط الله أعلم كم بللتهـا الأمطـار ، وكم

---

(١) كان في موضع المنشار والمنشار هو الدرج التي توصل اليه (وكلمة الدرج مؤنثة لانها جمع درجة) .

(٢) وهذا مثل ما يعرف في بغداد باسم (السمك المسقوف) وما عرفه من لم يره ، ولا درى مجالسه من لم يحضرها ، لانها فوق الوصف !

جففتها الشمس ، حتى غدت وليس لهـا لون يعرف . والرخام الأبيض الذي كان كالمرايا ... والأشجار والأوراد ...

لقد انصرف الدمشقيون عن هـذه الدور التي كانت مصدر الفن العمراني الأندلسي ، منهـا أخذ وعنها نقل ، وكرهوا هـذه الجنان ، واتّبعوا الأفرنج الى (جحر الضبّ ...) فآثروا عليها هذه الصناديق المغلقة التي يسمونها دوراً . فمن يفهمهم أنهم يخطئون ، وكيف السبيل الى الاحتفاظ بالبقية الباقية من دور دمشق القديمة ، قبل أن تهدمهـا حماقة المالكين ، وفتنتهم بتقليد الغربيين ؟

(قال) : ودخلت تلك البركة التي طالما شهدت فيها أعراس الحيـاة أتذكر ، فرآني خادم هرم ، فصاح بابنه أن تعال أخرج هذا الماء الآسن من هنـا ...

ماء آسن ؟ أنا آسن ؟ يا ويحكم . أمـا كنت طاهراً نقيـاً أسير في الوادي كما خلقني الله ؟ أما أكرمني من كان قبلكم ، ورفعوني بالنوافير على الرؤوس ، وكانوا يتقون الله فيَّ فلا يمسونني بأذى ؟ ويلكم أيّنا الآسن يا ذوي النفوس الآسنة ؟ كنت أصافح من أجدادكم عند الوضوء وجوهاً مشرقة نورانية وأيدياً طاهرة معطّرة فصـرت لا أرى منكم الا السوء . دنستموني وآذيتموني ، وألقيتم عليَّ أوضاركم ، وتدّعون أنكم في عهد النور ، وأن عهد أولئك كان عهد ظلام ...

أعهدُ ظلام كان ، وقدسطع فيه من عندكم نور العلم حتى ملأ الدنيا ، وامتد فيه شعاع الفضيلة حتى أضاء غياهب القلوب فبدّد ظلمة الشهوات ؟ ورفرفت فيـه الراية ــ رايتكم على نصف المعمـور من الأرض ، ولو اجتزتم نهـراً عرضه خمسون متراً ، ولو أخّر الله موت عبـد الرحمن ساعتين ، لرفرفت على النصف الآخر ، ولنجا العالم من وحشية الشقر

الآريين الذين يدّعون كذباً أنهم أفضل منكم . دعوى ابليس حين قال : (أنا خير منه) !

لقد هدمنا مجدنا بأيدينا ، وأعنّا عدوّنا على أنفسنا ، فذللنا حين انقسمنا ، وأضعنا كل شيء حين ذللنا . آفلا يقظة بعد هذا النوم ؟ ألا نظرة بعد هذا العمى ؟ ألا زعيم مصلح حقاً يرجع الناس الى الجادة التي ضلوا عنها ، الى كتاب الله وسنة نبيه ، ويخلصهم من بليتين : من الحاد المتفرنجين ، ومن شعوذة أصحاب الطرق الحشويين الجاهلين ؟

اللهم تباركت ربنا ، لك الملك ولك الأمر ، ولا شكاة الا اليك ولا خير الا منك .

وسكت بردى ، وعاد يمشي مشية الشيخ العاجز حزيناً متألماً !

في شارع ناظم باشا

في ليلة قمراء من شتاء ١٩٢٩

بينما كان حيّ المهاجرين (في دمشق) يرفل في حلل الرخاء والترف ، ويجر أثواب الدعة والنعيم ، ويشب من الطرب ، ويمشي على الذهب ... وبينما كانت قصوره البلق تشتعل بالكهرباء فتأتي في الليل بالنهار ، وشوارعه المتوازية الصاعدة الى سرّة الجبل تتمايل أشجارها تمايل العروس ...

... كان في الشارع العام الممتد على سفح الجبل ، شيخ أبيض اللحية ، متفكك العظام ، مقوّس الظهر ، قد أخنى عليه الزمان ، وحطمه الدهر ، يسير منفرداً يتوكأ على عصا ، لا أنيس له الا ظله الذي يمشي معه ، ينمو ويتطاول كلما ابتعد عن المصباح ، ثم يضعف ويختفي ، ثم يولد ظلّ جديد ، ويبدأ قوياً واضحاً ، كما تنمو الكائنات وتقوى ، ثم يدركها الضعف ، ثم تبيد لتأخذ مكانها كائنات أخرى أقدر منها على العيش ، وأحق منها بالحياة ... حتى بلغ (قصر الوالي) ، هذا القصر الأبيض الفخم ، المعتزل وسط الجنائن الواسعة ، الذي يخطر أمامه الجندي الذي يحمي حمى رئاسة الجمهورية ، فوقف على الدرابزين(١) وجعل يحدق في القصر ، ويتأمل نوافذه المضيئة ، ويستمع الى همس الحياة الرغدة الناعمة ، ينبعث من غرفه وأبهائه ، حتى علق بصره بغرفة

---

(١) كلمة معربة من القديم .

بعينها ، ينبثق منهـا ضوء شديد ، فجعل يحدق فيه ، حتى زاغ بصره وعَرَاه شبه دوّار ، فجلس على طـرف الدرابزين ، وأمسك بحديده البارد ، وألقى برأسه على كفه ، وانطلق يفكر ... يفكر في دنيا بعيدة ... بعيدة جداً ، قد طمّ عليها لجّ النسيان، يعالجها بالذكرى ، فيراها ينحسر عنها الماء ، وتبدو له شيئاً بعد شيء ، وتعرض عليه كمـا يعرض (فلم سينمائي) غريب عنه ، لا عهـد له به ولا صلة بينه وبينه ، وان كان من القائمين به ، والممثلين فيه ...

... ففتح عينيه ، وراح يحدق في الظلام .

رأى دمشق في أواخر القرن التاسع عشر وهي ولاية عثمانية ، ورأى ناظم باشـا (والي دمشق) وقد أصبح ذات يوم لقِسَ النفس ضيّق الصدر ، فأقبل على عمله فلم يجد له عزماً ، فعمد الى المطالعة والتسلية ، فلم يزدد الا ضيقاً ، فأمر أعوانه أن يتيمموا له منزلاً جميلاً مشـرفاً ، فينصبوا فيه خيـامه ويقيموا فيه مجلسه ، ليصطبح فيه ، وينزله بقية يومه . فتسابقوا الى طاعته ، وتبـاروا في خدمته ، فلم تكن الا ساعة واحدة حتى كان المجلس معداً . فلما جلس واطمأن ، نظر فرأى منظراً عجباً ، ما رأى له مثيلاً وقد جاب أنحاء المملكة : رأى كأن أمامه متحفاً للطبيعة فيه من كل مشهد صورة ، ومن كل لون مثال ، فحواليْه تلال وسفوح مالها حدّ ، وعن يمينه جبـال صخرية قائمة فيها روعة وفيها جمال ، ومن أمامه (يزيد) يجري زاخـراً مزبداً يحيط بهذه السفوح ويُحدق بها ، وهو يلمع في شعاع الشمس فتخاله العقد مستديراً بجيد حسناء ، ومن وراء النهر الغوطة الخضراء ، احدى عجائب الدنيا ، تمتد الى نهـاية الأفق ، والمزّة وصحراؤها الواسعة ، وسهولها الفيح ، فلم يكن يشاء أن يرى جبـلاً ولا نهراً ولا خضرة ولا بادية الا رآهـا ، والسماء تبدو حيال الأفق كأنها البحر ، يا لروعة (البحر) في دمشق ..!

ودمشق تظهر من بعيد ، وهي نائمة على هـذا البساط السندسي

الأزلي ، عليها غطاء من نسج الغصون ، موشّى بالزهر وقد هبّت عليها نسائم الصباح الرخيّة ، تمس وجهها مساً رفيقاً ، وزقزقت في أذنيها العصافير ، توقظها برقة ولطف وهدر في مسامعها بردى يهزّها كي تفيق.

والجامع الأموي كأن قبته من فوقها عمامة التقوى على رأسها ومآذنه الطويلة السامقة كأنها أصابع ممتدة بالشهادة[1] وكأنه يحمل على ظهره أثقال القرون الثلاثين التي عاشها ، مذ كان معبداً وثنياً ، الى أن صار كنيسة نصرانية ، الى أن سما فكان مسجداً اسلامياً ، يجهر فيه بالأذان ، فيرنّ صداه على ضفاف الكنج ، وشاطىء اللوار ، ويقوم الناس للصلاة صفاً واحداً ممتداً من قلب الهند الى قلب فرنسا . فانتفى عنه الهم ، وطار به السرور فسأل من حوله :

ــ ما للدمشقيين لا يبنون هنا ، ويقيمون على هذا السفح حياً لا يكون مثله مصيف في الدنيا ، ولا مشتى ؟ فما بقي منهم الا من وثب الضحك الى شفتيه ، وهمّ بقهقهة مجلجلة ، ولكنه أمسك حرمة للوالي ، وحياء منه ، وقالوا له :

ــ ولكن يا مولانا ، من يرضى أن يقيم في هذا المنفى ويسكن في جبل أجرد ، لا ماء فيه ولا نبات ، ويسافر كل يوم ساعة كاملة ، ليصلّي في الأموي ، أو ليرِد السوق ؟

فأطرق الوالي يفكر ، ويجيل عقله الكبير ، وعزمه النافذ في كافّة الممكنات ، ليجعل من هذه السفوح القاحلة ، أجمل حي في أجمل مدينة ، ويحيل هذه الرمال رياضاً تجري من تحتها الأنهار !

* * *

(١) شهادة أن لا اله الا الله .

ثم انقطع الفلم ودارَ أبيض يحمل أياماً خاليات لا شيء فيها ثم وضحت فيه صورة ...

فاذا هو يرى حادثة كريد (اقريطش) حين غدرت أوربة ـ على عادتها دائماً ـ بالمسلمين ، وشرّدت أهل الجزيرة من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، بين سمع الأرض وبصرها ، فدعا بهم ناظم باشا والي الشام ، وجمعهم وبنى لهم من أموال الدولة بيوتاً ، متشابهة كمحطات القرى ، ضيّقة كغرف الخفراء ، بناها على سفح قاسيون ، فكانت لهم عصمة ومأوى ، وكانت للحيّ الذي يحلم به بذرة ونواة .

ثم استدار الفلم واذا دمشق خارجة تستقبل الامبراطور وقد جاء يزورها زيارته المشهورة ، ففرشت له الحكومة الحرير وأوطأته الديباج ، فلم يطلب من ناظم باشا الا أن يزيره الجبلين العظيمين ، والأثرين الخالدين : قاسيون ، وقبر صلاح الدين ! فانطلق العملة والبناؤون ، يقيمون له على سفح قاسيون (المسطبة) التاريخية التي تدعى الى اليوم والى الغد (مسطبة الامبراطور) ويمهدون له الطريق الى مقبرة صلاح الدين في (الكلاسة) .

وهناك في أصل جدار الأموي الشامخ ، وعلى هذه العتبة الواطئة وقف أعظم ملوك العصر ، مطأطىء الرأس خاشعاً خاضعاً ، ثم ركع على ركبتيه ، ثم سار حبواً حتى وصل الى جانب القبر ، فوضع عليه اكليلاً من الزهر وقال :

ـ هذا لك يا سيد أبطال العالم .

ثم أمّ قاسيون ، فلما استوى على (المسطبة) ورأى هذا المنظر استخفه الطرب فصاح :

ـ ما على الأرض أجمل من دمشق ! ما على الأرض أجمل من دمشق !

فصحّت عزيمة الوالي على انشاء الحيّ ، وبادر الى الأمر ببناء هذا (القصر الأبيض) .

* * *

واستدار الفلم فرأى الشيخُ ناظمَ باشا ، قائماً في الشرفة يطلُّ على الوفود الذين أمّوا ساحة القصر ، ليكرموا الرجل الذي تغلبت ارادته الماضية على الصخر الأصم فخرقته ، وعلى البعيد النائي فقرّبته ، حتى تم مد القناة العظيمة من الفيجة الى دمشق لتسقي أهلها ، وتسيل في هذا الحي الذي قام ليكون زينة دمشق وعروسها .

ورنّ في أذنيه صوت الخطيب وهو يقول للوالي :

« ... ... ان دمشق التي أحببتها وسقيتها وعمرتها لن تنسى فضلك أبداً ، ولن تحيد عن حبك واكبارك وسيظل منقوشاً على أفئدة أبنائها الى آخر الدهر ، هذان الاسمان العظيمان : اسما مصلحَيْ دمشق : مدحت باشا . وناظم باشا .

ثم انقطع (الفلم) وتبدّد الحلم ، وأحسّ الشيخ بيد قوية تقبض على كتفه ، فعاد الى نفسه ورفع رأسه فاذا الجندي القائم على باب القصر ، يصيح به :

ــ ماذا تصنع هنا أيها المتشرد ؟

ثم يكسعه برجله فيقوم الشيخ ورأسه الى الأرض من غير أن ينطق بكلمة ...

عاد الشيخ أدراجه يطوف الحيّ ويدخل من شارع الى شارع ، فلا يعرفه أحد ولا يفتح له باب ، حتى اذا نال منه الجوع ، وبرح به التعب ، رأى زقاقاً ضيقاً فولجه ، حتى اذا انتهى الى بيت صغير من بيوت المهاجرين الأولين ، وقف ينظر اليه ، وتبرق عيناه كأنّ مرآه يذكره بشيء ، ثم مد الى حلقة الباب يداً مرتجفة فقرعه قرعة ضعيفة ، ولبث

ينتظر ، فلما لم يرد أحـد عاد فقرعه وشدد القرع ، وسكت فلم يسمع جوابا فعاد يخبط خبطاً قوياً وينادي :

ـ كريتلي زاده ! كريتلي زاده محمد افندي ! فتحركت عجوز من أقصى الدار وصاحت : من هذا الذي يسأل عن محمد أفندي ؟

وخرجت تدبّ على عصاها حتى بلغت البـاب فنظرت في الظـلام وصاحت صيحة الفزع : من هذا الذي يسأل عن الرجل الذي مات من خمس عشرة سنة ؟

فلما سمع الشيخ ما تقول وجم ولم ينطق •

فأقبلت نحو الضوء ، حتى اذا اقتربت من الرجل رجعت تصيح بصوت مرعب : من أنت ؟ قل لي من أنت أيها الرجل ؟ ماذا تريد ؟

ـ قال : أنا ، يا حاجّة صفيّة ، أنا •••

ـ من أنت ؟ تعـال الى النور حتى أراك ، فلمـا رأته واستبانته ، صاحت : آه

ـ قال : هل عرفتني ؟

ـ قالت : آه ، كيف لا أعـرفك يا سيدي ، ولكن ••• كلا كلا • أنا واهمة ، هذا مستحيل • قل لي حالاً من أنت ؟

ـ أنا ناظم • ذاك الذي كان يدعى يوماً ناظم باشـا • ذاك الذي كان والي الشام • ألا تذكرين يا صفيّة ، كيف كنت تلعبين في رحبـة القصر وأنت صبيّة صغيرة ؟ وكيف كنت تتسلقين الأشجار ، وتطاردين الغزال الذي كان في الحديقة ؟ هل تذكرين ؟ حتى اذا مللت وتعبت عدت مع أبيك محمد أفندي الى الدار •

ـ آه يا مولاي آه ! اذن أنت هو ! لم أكن مخطئة • قل لي يا سيدي أين أنت ؟ وما جاء بك ؟ لا لا • أدخل أولاً ! أهلاً وسهلاً ، ليس عندي شيء أقدّمه اليك • ليس عندي شيء •

وانطلقت تبكي

انني عجوز فقيرة ليس لها الا الله . لم يعد يسأل عنا أحد بعدك . انني سأموت فقيرة تحت أثقال ذهب الجيران . وأختنق جائعة برائحة اللحم . ان هذه القصور ستبتلع كوخي الذي لم يبق غيره ... وألحت في البكاء .

انني لا أستطيع أن أصنع لك شيئاً . آه ، ليتني مت قبل أن أراك يا مولاي على هذه الحال .

فمسح الباشا دموعه ، وقال لها :

ـ ولكني لا أحتاج شيئاً . أنا في نعمة . وانما جئت أزورك ، والآن وداعاً .

فلما ابتعد فتش في جيوبه ، وقلّبها كلها ، فلم يجد الا فرنكين كان يدّخرهما لعشائه فدفعهما اليها ، ومشى قبل أن يسمع ما تقول .

عاد يطوّف في الحي ، يخرج من شارع الى شارع ، منفرداً منكراً ، ولقد فارق دمشق وهو ربّها وسيدها ، وصاحب الأمر والنهي فيها ، ولكن هذه الأعوام التي كرّت سريعة محملة بالأحداث الجسام قد بدّلت كل شيء .

لقد انفجر بركان الحرب ، فهدّ هذا الفلك العظيم ، فلك الخلافة الاسلامية ، فتناثرت نجومه وكواكبه وانطفأت شمسه ، وأظلمت نيرانه ، وعبست مكة للقسطنطينية وبَسَمَت للندن ، وصافحت الحلفاء وقابحت الخلفاء ، وولد استقلال سورية في القصر المنيف على بردى ، ومات طفلاً في الصحراء القاحلة من ميسلون ، وكان الانتداب ، وكانت لياليه الحالكات ،

وذهب جيل من الناس كان يعرف الباشا حق المعرفة وجاء جيل جديد ينكره أشد الانكار .

فنفض الباشا يده من كل شيء ، وانحدر الى الشارع الأعظم على سفح الجبل ، فجلس على حجر قبـالة القصر الذي بنـاه وكان صاحبه ومولاه ، فطرد الليلة عنه كما تطرد الكلاب ، وأسلم رأسه الى كفيّه ، وراح يفكر في غير شيء •

فما نبّهه من ذهوله الا ولد يقفز بقبقابه على بلاط الشارع ، فاستوقفه يسأله : ما اسم هذا الشارع يا ولد ؟ فارتاع الولد وفر حتى اذا ظن أنه قد فاته ، صاح به :

ـ ألا تقرأ اللوحة يا أعمى ؟ هذا شارع ناظم باشا !

فابتسم الباشا ابتسامة صفراء ، وعاد الى صمته وهبت الرياح فلم تلبث أن أنشأت سحاباً حجب القمر ، فشمل الشارع ظلام رهيب •

على أطلال الضمير

« أغارت سيول هائلة ليلتي ٢٤ ـ ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٣٧ على النبك ودير عطية وحرستا والمعظمية والضمير من اكبر قرى دمشق الشمالية ، فخربتها ولم تدع في الضمير حجراً على حجر ، وقتلت الناس بالمئات وتركت من تركت بلا مأوى ولا مال ... »

نشرت سنة ١٩٣٧

كانت (منطرة) سعد الخطار أعلى منطرة في دوما ، وكانت تطل على كروم دوما الواسعة ، والسهول التي تليها ممتدة الى ثنيّة العقاب ، التي انحدر منها خالد مَقْدَمه من العراق في طريقه الى اليرموك ساحة الشرف الخالد ، وتشرف من هناك على جنات الغوطة ، تلوح من ورائها دمشق جنة الأرض أقدم مدن العالم ، ويرى منها قاسيون الحبيب ، وهاتيك الجبال ... وكان سعد الخطار سيد شباب الضمير ، وأشدهم أسراً ، وأجرأهم جناناً ، وأقواهم ساعداً . اشتغل منذ عشر سنين ناطوراً في كروم دوما ، فعرف فيها بالشدة والبأس ، فتجنب الناس كَرْمه ، وابتعد عنه اللصوص والطرّاء ، وكان يجول المساء في أنحاء الكرم أو ينزل الى البلد ، وخيزرانه في يده ، فيقف النساء على طريقه ينظرن باعجاب الى قامته المديدة ، وصدره الواسع ، وأكتافه العريضة ، وشاربيه الأسودين المعقوفين . ولكن سعداً كان مع هذه الشدة وهذا البطش رقيق العاطفة ، مرهف الحس يحمل بين جنبيه قلب شاعر .

كان عصر اليوم الخامس والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٣٧ وكانت السماء متلبدة بالغيوم ، والأمطار ترش رشاً خفيفاً ، والدنيا مظلمة ترى

كأنها في ساعة الغروب ، وكان سعد في منطرته ينظر الى الكرم الواسع الذي حرسه الصيف كله وكان موقراً بالثمر ، تبدو عناقيده الحمر والبيض من خلال الورق الأخضر ، كأنها عقود اللؤلؤ والياقوت ، يمتد الى حيث لا يدرك البصر ، حافلاً بالحياة فرآه قد اصفرت أوراقه ، وعطل من الثمر ، وعاجله الخريف ، فذوت أوراقه ، واسَّاقطت تطير مع الريح ، ورأى أشجار المشمش التي كان يبصرها دائماً عن يمين الكرم خضراء زاهية ، قد تجردت ولم يبق منها الا اعوادها ، وهبت ريح باردة من رياح الخريف فلفحت وجه سعد ، وحملت بقايا الأوراق الذاوية فألقتها في منطرته ، فكان يسمع لسقوطها تحت المطر صوتاً حزيناً مؤلماً ، فشعر سعد بالأسى يملأ قلبه ... سيضطر غداً الى فراق هذه المنطرة الحبيبة ، وهذا الكرم الذي ثابر على حراسته عشر سنين ، وتعلقت حياته به ، وانتثر قلبه في أرجائه ، فأصبح جزءاً من حياته وقطعة من نفسه ، لا غنى له عنه ، ولا حياة له بدونه ... لقد ملؤوا أمس آخر صندوق (سحارة) من العنب ، جمعوه من بقايا العناقيد ، ولم يبق في الكرم ما يحرسه ، فشعر كأنه يفارق ولداً عزيزاً عليه ، قد رباه وتعهده بالعناية ثم فقده ... أو لم يرافق الكرم وهو لا يزال حصرماً ؟ أو لم يتعهده حتى نضج وأينع ؟ أو لم يشاهد التجار كل مساء وهم يأتون ومعهم العمال بالعشرات يملأون صناديق (سحاحير) العنب ، وهم يغنون ويصيحون ويترعون الفضاء أنساً ؟ كم بين هذا المشهد وبين مشهدهم أمس ، وهم يملأون آخر (سحارة) صامتين تلوح على وجوههم أمارات الحزن والكآبة ؟ لم يستطع سعد أن يراهم على هذه الحال فانسل الى منطرته ووضع رأسه بين يديه يفكر حزيناً ملتاعاً .

جلس سعد يتأمل هذا المشهد ذاهلاً غائباً عن نفسه والمطر يشتد ويقوى ، والماء ينفذ من سقف المنطرة ، وكان سقفها من ورق الكرم الجاف ، ويبلل رأسه وثيابه ، لا يحس به ولا يحفله ، لأنه ابن البر ،

وصديق الطبيعة ، ولأنه كان ذاهلا عن نفسه لم يصحُ حتى أسدل الليل ثوبه الأسود على الدنيا فغيب تحته هـذه المشاهد كلها . صحا سعد فنفض الماء عن شعره وثيابه ، ونشر خيمته فوق رأسه لتمنع عنه المطر ، وأوقد مصباحه الألماني الذي يظهر للسارين ، وهو في هذا المرقب العالي كأنه نجم من نجوم السماء ، وجلس يفكر . وذهب به الفكر الى بعيد ، فذكر حين جاء هذه المنطرة مع عمه وابنة عمه ليلى ، وكان ذلك قبـل أحد عشر عاماً ، لقد كان في السادسة عشرة ، وكانت هي بنت تسع سنين ، وكان عمه ناطور الكرم يحرسه منذ ثلاثين سنة ، وهو الذي بنى هـذه المنطرة وأعاد بناءها أكثر من عشرين مرة ، اذ كانت تهدمها الرياح والأمطار والسيول ، لقد تصور عمه بقامته العالية ، وجسمه المتين ، وظهره الذي انحنى قليلاً تحت أعباء الزمان ولحيته البيضاء ... لقد كان عمه قوياً شجاعاً ، وكان سعد يعجب به بمقدار ما كان يحب ابنته ليلى ، أحبها منذ كانت طفلة ، ولكنه لم يكن يعرف أنه يحبها ، ولم تكن كلمة الحب دائرة على ألسنة القرويين ، بل كان من العار على الشاب أن يذكرها لفتاة . لم يكن يعرف أنه يحبها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يبتعد عنها أو أن يمر عليه يوم لا يراها فيه ، واذا هو لقيها وذهب معها يلعب ، أو يرعى العنزات ، أو يسوق البقرة الى المزرعة ، أو يملأ الجرة من العين ، ينسى الدنيا كلها ولا يفكر في شيء . وذكر حين جاء هذه المنطرة أول مرة مع عمه وابنة عمه ليلى ، وحين تركه عمه مع ليلى لينزل الى دمشق ، وأوصاه بأن يعتني بهـا ويحرس الكرم قال له لقد صـرت شاباً يا سعد ، فكن عاقلاً وشجاعاً ، لا تدع ليلى تنزل في الليـل من المنطرة ، واذا رأيت وحشاً أو سارقاً فأطلق عليه النار ، لا تخف من شيء . هذه هي البندقية .

وذهب عمه وهو يتبعه بصره ، فلمـا غاب عن عينيه أحس سعـد بأنه غدا مذ تلك اللحظة رجلاً ، وأنه هو حامي ليلى ، وحارس الكرم ، وأنه يستطيع أن يطلق النار من البندقية كما كان يفعل عمه تماماً ، وتمنى

من كل قلبه أن يرى وحشاً أو لصاً ، ليري ليلى شجاعته ورجولته ولكنه لم ير شيئاً •

ذكر كيف قضى الليل مع ليلى ، وكانت ليلة قمراء رخيّة النسيم ، وأحسّ بلذة لا تشبهها لذة ولكنه لم يمسَسْها بيده ولم يذكر لها كلمة الحب ، لأن الشرف والأمانة ، كانا شعار الشباب في تلك الأيام ، وليلى ابنة عمه وعرضه ، ائتمنه عمه عليها ، والله شاهد عليه •

وقفز به الفكر الى بلدة الضمير ، وقد كبرت ليلى وحجبت عنه ، فلم يعد يراها الا على (العين) أو في الحقل • ولم يكن يمنعه الحجاب من رؤيتها ، لأنه حجاب شرعي يظهر الوجه والكفين ، ويستر كل شيء ، لا كحجاب المدن الذي يستر الوجه بغشاء رقيق يزيده فتنة وجمالاً ، ثم يكشف العنق والصدر والساق وما فوق الساق ، ويظهر الكف والساعد ، فكان يحدثها ويصحبها في الطريق ، ولم يكن بينهما سوء ، لأنها خطيبته المسماة عليه منذ كانا صغيرين ، فهي له ، ولم يجرؤ شاب في القرية على خطبتها احتراماً لسعد وخوفاً من بطشه • ومرت في ذهنه صورة العرس وحفلاته ، ووفود القرى المجاورة والولائم العامة في الساحات والطرق و (الدبكات) والأهازيج ، مرت في ذهنه مراً سريعاً فأبصرها حية قريبة كأنها كانت أمس ، مع انها قد كانت منذ سبع سنين ، لم ير فيها من زوجته ليلى الا ما يعجبه ويرضيه • لم تغضبه مرة واحدة • كانت تحيا من أجله ، تهيىء له الطعام وترتب الدار ، وتنتظره حتى يجيء من عمله ، فاذا جاء رآها قائمة وراء الباب منتظرة ، فقبلت يده ، ثم أعانته على نزع ثيابه ، وصبت على يديه الماء حتى يتوضأ ، ويغسل وجهه ورأسه بالصابون ، ثم قدمت اليه الطعام ، ولم تدخر وسعاً في تسليته وايناسه ، واذا كان كئيباً أو مهموماً رفهت عنه وواسته ، وأضاق مرة ولحقه الدائنون حتى هددوه بالسجن من أجل عشرين ليرة ، فلم يشعر

الا وزوجته تقدمها اليه ، زاعمة أنها قد وفرتها من نفقات المنزل ، فصدقها ووفى دينه ، ثم علم بعد أنها باعت حليّها التي لا تملك غيرها .

كانت مثال الزوجة الشرقية المسلمة التي تعيش لبيتها وزوجها وتتخذه سيداً لها ، وكان هو مثال الزوج الوفيّ الصالح ، الذي يشتغل ويحيا لزوجته وبيته ، ليس له سهرة ولا خليلة ولا عادة من العادات السيئة التي تذهب الأموال وتشقي العيال .

ثم ذهب الفكر بسعد الى ولده ، ولده الوحيد (يسار) فهاجه الشوق اليه ، وبرّح به الحنين الى بيته ، وغلب على حبه لهذه الأرض وتعلقه بها . وكان الليل قد انتصف ولم يذق سعد مناماً ، فنهض ورفع طرف الخيمة ، فنظر فاذا السماء صافية قد انقشعت عنها الغيوم ، وطلع القمر من وراء الأفق هلالاً ضعيفاً ، يلقي على الدنيا نوراً كابياً ، فرأى الكرم أسود فعاوده الحنين اليه ، والحزن على فراقه ، وكانت منزلة الكرم في نفسه كمنزلة زوجته وولده ، بل كانت هذه المنطرة أحب اليه من بيته ، وجعل يتأمل الكرم فامتلأ قلبه أسى ، وذكر ليلى ويساراً فأزمع الرحيل ، ولكنه اضطر الى انتظار الفجر ، ولبث صامتاً فغلب عليه النعاس ، فأغفى اغفاءة قصيرة ، ثم نهض مذعوراً يرتجف ، لقد رأى حلماً مرعباً فتعوذ بالله وسأله أن يحرس زوجه وولده ، ولم يطق البقاء فقام يجمع أمتعته ــ وما أمتعته الا فراش ولحاف وبساط وخيمة وصندوق صغير فيه قدر وأطباق وابريق للشاي ، ويلقي على المنطرة النظرة الأخيرة كأنه يريد أن يثبت صورتها في نفسه ، وأن يودّع ما فيها من ذِكَر لَذّة هي أعز ما يملك في حياته ، ثم نزل الى دابته والفجر يهم بالانبثاق .

راقه سكون الليل ، وجمال الفجر ، وهذه الكروم الواسعة التي

استيقظت وتسربت اليهـا خيوط النور ، من ناحية الشرق فأضـاءت صفحتها ، فاشتد به الحنين الى زوجته وولده ، وشعر أن حبه لهما قد نما في هذه الساعة وازداد وطغى على نفسه فجعل يتصور حركاتهما ، وكيف يخرجان لاستقباله وكيف يتعلق به يسار فيرفعه الى وجهه فيقبله ، ورنت في أذنيه كلمة (بابا) حلوة مستحبة ، وشعر بعـالم من الحب والعطف والوئام يغمره ، حتى أحس بنفسه تطير على متن الهـواء في حلم فاتن لذيذ ، فانطلق يغني شتى الأغاني القديمة ، وصوته العذب القوي يشق السكون ويوقظ الطبيعة ، فتجاوبه الديكة من الكروم المجاورة بزقائها ، والعصافير بزقزقتها الحلوة .

أشرف على البلد ضحى ، فتأمل الفضاء فلم يبصر شيئاً ، أين البلد ؟ هل أخطأ الطريق ؟ أم هو لا يزال بعيداً عن بلده ؟ لقد نظر حوله وأنعم النظر فلم يشك أنه حيال البلد ، لقد سلك هـذا الطريق مئات المرات ، وهو يستطيع أن يسلكه مغمض العينين فكيف يخطىء أو يضل ؟ لا شك أنه على صواب ، وأنه قد وصل ولكن أين البلد ؟ وأحس سعد كأنه قد بدأ يجن . أتختفي بلد برمتها أيها الناس ؟ ودنا حتى وصل البلد فلم يجد الا أكواماً من التراب مبتلة ، عليها آثار الماء ، تتخللها برك ما لها من آخر ، وحجارة منثورة في البادية نثراً ، فجن جنونه ، وانطلق يصيح : ليلى ! ليلى ! يسار ! يسار ! ليلى . ويهيم شـارداً على وجهه ، يدور بلا وعي واذا بشيخ مسن يهتف به ثم يأخذه من يده ، فنظر اليه فاذا هو عمه ، فيتبعه سعد صاغراً ، حتى جلسا على كومة من هذه الأكوام .

قال له : هـذه حال الدنيا يا بني ... ان لله حكمة لا يعلمها أحد ، فلنصبر ولنرض بالواقع ، الحمد لله على كل حال .

قال : ولكن ماذا جرى يا عم ؟ أين ليلى ؟ أين ابني يسار ؟

قال : هذا قضاء الله يا بني . لقد كنت نائماً ليلة أمس فسمعت ضجة في الطريق ولغطاً ، فخرجت فاذا النـاس مجتمعون ، وعلى وجوههم أمارات الذعر الشديد وهم يصغون في خوف ورعب ، الى صوت عجيب آت من بعيد ، فأصغيت فاذا هو عميق مستمر لا ينقطع ، فخرجنـا ولم ندر ما هو ؟ فقائل انها ريح ، ولكنه ليس بصوت ريح ، وقائل هو من أصوات الجن وقائل انه رعد وما هو كذلك ، فوقفنـا وتهيأنا للنضال ، وحملنا السلاح ، وكان الصوت مستمراً ... ولكنه جعل يقوى ويقترب حتى تبينا فيه هدير الماء ... انه السيل ! السيل ! وطارت هذه الكلمة على الأفواه ، فأسـرع قوم الى بيوت القرية العـالية يحسبونه سيلاً كالذي عرفوا من السيل ، لا يبلغ هـذه البيوت ، وخاف قوم فأسرعوا الى الجبـل ؟ وقد أعجلهم الخوف فلم يأخـذوا معهم غطاء ولا وطاء ، وكنت ممن أمّ الجبل .

ـ وليلى ؟ ويسار ؟

ـ لقد بقوا في البلد ... اسمع يا بني ، انها لم تكن الا ربع ساعة حتى بدأ الهول ، نعوذ بالله ... لقد أقبل سيل علوه في الوادي أكثر من عشرين متراً يتكسر ويقذف بالصخور والحجارة والأشجار ، فغمر أعلى بيت في المدينة ، واختلط هديره العالي بصراخ النساء ، وصياح الأطفال وتداعي الشباب ...

ـ وليلى ويسار ؟

وانحنى سعد على قدمي الشيخ يقبلهما بجنون ويصرخ :

ـ أخبرني عنهما يا عم !

ـ سأخبرك يا بني ، لقد انحدر السيل من أعالي (قلمون) وتجمع

حتى صـــار بحراً ، تسوقه آلاف من الأبالسة ، فصدع الجسر العظيم الذي يمشي عليه الطريق وكان من الحديد والاسمنت ، ثم مر على دير عطية فصدعها صدعا ، ثم توجه تلقاء بلدنا ، ماراً بالقطيفة والمعظمية تاركاً فيها الدمار والموت ، فجعل بلدنا كما ترى ، فاحتسب مصيبتك يا بني عنـــد الله .

ولم يسمع سعد مقـــالة الشيخ لأنه ابتعد وهو ينادي باسم الزوجة الحبيبة ، والولد الفقيد يختلط نداؤه بآلاف الأصوات المعولة الباكية الحزينة .

في حديقة الأزبكية

نشرت سنة ١٩٤٧

كنت أمس عند الأستاذ الزيات فدخل علينا شاب في نحو الثامنة عشرة عراقي ، فسلم وقعد صامتاً لا ينبس ، وجعل ينظر اليّ كأن في فيه كلاماً يريد أن يقوله ، ولكنه لا يحب أن يظهرني عليه ، فهو يتبرّم بمجلسي ، ويرقب قيامي ، فلما طال منه ذلك ، قال له الأستاذ : « تفضل ! » . فقال متردداً : « كنت أريد أن أقص عليكم قصتي ... علّها ... تكتب في الرسالة ... ولكن ... سأجيء في وقت آخر » ، وألقى عليّ نظرة لا أقول من نار ، ولكن من حروف وكلمات تقول : « لولا هذا الرجل ! » .

فقال الأستاذ معرّفاً بي : « انه فلان ، وهو من أسرة الرسالة فقُصّ القصة أمامه ، فلعله اذا سمعها منك كتبها هو » . فلما عرفني أشرق وجهه واطمأن وانطلق يقول ...

* * *

وصلت مصر للدراسة في مدارسها في أكتوبر الماضي وكانت تلك أول مرة أقدم فيها القاهرة ، وأرى فيها الدنيا ، أمضيت عمري قبلها في قرية لا تعرف الا الجد ، ولا تقبل على غير الحرث والدرس ، ما فيها الا الحلقة والحقل ، ما فيها سينما ولا ملهى ، ولا تلقى في طرقها امرأة سافرة ، ولا تصادف في حقولها فتاة ، لم أخرج منها الا مرة واحدة وأنا صغير زرت فيها النجف مع لِدات لي فرأيتها مدينة عظيمة فيها كل ما يبهج ويهيج ، وسعدت فيها أياماً ، ثم عدنا الى القرية ، والى حلقة

الشيخ ، فقرأنا عليه كتب الدين والنحو والصرف والبلاغة ، ثم أقبلنا على الأدب ، نعبّ الشعر الغزل ، كما يعبّ من النبع العذبِ الصادي الظمآن ، ونحفظه في صدورنا كما يحفظ الشحيح الموسر ماله في صندوقه ، فيكون لقلوبنا الفتية المشتعلة بالعاطفة حطباً يابساً يزيدها اشتعالاً ، ولكنه يكون لقرائحنا مدداً ، ولألسنتنا ثقافاً ، ولنفوسنا صقالا ، وكانت لنا صبوات يحركها سواد المرأة وهي تخطر في سوق القرية بعباءتها السوداء السابغة ، وظلّها من خلف زجاج النافذة ، وصوتها من وراء الباب ، لا نرى منها أكثر من ذلك ، فكان يثير سواكن هذه القلوب التي ما عرفت طريق الاثم ... وان لم تخل القرية من آثمين (من الشباب) ومن آثمات .

ـ قلت : فما فائدة الحجاب ؟

ـ قال : ان الخير المطلق ليس من طبيعة هذه الدنيا ، والعبرة بالغالب ، فالحجاب خير فيه شر قليل ، ولكن السفور شر قد يكون فيه خير قليل ، وما الاثم في العاطفة يفيض بها القلب ، أو الشهوة تضطرم بنارها الأعصاب ، ولكن الاثم في عمل الجوارح .

وعاد الى قصته ، فقال :

وكنت قد سمعت عن القاهرة أنها ، لا تؤاخذوني ، أنها كباريز ، بلد لذة وانطلاق ، وأنها عالم فيه من كل شيء ، فيه العلم والجهل ، والغنى والفقر ، والتقى والفجور ، والعفاف والفسوق ، يصنع كل فيها ما يريد ، لا يسأل أحد أحداً ماذا يصنع ؟ ولا يقول له : دع ذا ، فانه حرام . وكفّ عن ذا فانه عيب ، وان ... اني لأستحي والله أن أتكلم ...

قلنا له : قل يا أخي ، انك تقول الصدق ابتغاء الاصلاح ، ولا حياء في الاصلاح .

فتردد قليلا ، وغضّ بصره . ثم قال :

ـ وأن النساء في مصر ، استغفر الله ، ما هذا أعني ، أعني أن في مصر نساء كثيرات ؟ ... الحاصل أن الصورة التي كانت لمصر في مخايلنا لم تكن صورة الأزهر بحلقاته ، ولا الجامعة بأبهائها ، ولا الجمعيات الاسلامية ، ولا النوادي الأدبية ، كلا . بل صورة (البلاج) ومشاهده ، والسفور والاختلاط ، وأن الصوت الذي يصل الى قريتنا عالياً ليس صوت الرسالة والثقافة والكتاب ، فانه صوت خافت فينا ، ولكن صوت الاثنين والأخبار والمسامرات ، منها تكوّنت للقاهرة هذه الصورة ، فتخيلناها فتاة عابثة مستهترة ، لا شيخاً وقوراً صالحاً ...

أنا أقول لكم الحق ، فأرجو أن يتسع لسماعه صدركم ، ولا يضيق به حلمكم .

ولما تقرر سفري الى مصر ، أرقت ليالي بطولها ، لا أستطيع الرقاد من فرط الانفعال ، ثم سافرت وكلما نقصت من الطريق مرحلة زاد شوقي مراحل ، وكلما اقتربت منها ابتعدت عن الصبر ، ولست أطيل عليكم ، فقد دخلتها ليلا ، فنزلت في فندق في العتبة الخضراء بلدي ، كانوا دلوني عليه من قبل أن أسافر ، اسمه (فندق البرلمان) ، فنمت نوماً متقطعاً تتخلله ثائرات الأحلام ، يؤرقني ما أرقب من لذائذ هذه الجنة التي دخلتها بعد طول تشوقي اليها فأنهض ساعة ، ثم يسحقني السهر والسفر فأهجع أخرى ، حتى طلع الصباح .

ونزلت الساعة العاشرة ، فمشيت خطوات ، فوجدت في وجهي حديقة الأزبكية ، وكنت قد قرأت في (النظرات) للمنفلوطي رحمه الله ، أن الأزبكية ، ولا مؤاخذة ، هي المكان الذي تميل اليه نفس كل شاب ، لأنه أوسخ معابد الشيطان ، السوق التي تباع فيها اللذائذ ، فاقتربت منها وقلبي يجف كأني مقبل على جريمة قتل ، وهل الزنا الا أخو القتل ؟ وتمثل لي ماضيّ وأخلاقي ، وطلعة الشيخ ، فارتددت وتلفت أنظر هل

رآني من أحد ـ لا تضحكوا أرجوكم فاني أصف لكم مـا وقع لي ، ومرّ رجال ، خيل اليّ أن واحـداً منهم يحدّق فيّ ، ويحدّ النظر اليّ ويتبسّم فشعرت أن دمي كله قد صعد الى رأسي ، وأن أذنيّ قد صارتا جمرتين ملتهبتين ، وتصبب العرق من جبيني ، لمـا وقع في نفسي من أن الرجل يعرفني ، ويعلم ما أسعى اليه ، فأسـرعت في مشيتي حتى نبهت الناس اليّ باسراعي ، فجعلوا ينظرون اليّ متعجبين من عجلتي ، وكلما رأيت ذلك منهم ازددت عجلة ، كأني الجواد الأصيل يقرع بالمقـارع ليقف ، وكلما أحسّ وقعها طار جرياً ، حتى اذا ابتعدت وقفت ، ووجدت راحة الخلاص من الاثم ، كما يجد الغـريق راحة الوصول الى الهواء ، ومشيت لا أعرف لي وجهة ، فعاد الشيطان يوسوس اليّ ، فثارت الرغبة في نفسي كرة أخرى ، وندمت على أن أضعت هذه الفرصة التي انتظرتها دهراً مديداً ، وفكرت فيهـا مسهداً ليالي طوالا ، وقطعت من أجلهـا قفراً وخضت بحراً ، ومشيت من مشرق الشمس الى مغربهـا ، فعدت وجعلت أدور حول سور الحديقة ، وقلبي يكاد يمزّق بوجيبه جـدار صدري ، وكان اليوم يوم أحد ، فرأيت غوانيها من خلال السور قاعدات باديات المفاتن أو مضطجعات أو منبطحات على الكلأ ساحرات بالمقـل النواعس ، وبالسوق والأفخاذ ، فكدت أجنّ ، ولا تنسوا أني لا أزال أعتقد أن الحديقة هي (أزبكية المنفلوطي) ...

وشددنا أشداقنا كيلا يفلت الضحك منا ، ومضى في قصته .

قال : ورأيت على مقعد شاباً وفتاة ، وهما يتناجيان ، وعلى وجهيهما من ظلال الحديث ، مثل ما يكون على وجه البحيرة السـاكنة من شعاع القمر ، وقد تدانى الرأسان ، والتفّت الأيدي بالمناكب ، وتعارضت الساقان ، وأحاطهما بجناحيه ابليسُ الهوى ، فجن جنوني ، ودفعتني موجة الانفعال التي ماجت في نفسي ، فأقدمت حتى اذا ضعفت الموجة وماتت ، كمـا تموت أمواج البحر وسط اللجّة ، ألفيتني عند الباب ، فوقفت لا أدري

ماذا أعمل ، وتخيلت كأني قد أقمت على عمود في رحبة القرية والناس كلهم ينظرون الي يقولون : هـذا الذي دخل الأزبكية التي لم يعرف (المنفلوطي) من تحديدها الا أنها فوق الغبراء وتحت السماء ، وتمنيت من الخجل أن أغوص في الأرض وأحسست أن الدنيا تدور من حولي ، ولم ينقذني الا رجل دخل فتوسط الباب الدوار ، فدفع (قرش تعريفة) فأداره له البواب حتى صار في الحديقة ، فصنعت صنيعه وأنا لا أعقل ما أصنع ...

جلت في الحديقة فوجدت نساء من كل لون وجنس ، ولكني كنت كمن ألقي في الماء قبل أن يتعلم السباحة ، فلم أدر كيف السبيل اليهن ، وحاولت أن أتذكر ما قرأت من القصص وماذا يعمل أبطالها في مثل هذا الموقف ، وما حفظت من أشعار الغزل ، فلم يخطر على بالي الا أبيـات (سألت الله يجمعني بسلمى) فقد كانت حالي كحال هذا الشاعر ، أرقب أن تجيء احداهن فتأخذ هي بيدي وتجرني اليهـا ، ولكني لم أر غرفاً ولا مخادع ، ثم وجدت بناء في الحديقة فعلمت أن المخادع والغرفات فيه ، وبقيت الى المساء ، أدور لا أفكر في طعـام ، ولا أشكو التعب ، حتى اذا قيل اخرجوا ستغلق الحديقة ، خرجت ومـا أظن أن على ظهر الأرض انساناً أخيب مني ...

وجعلت أعود اليها ، كل يوم ، فلما كان بعد ثلاثة أيام ، وكنت قاعداً على مقعد وأمامي امرأة قصيرة الثوب ، عارية الساق قد رفعت رجـلا على رجل ، فأبدت ما أحسست به كالبارود في أعصابي ، وجعلت أنظر اليها ، علهـا تلقي بصرها علي ، فأغمزها بعيني ـ وقد فكرت في ذلك الليلة البارحة كلها ، ورأيته هو الطريق اليها ، بعد ما أعياني الوصول ، وجربته أمام المـرآة حتى حسبتني أتقنته ـ والتفتت الي فغمزت بعيني ، فاذا بها تشمخ بأنفها ، وتقوم فتمضي وعلى وجهها مثل أمارات الاشمئزاز ... وسمعت ضحكا من ورائي فتلفت مـذعوراً ، فاذا أنا

بشاب على رأسه كمة بيضاء يلبس(قفطاناً) يبدو عليه أنه فلاح ، تلوح عليه سيمياء الفقر ، ورأى ذعري فقال : « ازّيك » . قلت : « كلّشْ زين » ففهم أني غريب ، وأني عراقي . فقال : « عجبتك ؟ » فاستحييت أن أجيب . فقال الخبيث : « ليه ؟ انت مكسوف ؟ ما تتكسفشي ! تعال أودّيك واحدة أحلى منها » .

انكم لا تستطيعون أن تتصوروا ماذا صنعت بي هذه الكلمة وأنا الذي عاش عمره يشتهي أن يشم ريح امرأة من مسافة فرسخ وتشجعت فقلت له بصوت مخنوق : « شْلُونْ ؟ » . قال : « شلون يعني ايه ؟ تعال معايا . تعال » وأخذ بيدي وأخرجني من الحديقة ، وقال : « تحب ناخد تاكسي ولاّ نركب الترام ؟ » وكنت نافد الصبر ، مجنون الرغبة ، فقلت : « تاكسي » . ولو كانت طيارة لركبت الى ما يأخذني اليه طيارة ، ولم أسأله الى أين ، حتى نزلنا من السيارة ، فسألت السائق : « كم تريد » ؟ قال : « ثلاثين قرشاً » فارتعت لحظة ولكني لم أبال ، ونقدته الأجرة ونظرت فاذا الذي بقي في جيبي اثنان وعشرون قرشاً ، وسائر فلوسي عند الفندقي . نفقة الشهر كله خمسة عشر جنيهاً ...

قال الشاب : « ايدك على جنيه بأه » . قلت : « جنيه ؟ » قال : « أمّال ؟ دي بنت تمانطاشر ، زيّ الأمَر » . فنظرت هنا وهناك أبغي مهرباً ولا أعرف الطريق . فقال : « مالكشي مزاج ولا ايه ؟ » . قلت : « في وقت ثاني » . قال الخبيث : « على خاطرك . هات تعبتي بأه ! » فأعطيته خمسة قروش ، ولم يحب أن يفلتني قبل أن ينتف ريشي فعاد يحدثني حديث الرجس ، وقال لي ان عنده بنات أخر ، ولكنْ لكل ثمن ، فبنت مصرية سمراء كأن عينيها عينا غزال شارد ، وبنت شامية من صفتها كذا ، وبنت عراقية من بلادنا من نعتها كذا ، وبنت رومية كأن جسمها العاج المشرب بعصير الورد ، وكان شعرها أسلاك الذهب ، تسقي من فمها خمراً ، ومن مقلتها سحراً ورآني أرتجف من الانفعال ، ورأى وجهي

شاحباً ، فقال : هي بنت بيت « مش من دول » لا تأخذ فلوساً ، لأن أباها من كبار أصحاب المصارف ، ولكنْ للبواب جنيهان ليغضَّ النظر ، وله هو جنيه ، واثنان لوصيفتها لتكتم الأمر ، وتحفظ الباب ...

وسحرني الملعون . فقلت : « لا بد لي من الذهاب الى الفندق لآتي بالفلوس » قال : « هيا بنا » .

وتسلم الجنيهات الخمسة ، وأدخلني عمارة فخمة في شارع الملكة نازلي ، فأصعدني الى الطبقة السابعة ، وأشار الى باب فقال : انها هنا . ولكنه لا يستطيع أن يدخل معي ، فهو ينتظرني عند البواب ، ونزل بـ « المصعد » الذي صعدنا به ، وأقدمت مضطرباً فقرعت الباب بيد ترتجف ، ففتحه لي خادم أسود مسنّ ، ووقف ينظر ما أقول له ، ووقفت مبهوتاً فقال : « ايه ؟ عاوز مين ؟ » فسكتُّ . قال : « الله ! انت عاوز مين ؟ » قلت : « سنيَّة » ، وكان هذا هو الاسم الذي خطر على لساني . قال « سنيَّة ؟ ! دي شركة » وأغلق الباب في وجهي ، ولم أجد المصعد فنزلت على الدرج ، من الطبقة السابعة ، فلما بلغت الباب لم أجد الشاب ولا البواب !

على صفحة دجلة

نشرت سنة ١٩٣٦

كان ذلك في الربيع الماضي ، في أمسية حلوة ، اقترحت فيها على صديق لي ، أن نركب زورقاً من هذه الزوارق الجميلة ، ذات الوسائد البيض المحشوّة بريش النعام ، فنجول ساعة في دجلة نشهد غروب الشمس ، ونستمتع بالتأمل في هذا النهر الذي يحمل في كل قطرة منه ذكرى خليفة أو مُغَنٍّ أو شاعر أو عاشق ، ويحفظ بين أحنائه أوفى تاريخ لأجمل عصر نعمت في ظلاله البشرية . وكان صاحب زورقنا شيخاً لطيفاً ، جميل الطلعة ، رائع المشيب ، له على شيبه سذاجة طفل ، ونظرات مَلَك ، وكان حسن الحديث ، كثير النوادر ، حاضر الجواب . فسمعنا من حديثه المعجب المطرب ، ومال بنا الحديث الى كل جميل ، حتى وقف بنا عند الكلام على دجلة ... فقال الشيخ :

أنتم لا تعرفون ما دجلة ؟ عندكم منه هذا المنظر الذي يبدو من الجسر ، وقد تنتبهون الى بناء الجسر وعوّاماته[1] التي يقوم عليها أكثر مما تنتبهون الى النهر ! بل لقد تشغلكم عن هذا وذاك هذه السيارات التي تركب متنه بثقلها وأهوالها وأحمالها ، فيستجير منها الجسر ويئنّ ، ويضطرب ويَمِيد ، فلا تحفل أنينه ولا تبالي اضطرابه ، ولا ترحمه ساعة من ليل أو نهار .

ـ قال صديقي : لقد أنشىء الجسر لتمر عليه المَهَا الفاتنات ، لا لتركبه هذه السيارات ...

---

(١) كان يومئذ على عوامات لم تكن انشئت هذه الجسور الثابتة .

ـ قال الشيخ : أما أنا فاني أرى في النهر عالماً : أرى فيه دنيا واسعة ، لا تدرون بهـا يا سكّان القصور ، وقطّان البر . أرى فيه النهر الذي يستيقظ مع السحر ، ليستقبل أول وفد من خيـوط النور ، فيبسم له وترقص في استقباله أمواجه الصغيرة العابثة ، والنهر الذي تلتهب أمواهه في أشعة الهواجر من تموز وآب ، والنهر الذي يسكر من ريق القمـر الذي يرتشفه في ليالي الصيف ـ لكِ الله يا ليالي بغداد ! ـ فيشبه فتاة صغيرة تترنّح نشوى ، والنهر الذي يحكي المقبرة الموحشة ، حين يمر في ليالي الشتاء المظلمة ، أسود كالحاً مرعباً ، والنهر الذي ينقلب معرض غرام حين تسرح فيه زوارق المحبين من أهـل بغداد ، مدينة الجمـال والجلال ، والنهر الذي ينقلب وحشاً كاسراً كاشراً عن أنيـابه ، ويغدو (نمراً[1]) فتاكاً ، حين يفيض الزبد على شـدقيه ، ويفتح فمه المهول ليبتلع بغداد وأهلها ويقذف بهذه الأطنان من الحديد التي تثبت الجسر قذف الصبي بكرته .

هذا هو دجلة الذي أراه أجلّ من البحر ، وما البحر ؟ ما ذلك الملح الأجاج من هذا العذب الفرات ؟ أين البحر الذي تصطخب أمواجه وهو في مكانه ، كالطفل الذي يخبط الأرض برجليه من العجز ، من هذا النهر الذي يجري في سكون ، يجري دائماً وأبداً ؟ آه متى بدأ هـذا النهر سيره ، والى أين يمشي ؟ أما لطوافه نهاية ، أما لمسيره غاية ؟ والله يا بني لقد فكرت في ذلك أكثر من ألف مرة . ان هـذا لعجيب ! فما البحر ؟ البحر الذي يضطجع على رمال الساحل مثل حوت ميت قد جرفته الأمواج ، وأين هو من دجلة الذي يجول في الأرض كسائح عالم ، أو عاشق هائم ، يسير بين القصور ، ثم يتنزه وسط الحدائق ، ثم يمر على بساتين النخيل .

فقاطعه صديقي صـائحاً : النخيل النخيل ... ألم تسمع مـا قال المعري :

---

(١) اسم دجلة بالانكليزية تايكرس أي النمر .

وردنا مـاء دجلة خير ماء   وزرنا أشرف الشجر النخيلا

ـ قال الشيخ : اِي والله ، هو والله أشرف الشجر . لو رأيت ظلال النخيل في دجلة الساكن الذي يبدو عند الغروب كأنه المرآة المجلوّة ! يا لدجلة ! ماذا في نفسه من ذكريات ؟ لقـد كان أمس يمشي في ظلال الايوان المشمخر ، ثم عاد اليوم يمشي على أطلاله الموحشة . ولقد كان يبصر قصر المتوكل العظيم في سـرّ من رأى ، فرجع لا يرى الا أنقاضاً خالية فوق أنقاض ... له الله كم يذكر وكم يتألم !

ـ فقال صديقي : آه لو كان دجلة شاعراً ...

ـ قلت : أفليس على طرفي دجلة شعراء ؟ فكم ديواناً نظم في دجلة ؟ أما لو كان دجلة جارياً في أرض الفرنسيين أو الانكليز ، اذن لملؤوا به الدنيـا شعراً .

ـ قال : هذا صحيح ، انّا لا نعرف مقـدار ما نملك . انه لم يبق حادثة في تاريخ فرنسا أو انكلترا ، ولا بقعة في أرضهما الا نظم فيهـا الشعراء ، وألف القصصيون ، ونحن نملك دجلة والنيل ولبنان ودمشق، وعندنا تاريخ ثلاثة عشرقرنا ، يفيض بالبطولة والعظمة والمآسي والمباهج ، فماذا وصفنا وماذا ألّفنا ؟ لا شيء يذكر !

فتألمت وحزّت في نفسي هـذه الحقيقة ، فأحببت أن أبدل طريق الحديث ، فقلت للشيخ :

ـ ألا تخبرنا ما أمتع ذكرياتك في هذا النهر ؟

فاهتز الشيخ وقال :

ـ تحب أن أحـدثك عن أمتع ذكرياتي ؟ آه ... ماذا أذكر لك ؟ لقد قضيت سبعين سنة من حياتي أروح وأغدو في هذا النهر ، منذ كان

عمري •• منذ كان •• لقد كنت دون العاشرة ، حينما جربت أن أمسك المجداف بيـدي الصغيرة ، فكان أبي يشجعني ويستثير حماستي ، ولم أخرج بعد ذلك من النهر • لقـد شهدت فيه الخريف والربيع والصيف والشتاء ، وأيام الصحو وليالي المطر ، ورأيت كثيراً : حكومات مختلفات وثورات وحروباً ، وركب في زورقي آلاف مؤلفة من النـاس ، فرأيت الغني والفقير ، واليائس الذي يفرّ بآلامه الى حضن النهر يلجأ اليه في ضيقه ، ويذيب أمله في جماله ، والعـاشق الذي يبتغي الخلوة بمحبوبه بين السماء والماء • ورأيت أشرافاً ومجرمين وكبـاراً وصغاراً ، وطربت وحـزنت ، واستقبلت أولاداً وأحفـاداً ، وودّعت راحلـين الى حيث لا يعودون ••• فعمّ أحدثك ؟ وماذا أذكر لك ؟

وسكت الشيخ يفكر ، ثم صـاح وقد علت وجهه ومضة ، خطف نورها على جبينه المجعّد قال :

لقد عرفت ، لقد عرفت ••• اني مهما رأيت ومهما شـاهدت فلن أنسى حادثة هي أعمق في نفسي من كل ما مرّ عليّ من حادثات الليالي ، انها أمتع ذكرياتي •••

لقد كانت ليلة من ليالي الخريف ، وقد بكّر البرد فاعتزل النـاس النهر ، ولم يبق لنا من عمل ، فملت بزورقي فانزويت حيال ذلك القصر أتقي زمهرير الليل • ألا ترى الى هذا البناء الأحمر ؟

ـ قلت : البرلمان ؟

ـ قال : لقد كان فيه يومئذ مولانا الملك فيصل رحمه الله ، وأسكنه فسيح جنـانه ، فوقفت زورقي أنتظـر رزق الله حتى انتصف الليـل ولم يجيء أحـد ، فتسرب الملل الى نفسي فانطلقت أغني ••• واذا أنا بشبّاك يفتح فوق رأسي ويبرز منه رأس ، فسكتّ وتأملتـه فاذا هو رأس رجل مهيب قد عـدا طور الشباب ، فانتظرت أن يؤنبني على أن

أزعجته عن منامه بغنائي ، وهل يليق بمثلي أن يغني تحت شبابيك الملك بعد نصف الليل ...

ولكنه لم يعتب ولم يَلُمْ وانما قال لي بلهجة حلوة :

ـ مساء الخير يا عمّ !

ـ قلت : مسّاك الله بالخير يا بني . لا تعتب علي ، لن أغني بعد الآن . لقد كانت خطيئة . من الملل ، ماذا أعمل يا بني دعنها لله ...

ـ قال : لا . أبداً . بالعكس : لقد سررتني . اني مصاب بالأرق .

ـ فضحكت وقلت : أنا والله كذلك ولكني شيخ كبير والشيخ لا ينام . أما أنت فلا تزال شاباً .

ـ قال : ولكنها الهموم ... هموم الحياة .

ـ قلت : وماذا تشتغل أنت هنا ؟

ـ قال : خادم . خادم لكل الناس ، وعندي عيال ...

ـ قلت : لعلك محتاج الى مال ؟ لا تفكر يا بني . الرزق مقسوم الذي لك سيأتيك .

ـ قال : ولكن ... آه صحيح ! كله قسم ... الحمد لله .

واحسست كأن في صوته نغمة حزن أليمة ، ففهمت أنه محتاج وأخذتني الشفقة عليه ، وانتويت والله يا بني مساعدته ، (والبؤس يقرب بين الناس) فتلمّست كيسي وجعلت أعد فلوسي في الظلام ، فاذا أنا أملك ستة وتسعين فلساً .

ـ قلت : هيه ؟ ما اسمك ؟

ـ قال : لك أن تدعوني عبد الله .

ـ قلت : يا عبد الله ، نحن اخوان في الاسلام ، فلا تخجل مني .

خذ . هذه خمسون فلساً ، أنفقها على عيالك الى أن يفرج الله وأنا آخذ منك عندما أحتاج . لا تحمل هماً . الرزق على الله .

فمد يده فأخذها ولم يقل شيئاً ، ولكني رأيت الدمع ... إي والله رأيت الدمع يترقرق في مآقيه .

* * *

وانعقدت الصداقة بيننا وتوثقت ، فكان كلما أرق ناداني ، فأخرج رأسه من الشباك ، وطفقنا نتحدث ، فأبثه أحزاني ، وأنفض اليه وفاضي ، ويبثني ويشكو الي . ورأيته قد يسر الله عليه ، فكان يعطيني الدينار والخمسة والعشرة ، ثم يحتاج فيأخذ مني ، ولكني لم أكن أملك الا عشرات من الفلوس فأدفعها اليه ، فيأخذها باسماً .

وكنت مرة أناديه ، فما راعني الا شرطي مخيف الطلعة ، عابس باسر ، يقبل عليّ وشواربه ترقص من الغضب ، وصوته يغلب صوت الزورق البخاري الذي يحمله ، قال :

ــ أتصرخ أمام قصر الملك أيها الوغد ! اذهب معي حتى أريك .

ــ قلت : الى أين ؟

ــ قال : الى دائرة الشرطة .

ــ قلت : أنا في عرضك . أنا في جوارك . عمري ثمانون وما دخلت دائرة حكومة ، أفأدخل الشرطة مثل المجرمين بعد هذه الشيبة ؟

ــ قال : اخرس (زمال[1]) امشِ معي بلا كلام فارغ .

وجذبني ، فجعلت أبكي ولم أجرؤ على نداء عبد الله كيلا يطرد من عمله بسببي ، فأكون أنا الجاني عليه ، ولكنه سمعني وفتح شبّاكه ، فلما رأيته خفت عليه ، فجعلت أغمز بعيني وأشير اليه أن يدخل فلا يفهم ، فقلت له : أدخل .

---

(1) الزمال الحمار في عامية العراق والزاملة في اللغة الدابّة .

فانتبه الشرطي وقال : من هو الذي تخاطبه ؟ قلت : لا أحد قال : والله لتقولن ، أو لأفعلن بك الأفاعيل فخشيته والله على نفسي ، فقلت : أكلّم عبد الله خادم القصر .

فابتسم ابتسامة منكرة ، ثم حرّق الأرّم عليّ وصرخ بي :

ـ لقد عرفت ، آه أيها اللص ! انكما تسرقان من القصر . سأريك أنت وهذا الخادم الخائن ما جزاء من يسرق مولانا الملك . ورفعت رأسي فوجدته في الشباك ، فهمست به أن أدخل ، ادخل يا مغفل .

فانتبه الشرطي ، ورفع رأسه . فلما رأى عبد الله بهت حتى صارت عيناه في رأسه ، وفتح فمه من الدهشة ، ثم رفع يده بالتحية العسكرية بعنف وشدة حتى مال به الزورق ، ووقف ينتظر .

ـ فقال له : ماذا تريدون من صديقي : دعه واذهب .

فعاد الى التحية ، وأقبل عليّ يعتذر ويقبل يدي ويسألني العفو عنه .

ـ فقلت له وقد تأثرت لمشهد تذلله : اذهب يا بني اذهب ، الله يسامحك !

فذهب المسكين وهو لا يصدق بالنجاة ، ووقفت حائراً لا أفهم من ذلك شيئاً حتى أخرج صديقي رأسه ، فقلت له :

ـ ايش هذا يا عبدالله ؟ (ايشْ لون) صرفته ؟ لقد خاف منك كأنك الملك .

ـ قال : هذا من فضل الله .

ـ قلت : ولكنه يريد أن يسوقك الى السجن اني أخشى عليك .

ـ قال : لا . لا تخف ؟

وعدنا نتسامر ...

* * *

وكنت يوماً أسير في شارع الرشيد ، واذا أنا بصديقي عبد الله يسير وحده ، ففرحت بلقـائه وهرعت اليه فحييته وسألته الى أين يمشي ، فقال بأنه يريد الباب الشرقي • قلت : ولم تمشي ؟ اركب (باصاً) • اذا لم يكن معك فلوس ، فخذ مني ، معي بحمد الله •

فضحك وقال لي اني أريد الرياضة • ولقد كانت معي سيارة أسوقها بنفسي ، فأصابها عطل عند (رأس القرية) فتركتها وسرت •

ـ قلت : ألا تخاف أن يسرقها أحد ؟

ـ قال : لا • ان الشعب يحبني كما أحبه •

اي والله ، لقـد كان الشعب يحبه ، وكيف لا يحبه وقد أنشـأ له ملكاً ، وأقام له دولة ، وجعل له في الممالك المستقلة ذكراً ، رحمه الله • رحمه الله •

ـ قلنا : ذلك هو الملك فيصل •

ـ قال : وعمن أحدثكم ! لقد كان الملك نفسه ، ولكني ـ لغباوتي وغلظ قلبي ـ لم أعرفه • أو هل سمعتم بملك يكون مع مثلي فلا يشعره أنه فوقه ، وانما يستدين منه فلساً ويعطيه ديناراً ، ثم يكون مع الملوك فيشعرون من أنفسهم أنه فوقهم ؟

رحمه الله ، رحمه الله !

سرت معه في الشارع ، فما راعنـا الا الناس ، ينظرون اليه بعيون تفيض بالحب والاكبار ، ثم يحيونه ويفتحون له الطريق ويمشون خلفه وينظرون الي فيعجبون مني ، اذ أتكىء على ساعد الملك ، انه يسندني ويعينني لأني شيخ كبير لا أطيق المشي ••• فلما بلغنا البـاب الشرقي رأيت الجند قد وقفوا لتحيته وصاح صائحهم بسلام الملك ، هنالك هوت رجلاي فلم تطيقا حملي •••

ـ قلنا : ثم ماذا ؟

ـ قال : لقـد بقي يحدثني من شباكه ، ولكني لم أنتفع من نفسي بحديث ، اني عرفت أنه الملك !

واغرورقت عينا الشيخ بالدموع ، فترك الزورق يمشي مع المـاء ، ساكناً هـادئاً ، وكان الليل قد غمر النهر والشاطئين بسواده الفاحم ، وطفق يقول همساً ، كأنما يناجي نفسه :

ـ رحمه الله ، رحمه الله ، لقد كان رجلا !

جبل النار

نشرت سنة ١٩٣٨

لما سمع الساعة تطن انتبه لهـا ، فلما أيقن أنها (الثانية) وثب من الفراش ، ومشى الى الشرفة فأطل منهـا ، فمس وجهـه نسيم السحر الناعش ، فجعل ينشق منه ويعب عبّاً ويملأ رئتيه ، حتى اذا روي منه نظر الى المدينة فرآهـا نائمة ، لا يسمع في رحابهـا صوت ، ولا يلمح خلالها نور ، فاطمأن الى هذا السكون ، وأدنى منه كرسياً فجلس عليه متلفعاً بعباءته ... وجعل يحدّق في الطريق كأنه يرقب طارقاً يطـرقه ، حتى طال عليه الانتظار وخيل اليـه أن الفجر قد سدت عليه المسالك ، أو حيل بينه وبين الطلوع ، ورأى الليل ثقيلاً ، فأحس كأنه منيخ عليه بثقله ، وزاده ضيقاً أنه جالس في الظلام لا يستطيع أن يوقد السـراج لئلا يوقظ أهله فيفسدوا عليه الأمر الذي انتواه واعتزمه وهجر لأجله فراشه وجلس في شرفته يرقب رفيقه الذي يسعده[1] على تنفيذه ، ولم يكن (في الواقع) نائماً ، ولم يخالط النوم هذه الليلة جفنيه ، وانما اضطجع ساعة من أول الليـل يوهم أهله أنه نائم ، فلما اطمأن الى أنهم هجعوا نهض فأعد ثيابه ، وهيأ عدته ، ثم استلقى على الفراش يحلم بالحياة التي يقدم عليها ، ويفكر فيها حتى لقد أصابه من السهر والفكر صداع أليم لم يكن له بمثله عهد . وكان (عرفان) أصغر أبناء أبيه الغني المترف ، وأدناهم الى قلبه ، وكان لأمه عطف عليه ليس لأحـد من اخوته الكبار مثله . فكان الصبي المدلل المحبوب ، الذي اذا سأل أعطي ، واذا أمـر أطيـع ، واذا أبى شيئاً لم يكن ، واذا أراد شيئـاً كان ، واذا اشتكى

---

(١) اي يساعده .

اضطربت الدار ، وأسرع الأقرباء ، ودعي الأطباء ... وكان عرفان (على هذا) ذكياً مهذباً متقدماً في مدرسته ، مجلياً بين أقرانه ، وكان في الرابعة عشرة ولكن جسمه القوي جسم فتى أناف على السابعة عشرة ، وكان ديّناً صيّناً نشأ على طاعة الله ، وأقام الصلاة وآتى الصدقة ، وما تعمد منكراً من الفعل ، ولا زوراً من القول ، فكان عرفان بهذه المزايا زهرة اللِدات ، وزينة الفتيان ...

أما الفتى الذي ينتظره عرفان ، فهو رفيقه مختار . وهو قروي في السابعة عشرة من عمره ، أسمر شديد السمرة ولكنه جميل الصورة ، دقيق الملامح جذاب ، وكان شجاعاً صاحب دين وشرف عرفه عرفان في المدرسة طالباً ممتازاً ، فلم يلبث أن جعله رفيقه وصفيّه ، وخليله المصطفى ، وصديقه المختار .

* * *

لبث منتظراً على الشرفة حتى بدت طلائع الفجر فأدركه اليأس ، وخامر نفسه ألم الخيبة ، فأزمع أن يمضي وحده ، وألقى على الطريق نظرة الآيس فاذا هو بمختار ، مختار بعينه ... فكاد يطير من الفرح ، وأشار اليه أن ينتظر وحمل عدّته ومشى على رؤوس أصابعه ، يبتدر الباب ، فلما مر باخوته وهم نيام ، أدركته العاطفة فخاف أن يغلب عليه حبه لهم وتعلقه بأبويه ، فحبس العاطفة في أعماق نفسه واستودعهم الله ... الى ... الى غير ما رجعة ، فما يعلم أحد الا الله ماذا يكون نصيبه من هذا السفر . ومضى هو ورفيقه يجتازان أزِقّة البلدة حذرين يترقبان لا ينبسان بكلمة ، حتى اذا صارا الى الفضاء وأمنا بعض الأمن ، قال مختار :

— ماذا تظن أباك فاعلاً اذا هو تيقظ فلم يجدك في الدار ؟

فلم يجب عرفان وانما كان يصغي الى صوت المؤذن يمشي في سكون

الليل ، مشي الغناء في الأعضاء ، فترنح منه الأشجار طرباً ، ويؤخذ به الكون مفتوناً ••• ويردد ما يقول المؤذن بصوت خافت ، ولكنه مملوء بالايمان والثقة بالله : حيّ على الصلاة ! حيّ على الفلاح ! الله أكبر ! الله أكبر ! فأصغى اليه مختار وجعل يردد الحوقلة والتكبير ••• فلما انتهى الأذان وشمل الكون السكون كرة أخرى ، مالا الى رحبة قريبة فوقفا يصليان وكانا (كما وصفت) شابين ديّنين تقيّين فنسيا حين صليا الدنيا بما فيها • ولما انفتلا من الصلاة سارا صامتين يذكران الله سراً ، وكأن هذا الشعور السامي الذي ملكهما ، وهذه المراقبة التي أقبل عليها قلباهما ، قد أحالتهما من طالبين صغيرين الى مسلمين من المسلمين الأولين ، الذين عرفوا الله وأدركوا غاية الحياة ، فصاروا سعداء ان عاشوا لأنهم يعيشون لهذه الغاية وسعداء ان ماتوا لأنهم يموتون في سبيل هذه الغاية ••• وأي رجل يذوق حلاوة الايمان ثم لا يرى نفسه أكبر من الدنيا ، وما الدنيا عند الله الا جناح بعوضة ؟ أفليس أكبر من جناح بعوضة ؟ ومن يعرف حلاوة الايمان ثم يتعجب من المسلمين الأولين حين خرجوا ليفتحوا الدنيا ، بسيوف ملفوفة بالخرق ، ويقابلوا ملوك الأرض بطائفة من البدو ••• أو يعجب من هذه الفئة من أهل فلسطين حين تقاتل[1] أعظم دولة في التاريخ الحديث ، ولو اجتمع أهل فلسطين كلهم بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ما ملأوا حياً واحداً من عاصمتها ؟ لا • لا تعجبوا من ذلك ، بل اعجبوا من مؤمن لا يرى نفسه أكبر من أكبر دولة في الدنيا وهو جندي في دولة الله ، ودولة الله أكبر من كل دولة ، لا اله الا هو ، له الملك وله الأمر واليه ترجعون !

***

وابتعدا عن البلدة وهما صامتان لا يتكلمان ، وعرفان يفكر في أبويه اللذين خلفهما يتجرعان الغصص لفقده ، ثم يذكر الواجب عليه فيطمئن الى أنه أحسن صنعاً حين خرج مجاهداً في سبيل الله ، ولكن عاطفته

(١) اي في سنة ١٩٣٦

لا تهدأ ولا تقر ، فيحاول أن يتسلى بهذه المناظر الفتانة التي تبدو له في هذه الغداة الباكرة في غاية الجمال ، فلا يسليه شيء فيندفع يغني بصوت خافت حزين هذه الأغنية المعروفة ...

« يا والديَّ سيصدع موتي فؤاديكما ، وستسكبان الدموع غزاراً ، ولكن تراب قبري سيجف ، فتجف معه دموعكما ويلتئم صدع قلبيكما ... »

« وأنت يا أختي .. ستنسيك الأيام ذكرى أخيك الشهيد ، وستمحى سطور الحزن من صفحة نفسك ...

وأنت يا جدي الشيخ ، ستنسى حفيدك الفقيد ... »

« ولكن أخي لن ينساني ... »

« أنت يا أخي ستظل ذكراي بين عينيك حتى تثأر لي من قاتلي ، وتنضح قبري الجاف بدم القاتل » .

« وأنت يا أخي الأصغر ... لن تنساني حتى تضجع الى جانبي » .

فلا يختم أغنيته حتى تلعب هذه الخاتمة الشجية التي تحط على النغم « الأصبهاني » بقلب مختار فتثيره وتهزه فيقول لعرفان :

ـ ولكنك جرَّعت أبويك كأس الآلام ، فشرباها منذ اليوم حتى الثمالة ...

فيجيب عرفان حزيناً واهياً :

ـ أعرف ذلك .

وتكون فترة يصمتان فيها فلا يسمع الا وقع أقدامهما العجلة على حجارة الطريق الوعر المهجور الذي تخيَّراه . ثم يقول عرفان :

« أعرف أني جرعت أبي كأس الأحزان ، ولكن ماذا أصنع ؟ أليس لله عليَّ حق أكبر من حق أبي عليَّ ؟ أنسيت يا مختار ماذا قال مدرِّس الدين حين شرح لنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم « من لم يغزُ

ولم يجهزّ غازياً ، ولم يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقـارعة قبل يوم القيامة » والحديث الصحيح « لا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم » والحديث الآخر : « مَثَلُ المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد » .

ألم يقل لنا ان الجهاد في هذا العصر أفضل منه في العصور الأولى ، لأنهم كانوا يجاهدون ليضموا اليهم اخواناً وبلاداً ونحن نجاهد لندفع الموت عن أنفسنا وبلادنا ، والجهـاد في فلسطين أفضل منه في البـلاد الأخرى ، لأنها لم تـُمنَ بلدة بمثل ما منيت به فلسطين ، حين دخـل عليها اللصّان ، فلبس أحـدهما جبة الحـاكم فقضى وهو اللص ... وارتدى الثاني رداء التاجر فاشترى... وهو السارق ... وكانخلاصة الأمر كله ، أن تقول للمالك : قم فاخرج من دارك لنعطيها لهذا السارق ، أو ... أو نهدم دارك ، ونقطع رأسك .

ـ رحمه الله ، هذا ما قاله بالحرف . لقد كان ...

ـ لقد كان ؟ أتعني أنه مات ؟

ـ لا . ولكن سُفح دمه على أرض الحرم الأقدس ؟

ـ ؟ ؟

ـ لقد شنقوه لأنه حمل مسدساً .

ـ أو لا يرون (أولئك) يحملون المسدسات والمسبّعات جهـاراً نهاراً ، فلم لا يشنقونهم ؟

ـ (أولئك) من الشركاء ولكن مالنـا تتألم ؟ من كان مع الله فلا يحزن ، أتَشُكُّ في وعد الله ؟

ـ لا والله مـا شككت ، ولكني أفكر في أستـاذي ، رحمه الله ، أيشنق عالم جليل فلا يتحرك له أحـد ؟ وهؤلاء الملوك المسلمون الذين

يحمـلون راية الدين ، ويملكون الحول والطول ، وتسير بأمرتهـم الجيوش ••• أما بين أضلعهم قلوب تعرف الايمان فتحركهم الى نصرة المظلومين ؟

ــ ولمه ؟ وهل ضعفنا أو جَبُنّا ؟ ان هذه البلاد يا صديقي متعودة ، متعودة الحرب • ألم تردّ جيوش أوربة كلهـا في يوم من الأيام ؟ فماذا ينقص الأبناء عن الآباء ؟ أنسينا ؟ انسينا ذكرتنا بتاريخنا هذه الجلاميد وهذه الأصلاد ، وذكرتنا اجنادين وذكرتنا حطين ، واسم صلاح الدين ؟ ان الأرحام التي ولدت صلاح الدين لا تزال تحمل وتضع ، وأن الله الذي نصر صلاح الدين هو الله ، « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » فلتدافع عن (أولئك) الدولة صاحبة الأساطيل ، أو فليدافع عنهم الانس والجن ، ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والله أكبر !

ــ ولكني أخشى عليك يا عرفان • أنت ابن الترف والنعيم ، نشأت تتقلب في ثياب الحرير ، وتنام على ريش النعام ، فكيف تنـام غداً على الحجر والمـدر ، وتصبر على الجوع والعطش ، وتحمل لذع الشمس ووقع الرصاص وحر السيوف ، انهـا الحرب يا أخي ، انهـا الحرب ، ليست جولة كشفية ، الى اليمين در ، الى الأمام سر ، ثم تعود الى بيتك فتجد حمّامَكَ مسخّناً ، وطعامك مهيئاً ، وفراشك موطأً • انها الحرب ليست هزلاً ولا لعباً ، أفتستطيع أن تمضي يومك في الكرّ والفر ، بين القنابل المتفجرة ، والرصاص المتساقط كوابل المطر ، ثم تقوم الليل كله بلا طعام ولا منام ؟

ــ لست أدري يا مختار ، وما جربت ذلك ولكنّ الذي أدريه هو أني خرجت مجـاهداً في سبيل الله • ألم يقل لنـا مدرس الدين ، ذلك الشهيد المرحوم : اذا دخل العدو أرضاً للمسلمين صار الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة كفرض الصلاة ؟•• أنسيت الحديث الذي علمنا

ايّاه « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميَّة ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ونحن خرجنا لاعلاء كلمة الله ، لا لدنيا ولا لمال ولا لجاه ولا دفاعاً عن حسب ولا أرض ولا وطن ، فاذا متنا فنحن الشهداء ، أنسيت الحديث الآخر ؟ اني لا أزال أحفظه ، رحم الله أستاذنا .

ــ أي حديث ؟

قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الارض من شيء ، الا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لِمَا يرى من الكرامة » .

ــ لا لم أنسه ، ليتنا نموت شهداء ، اللهم اكتب لنا الشهادة .

وملكهما حماس طاغ ، فأسرعا وهما ينشدان أنشودة الموت التي يحفظها المجاهدون كلهم ، ويلقونها بنغمة تهتز لها أوتار القلوب كلها ... « أيها العصافير ! » .

« طيري الى منازلنا وبلّغي الأمهات والأخوات أننا متنا في سبيل الله ، ومن أجل فلسطين » .

« قولي لهن : أجسادنا لن تسكن اللحود الضيقة ، ولن تحويها الأرض المظلمة ، ولكنها ستسكن بطون القشاعم والنسور المحلقة في شعاع الشمس ، وبطون الذئاب الشاردة في الفضاء الأرحب » .

« أما أرواحنا فسترقى الى جنان الخلد » .

« أما أسماؤنا فستكتب في تاريخ البطولة بأحرف من النور » .

« أيتها العصافير ، طيري الى منازلنا فبلغي الأمهات والأخوات

ارادتنا الأخيرة : هي أن يهيئن أطفالنا لخاتمة خيِّرة كخاتمتنا » •

* * *

سارا سحابة نهارهما فبلغا قرية مختار في الساعة التي يعود فيها الرعاة من الجبال ، وتزدحم فيها النسوة على الينبوع ، وكان التعب والجوع قد هدّا عرفان هدّاً ، فاتجه به الى أكبر دار في القرية ، وكانت تلك دار مختار ، فجاز به (بوّابة) من الحجر الى ساحة واسعة فيها فرسان كريمان مرتبطان ، وثلاثة من الابل ، وفي وسطها تل من العلف • فمشى به خلالها حتى انتهى الى باب الدار فقرعه ، فخرج صبي في التاسعة عرف عرفان منذ نظر اليه أنه أخو مختار ، فقد كانا متشابهين حتى ليصعب على المرء أن يفرق بينهما لولا السن ، فصاح به مختار :

ــ أين أبوك يا نوري ؟

قال : لقد ذهب في هذا الصباح الى الجبل • لقد علم الثائرون بأن حملة كبيرة لم يروا مثلها ، ستتوجه تلقاء الجبل •

فلما سمع ذلك عرفان نسي تعبه ، واستعاد نشاطه وأحسّ بقلبه يرقص في صدره فرحا بالمعركة ، وصاح بمختار :

ــ هلمّ بنا ، أسرع ، أين البنادق ؟

ــ حاضرة ! لقد اشتريت لك خير أنواع البنادق وأعددت لك مائتي رصاصة ، والخيل مربوطة في الساحة ، اذهب يا نوري فَمُرْ حمدان أن يعدّ الخيل وهات البنادق •

فوثب الصبي ليذهب ، ولكن امرأة في الأربعين من عمرها ، سافرة على طريقة الفلاحين ، هذا السفور المحتشم الذي نرجو أن نستبدله بهذ التبرج الفضاح الذي نسميه (هنا) حجابا ••• استوقفته هذه المرأة وأقبلت على ابنها تقول :

ـ أدخل أولاً

فأطاع مختار ودخل معه عرفان ، ينظر اليها وهي تعانقه وقد انفجرت بالبكاء . قال :

ـ أتبكين يا أماه ؟

ـ لا لا . ولكني لا أدري هل أراك من بعد أو لا ؟

ـ ولكن ما بالك يا أماه ؟

ـ لا شيء ، لا شيء ، استودعك الله ... وهـذا الذي معـك ، من هو ؟

ـ هذا صديقي عرفان ابن الوجيه الكبير ل ...

ـ آه ، وأنت أيضاً يا حبيبي ؟ أهلا وسهلاً ، شرفتنا يا بني ، اللهم احفظ وسلّم .

ـ أشكرك يا خالة وأستودعك الله .

ـ ماذا ؟ أتذهبون ؟ لا والله لقد مشيتم النهـار بطوله ، أفمجنونة أنا حتى أدعكم تصِلونه بالليل ؟ لا والله . بل تنامون هنـا وتذهبون ان شاء الله في الصباح مع من بقي من رجال القرية .

ـ ولكن يا سيدتي

ـ لا والله ، لا أدعكم تقتلون أنفسكم ، لو كانت أمك هنا أكانت ترضى عن ذهابك الآن ؟ أنا مثل أمك يا حبيبي ان رفيقَ ابني هو ابني ، ثم ان المجاهدين بل المسلمين كلهم أسرة واحدة ...

ودخلت فتاة صغيرة أصغر من نوري وبها من أخويها مشابه ، غير أنها أدنى الى البياض ، وكانت ملتفة بمنديل أحمر ، يزين أطرافه طراز

أصفر من القصب ، فلما رأت الفتى وقفت وأحجمت ، فصاحت بها أمها :

ــ ادخلي يا بنتي ، هذا أخوك عرفان ، ذاهب الى الجهاد ، رحّبي به ثم اذهبي فأعدي الطعام ، هيا حالاً . واتنما فانزعا ثيابكما واغسلا وجهيكما وأيديكما . قم يا نوري فأعد الماء وصب عليهما ، ثم اذهب فساعد أختك . هيا يا بنت أسرعي ، انهما جائعان ...

* * *

نال التعب والسير الطويل وسهر الليلة الماضية من عرفان ، فلم يكد يضع رأسه على الوسادة حتى انحدر الى قرارة نوم عميق ، لم يفق منه الا سحراً حينما أيقظه مختار ليمشي الى الجبل ، فنهض مسرعاً فتوضأ وصلى الصبح ، ثم لبس الثياب التي دفعها اليه مختار ، وأدار العقال على رأسه ، ثم حمل بندقيته واستوى على ظهر فرسه ، ليمشي الى الجهاد ، وهو يحس لفرط سروره أن الدنيا على رحبها أضيق من أن تسعه ...

كان يظن أن الحرب من السهولة بحيث تكون كما قرأ في (قصة عنتر) فكان يتخيل أبداً كيف يبرز بعد ساعة الى الميدان وينادي أنا عرفان ... فيصول فيه ويجول وينازل الفحول ، ثم يهجم على الآلاف المؤلفة ، فيقتل الرجل ثم يحمله فيضرب به الآخر ، ويطعن الطعنة فتصرع الفارس وفرسه ، ويضرب الضربة فتخترق الهامة وتقطع الدرع ، ثم تنزل الى السرج فتقده هو والفرس قداً ...

خرج الرجال من القرية وهم قريب من مائة ، فيهم عشرون فارساً ، فسلكوا الشعاب الوعرة لئلا يلقوا على الطريق المطروق ما يعوقهم عن غايتهم وكانت وجهتهم جبل النار ، فانطلقوا ينشدون أنشودة النار بصوت كانت تضطرب له الجلاميد ، وتتوارى منه الأودية الرهيبة فزعا ... الأنشودة التي معناها :

« يا جبل النـــار ••• »

« هل درى من سمّاك في أول الزمان جبل النار أنها ستخرج منك النار التي تزهق البغي والظلم والاستعمار ؟ يا جبل النار •••»

هل درى أن هـــذه الفئة من أبطالك ستأكل جيـــوش الدولة ذات الأساطيل ، كما تأكل التلّ من الحطب شعلة واحدة من النار ؟ يا جبل النـــار ••• »

« هل دريت أنت يا جبل النار أن الأجيال الآتية ستتخذ منك حرماً للحرية مقدساً ، فتكون الشارة الحمراء والمنـــار ، للسارِينَ في طريق الجهاد يا جبل النار » •

« يا جبل النـــار ، صخورك الجحيم المتوقد في شعاع الشمس ، ولكن الله الذي وطأ لنا ذراها وسهل لنا صعابها ، وأسكننا منها أوكار النسور ، وزبى السباع ، هو الذيأحال نارها برداً علينا وسلاماً ، فأنت جحيم الأعداء وأنت جنة لنـــا ، فهل اجتمعت الا فيك الجنة والنـــار ؟ يا جبل النـــار ••• »

« فيا جبل النار ، ثرْ واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتَنسِفْه رياح الشرق نحو الغرب ، وليحرق دور الظلم ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحتْ في البحار يا جبل النار ••• »

« يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار ، نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمنذا يمد يده الى الجحيم ليأخذ منه جمرة ؟••• أنت اليوم حطّين ، وكلنـــا صـــلاح الدين ••• يا جبل النار ! » •

كان عرفان ينشد الأنشودة وهو رافع رأسه زهواً ، يظن أنه أوتي الخلافة ، أو أنه غدا خـــالداً أو قتيبة أو طارقاً ••• كان وهو في داره

يخشى أن تصيبه شوكة ، ويألم ان نفحته نسمة باردة ، ويفزع من ذكر المرض ، فما باله الآن لا يجزع من الموت بل هو يسعى اليـه ويريده ، ولا يأمل الا الشهادة في سبيل الله ؟ لقد هان عليه الأعداء وصغروا في نظره حتى لقد خالهم الذباب أو أسراب النمل ، حينما وقف القوم وراء الصخور العالية ، ونظروا الى الحملة وهي تجتاز الطريق البعيد كأنهـا خط أسود لا يبين له أول من آخر ، ولقد كان الجندي الواحد يراه في بلده أكبر في عينه من هؤلاء جميعاً .

ورأى القوم يطلقون النـار فأخرج بندقيته فأطلق منها الرصاصة الأولى فلم يصنع شيئاً ، ولكنه كبر في عين نفسه وأحسّ أنه أصبح رجلاً حقاً ومجاهداً صدقاً ، ووَدّ لو يطير الى الحملة حتى يسقط عليها ، ولكنه حين كفّ القوم ورأوا أنهم لن يصيبوا عـدواً ... وساروا في طريقهم الى الظهيرة والحملة تبدو لهم عن بعد ثم تختفي وراء الصخور كأنما كانت تسايرهم أبداً وطفقوا ينظرون اليهـا فيرونها ثابتة لا تريم مكانها ، حتى اذا أصبحت عند مفترق الطرق ، وبلغت سفوح الجبـال وأقبلت تتسلقها ، رأى القوم الزلزال تزلزله الأرض من تحتهـا فتخرج أثقالها ، وينقلب عاليها سافلها ، ويمتلىء الجو بالدخان ، وكان ذلك كله في لحظة سَمعوا على أثرها الدويّ الهائل الذي قصف في الدنيا كأشد ما عرفت الدنيا من رعود ، فعلموا أن الثوار قد وضعوا (الألغام) على طول الطريق ، وتركوا الحملة تسعى الى حتفها بظلفها فتحطمت تحطيما ، وعلموا أن المعـركة قد انتهت وكفى الله المؤمنين القتال[1] فارتدوا الى القرية ، أما عرفان فكانت تتقاذفه عاطفتان ، الفرح بالنصر المؤزّر والندم

* * *

(۱) رواية صدق عن شاهد عيـان .

على أنه بات في القرية فلم يحضر المعركة ولم تكتب له الشهادة في سبيل الله فيدخل الجنة .

بلغ عرفان وأصحابه القرية عند المساء ، فاذا كل شيء قد تبدل ، فلا الدنيا بالدنيا ، ولا الناس بالناس ، واذا القرية قد هدمت كلها ، وأحرقت سقوفها وأبوابها ونوافذها ، فتهوّس مختار وجنّ ، فعدا فرسه الى داره ولحقه عرفانوبه مثل ما به ، فاذا الدار أكوام من التراب، واذا العلف قد أحرق ، والأشجار قد قطعت ، فدار في أرجائها ينادي أخاه وأمه ، ويهيب بأخته ، فضاع صوته في ضجيج الرجال وصراخ النساء ، فمشى يفتش صامتاً ينظر في التراب ، وقد أدركه الخبال حقيقة فلم يعد يقوى على التفكير في شيء ، وسلّم أمره الى الله ، وتبعه عرفان ينظر كما ينظر ، فاذا هو يرى ويا لهول ما يرى ، نوري ذلك الصبي صاحب العينين الفاتنتين الدعجاوين ... ملقى على باب المسجد قد مزّقت حراب الأعداء جسده الأبيض الجميل ، والى جانبه أمه قد صرعتها رصاصة كسرت جمجمتها ...

فجذب مختاراً من يده حتى لا يرى ، ولكن مختاراً أحس بالأمر فنتر يده وأقبل ينظر فاذا هو يرى كل شيء . ضاع الباقي من وعيه فانحنى على أمه وأخيه يقبلهما ويمرغ وجهه بدمائهما ، ثم نهض متهافتاً فتعاون هو وعرفان على مواراتهما حتى اذا أقام فوقهما شبه قبر ، وما القرية في الحقيقة الا قبر ، وضع يده المغموسة بالدم على القبر ، وأقسم لينتقمن ... وأقسم عرفان !

وتركا أهل القرية يدفنون الموتى ، ويرفعون أوراق المصحف التي ألقيت على أرض المسجد وديست ، وغادراها تضج ببكاء الأطفال الذين ماتت أمهاتهم بالبنادق ، والأمهات اللائي قطع أبناؤهن بالحراب . وعادا مع الرجال الى جبل الحرية المنيع ينشدون أنشودة الانتقام ...

« الى جبل النار ، الى جبل النار ... »

وكان مختار (يصف) لهم بصوت يكاد يقطر منه الدم ...

« لقد غرستِ شجرة الزيتون يا أمي بيـدك ، وسقيتهـا كل يوم لتقطفي منها الغصن الذي تجعلينه على رؤوس أبنائك في موكب العرس. لقد بنيتَ الدار يا أبي بيمينك لتسْكنَ فيهـا بنيك الذين تحبهم مع زوجاتهم ، فقطع الأقوياء الشجرة ، وهدموا الدار، وقتلوا الأطفال... »

وهم يرددون اللازمة : « الى جبل النار ، الى جبل النار »

ـ « أرأيتم أخي نوري ؟ لم يعد لعينيه سبحات مقلة ظبي شرود ، ولا لصوته رنّة بلبل غرد . لقد قتلوه فها هي ذي جثته ملطخة بالوحل والدم . لقد نام الى الأبد على يد أمه التي ذبحها الأقوياء المتمدنون » .

ـ « الى جبل النار ... الى جبل النار »

ـ « أرأيتم كلام الله ، وبيت الله لقـد مزّقوا المصحف وهو كتاب الحق والنور ، وداسوه بأقدامهم[1] . لقـد استحلوا حرمة المسجد ، وهو دار السلام، وأقاموا فيه حرباً ، فماذا تنتظرون من الأقوياء المتمدنين بعد ما عبثوا بحرمة الدين وحرمة الانسانية البريئة ...؟ فالى جبـل النـار » .

ـ « الى جبل النار ... الى جبل النار »

ـ « هذه مأساة الأندلس ... ولكنّا لم ننس مأساة الأندلس بعد ، ولن ندعها تعاد أبداً لا في فلسطين ولا في اسكندرون ، ولا في بقعة من بقاع الأرض . وها نحن أولاء ذاهبون نحقق ما نقول ... »

ـ « الى جبل النار ... الى جبل النار »

---

(١) رواية مؤيدة بالصور الفوتوغرافية .

ـ « يا أمي ، يا أختي التي لا أدري أين قبرها ، اهجعوا في أمــان فكلما سفك دم جديد نبتت في القلوب بغضاء جديدة ... كلا ، ما هي بالبغضاء ! ما البغض ؟ ما العداوة ؟ ان العاطفة التي يحتويها اليوم صدر كل عربي ، بل كل مسلم ، شيء أكبر من البغض ، وأشــد من الحقد ، وأبلغ من العداء انهــا عاطفة ســوداء مبهمة ، عظيمة مخيفة تتوارثهــا القلوب ، فلا تزداد الا سواداً وعظمة ورهبة ... »

ـ « فياجبل النار ثرْ واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتَنْسِفْه رياح الشرق نحو الغرب وليحرق دور الظلم ، ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت في البحار ، يا جبل النار »

ـ « يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار . نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمنذا يمد يده الى الجحيم ليأخذ منه جمرة ...؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكلنا صــلاح الدين ، يا جبل النار »

ـ « الى جبل النار ... الى جبل النار »

هذيان مجنون

ذهبت منذ أيام أزور (المستشفى الاسلامي) الكبير ، الذي تعاونت على انشائه الجمعيات الاسلامية الأربع في دمشق (الغراء ، والهداية ، والشبان ، والتمدن[1]) ، فوجدته شيئاً عظيماً يرفع الرأس ، بناء ضخما يطل على الربوة من هنا ويشرف على سهل المزة من هناك ، قد قام حيث كانت تقوم تلك (القلاع العادية) ، فكان من تمام نعمة الله علينا به أن تخير له هذا المكان ، فأبدلنا بعمارات الموت ، وبنايات البلاء ، تلك القلاع ، هذا المستشفى ، بيت الصحة ، ودار الشفاء ...

وجعل المدير ، وهو شاب مسلم رضيُّ الخلق ، واسع الخبرة ، يدور بي في المستشفى ، ويمر بي على شعبه ، حتى اذا وصلنا الى جناح الأمراض العقلية قال لي :

ـ ان ها هنا مريضاً يلح علينا أن ندعوك اليه ، وهو لا يفتأ ينادي باسمك ويرجو أن يراك ...

قلت : ومن هو ؟ وما شأنه بي ؟

قال : هو شاب مصاب بنوع من الهستريا (الجنسية) ، وهو يزعم أنه تلميذك ، وأنه وثيق المعرفة بك

فلم أحب أن أخيب رجاءه ، وان كنت لا أدري ما أصنع له ، وانطلقت مع المدير حتى دخلت عليه ، فاذا هو شاب حديث السن ، شاحب اللون ، بادي الضعف ، شارد النظرات مسجًّى ، لا يبدو منه الا وجهه ،

---

(١) قيل ان هذا المستشفى لم ينشأ بعد .

فتأملته ••• فاذا هو قد كان تلميذاً لي ، واذا أنا أعرفه فسلمت عليه فردّ السلام ، وابتدرني فقال لي :

ـ أنت أستاذي ، واني أرتقب مجيئك •• ان لي اليك حاجة

قلت : مقضية ان كنت أقدر عليها

فظهر على وجهه خيال البشر ، ولاحت على شفتيه ظلال ابتسامة ••• وقال :

ـ لقد نعشتني وبشرتني ، ان الذي أريده منك ، هو أن تعي حديثي وتنشره في الناس ، أفلا تقدر على ذلك ؟

قلت : بلى ، أقدر ان شاء الله •••

* * *

قال : انه خبر لا يكاد يصدقه أحد ، ولكني أحلف لك أنه واقع ، واذا شككت فاسأل القرية ، أتعرف قرية (الجمالية) ؟

قلت : ما سمعت باسمها الا الآن !

قال : لقد أردت أن أبتعد عن مرابع المصطافين ومواطن الازدحام الى بلد أطلق فيه نفسي على سجيتها ، لا أقيدها بقيد عادة ولا واجب مجاملة ، فأممت بحيرة (العتيبة) ، ثم صعدت (جبل عيرام) ، حتى بلغت هذه القرية المختبئة في كنف واد عميق لا يصل البصر الى قرارته ، يجري في بطنه نهر (العامون) متحدراً هائجاً يقفز من صخرة الى صخرة ، فيكون له دويّ وخرير ، ويعلوه الزبد فتراه من خلال الأشجار ، وأنت في القرية ، كأنه البلور المذاب ، اذا كنت قد رأيت في زمانك بلوراً مذاباً ، يحمي هذا الوادي المسحور جبلان عاليان تنطح ذراهما النجم ، وقد لبست سفوحهما وحدورهما ثوباً من الشجر أخضر ، توارت خلاله هذه القرية •••

واتخذت فيها داراً سلخت فيها شهراً من شهور الصيف ، لم أعرف السعادة الا فيه ، ولم أدر حتى عِشتُه ما لذة العيش وما الاطمئنان ، فلقد كنت أغدو مع النور فأصعد في الجبل أحيي الشمس البازغة حين تشرق على الدنيا ، وأهبط الضحى الى بطن الوادي فأتخذ لي مكاناً على صخرة عالية ، أو أقعد على حافة النهر الفياض . وكنت في أكثر الأيام أضع طعامي في سلّة وأرتاد المـرابع ، فحيثما استطبت المكان أقمت . وكنت أحمل معي كتـاباً أقرأ فيه مرة ، وفي مصحف الكون أخرى ، فأمتع النظر بأعجب المشاهد وأبهى المرائي ، ثم أروح العشية الى داري ، وقد طفحت نفسي بصور الجمال ، وفاض جسمي بالعافية ...

... حتى جاء ذلك اليوم الذي صبّ في كأس حياتي العلقم !

* * *

لقد صعدت في الجبل على عـادتي حتى جاوزت حـدود القرية ، وقاربت ينبوع (البارة) ، وبلغت الغابة المهجورة التي تطيف به ، فما راعني الا الحجارة تتساقط حولي كأنهـا المنجنيق ، تنزل دراكا نزول رصاص الرشاشات ، فحرت لحظة ، ثم وليت هـارباً أعدو مـا أطقت العدو ، حتى وصلت الى صخرة فاحتميت بها ، وجعلت أنظر : ما خبر الحجارة ! فأسمع قهقهة مرعبة ... فأحسب أنهـا الجن تروعني ... ثم أرى امرأة تخرج من بين أشجار الغابة ، وتسير حذرة تتلفت ، فلما صارت قريبة مني ، رأيتها وهي لا تراني ، فاذا هي فتاة سمراء محلولة الشعر ، ذات جمال يروع النـاظر ويأسر القلب ، لهـا عينان سوداوان واسعتان ... اذا نظـرت بهما اليك أحسست بهما في الفؤاد ، وجسم ممشوق قد لوحته الشمس ، وما عليهـا الا أسمال بالية لا تكاد تستر الا الأقل منهـا ، فكأنما جسمها فيهـا البدر قد حجبته قطع من المزن الرقراق .

وقد وقفت كالغزال المذعور ، لا أقولها كما يقولها الأدباء المقلدون، بل أنا أعني ما أقول ، ولا أجد صفة هي أدنى اليها وأعلق بها ••• وجعلت تنظر حواليها ••• فلما اطمأنت ألقت حجارتها التي كانت تحملها ، وقعدت على الأرض • ونظرت اليها ، فاذا ذلك الغضب الفاتن يسقط برقعه عن وجهها ويسدل عليه نقاب من الألم ، الألم العميق الذاهل ، فازدادت به جمالا حتى لقد تخيلتها في قعدتها تلك تمثالا للجمال الحزين قد افتنَّت فيه يدا عبقريٍّ وعقله ••• فخرجت من مكاني وسرت اليها متلصصاً أسارق الخطو حتى اذا كدت أن أصل اليها وأضمها ، أحسَّتْ بي فوثبت وثبة ابتعدت بها عني ، ثم عدت تلقاء الغابة •••

••• وجعلت أرتاد هذا المكان كل يوم ، أفتش عنها وأطلبها حتى أنست بي واتصل بيننا الحديث ••• فسمعت لهجة فتاة ليست من بنات القرى ، ولا من الجاهلات ، ولكن حديثها حديث المجانين •••!

* * *

سألتها ما شأنها ، وأحببت أن أعرف خبرها ، فكانت تجيبني بكلام لا يعقل :

قالت : اني أفتش عليه ، لقد دخلت المدن ، وولجت المدارس ، وبحثت في القصور ، وطفت الملاهي ، وتهت في البراري ، وضربت في الجبال ، وجست خلال الخرائب ، وسريت وحيدة ، حيث لا تجرؤ النسور أن تطير ••• كل ذلك أملاً بلقائه !

قلت : بلقاء من ؟

قالت : بلقائه ••• اني أحس بصوته أبداً يرن في أذني ، وأرى حينما سرت عينيه ، وألمس أبداً جلده الدافىء ، فأشعر كأن الكهرباء تسيل في عروقي ، ويطفر شيء الى عينيَّ ولكنه يحتبس فلا أستطيع أن أبكي •••

قلت : منذ كم فارقته ؟ وهل مات أو سافر ؟

قالت : أنت مجنون ... ما فارقته قط ولا اتصلت به ، هو معي اذا قمت ، ومعي اذا نمت ، أبكي لآلامه ، ويبتسم هو للذيذ أحلامي ، ويغضب فيخفق قلبي ، ويأكل فتذهب جوعتي ، ولكني لا أقدر أن أضمه الي ّ ، ولا أستطيع أن ألمسه بشفتي !

ولو لم تكن أعمى لرأيته ، ان ريّاه في عبق كل وردة ، وصوته في كل أغنية ، وصورته في صفحة البدر ، وصفاء الينبوع ، وخضرة الروض ...

قلت : فمتى عرفته ؟

قالت : مذ كان لي قلب ، لقد همت به منذ وجدته في فكري ، وقد ملأ علي ّ نفسي ، ولكني لا أدري أين يقيم ، اني أراه في اليوم على ألف شكل ، أرى في الرجل يمر بي عينيه ، وأرى في آخر قامته ، وربما استحال معنى من المعاني أحس ّ به ولا أملك التعبير عنه ...

قلت : فمن يدلك عليه ؟

قالت : قلبي يدلني عليه خفقانه ، ألا تفهم ، أليس لك قلب ؟ هو الجمال كله ، فكل ما أرى من الجمال جماله ...

ثم سكتت وأرخت أهداب عينيها ، وغابت في ذهلة عميقة ، فدنوت منها وضممتها الي ّ ، فاستجابت لي وتعلقت بي ، ووضعت قلبها في شفتيها ، ووضعت قلبي على شفتي ، ثم ذقت منها قبلة ، ما أظن أن انساناً ذاق مثلها .

ولكنها انتفضت فجأة ، وألقت برأسي على صخرة ، فشجّته وانطلقت لا تلوي على شيء ، ثم لم أرها ... وان لم تغب خيالتها عن عيني ...

* * *

ولما خرجنا من حضرة المريض قال لي مدير المستشفى :

لا تصدق كلمة مما قال ، انه هذيان مجنون لم يقع منه شيء !

قلت : ان آخر ما يهتم به الأديب ، أن يقع الحادث أو لا يقع ، أني أكتب قصة لا تاريخاً ، وحسبي ما في قصته من جمال الوصف ، وان لم يكن لها مغزى ، وان كانت هذيان مجانين …

قال : شأنك … أنت أدرى به !

راهب الوادي

نشرت سنة ١٩٣٧

كنت في بيروت فمللت صخبها وضوضاءها ، وأحسست أن قلبي جائع لا يشبعه الا الجمال ، ونفسي عطشى لا يرويها الا الحب ، وتمنيت أن أعيش يوماً في هذه الجنة ... التي تلوح لساكني بيروت من شرف السماء كما تلوح الفراديس لعيني العابد المتبتّل ... وتبدو لهم بذُرَاها المكللة أبداً بالثلج رمزاً للصفاء والطهر ، وهاماتها المرفوعة المشمخرة صورة للعظمة والمجد ، وصخورها الهائلة التي تتلو على الدنيا سورة الخلود ، وسفوحها الحالية بأشجار الصنوبر والسرو ، التي تصف الحياة الباسمة ، والجمال الباقي ، وقراها الضائعة في الضباب العطرِ ، وغاباتها السكرى بالنشيد الحلو ، وشعابها ومساربها التي يمرح فيها الحور العين ، والولدان المخلّدون ، آمنين في مثابة العشاق ، وحمى المحبين ، وأوديتها العميقة عمق السر في نفس الصبّ المدلّه يحب أن يذيعه ثم يضنّ به فيختزنه في صدره ، الرهيبة رهبة الأزلية عند أبناء هذا الوجود الفاني ... الساحرة سحر المجهول الذي يحبه الناس بمقدار ما يخافونه !

وكانت الدنيا تخطر في حلل الربيع ، وكانت الطبيعة في عرس ، فخرجت مع فئة من تلاميذي تؤم دنيا الأحلام ، وجنة المستعجل ، وذهبنا نصعّد في الجبل على غير ما طريق ، بل لقد تنكبنا الطرق عمداً ، ونأينا عن السبل المسلوكة والقرى العامرة ، لنرى الطبيعة العذراء ، ونبصر الجمال البكر ، لا الذي ازدحم عليه الواردون ، فلم نكن نبلغ الذروة

بعد طول الجهد ، ونحسب أننا قد وصلنا حتى تظهر لنا من ورائها ذرى وضهور ، فنعود الى التسلق طربين ، والطبيعةُ ، ويح الطبيعة تعرض علينا من فتونها ألواناً ، وتغرينا بالحب ما وسعها الاغراء ، فلم تلبث أن أيقظت في نفوسنا بنـات الهوى ، وشياطين الغرام ، فاذا نحن نفتش في أثناء نفوسنا عن ذكرى حب قديم ، أو أمل بحب جديد ... واذا نحن نحس بهذه العـاطفة المبهمة التي يبعثها الجمال في النفوس الشاعرة ، فنزهد في المال والجاه والمجد ، ولا نطلب من الحياة الا خلوة هـادئة على صخرة من هذه الصخور . نقضي فيها العمر كله مع من نحب في قبلة واحدة ... وهل يتسع عمر الانسان (ليت شعري) لأكثر من قبلة واحـدة ؟

لبثنا صاعدين ساعاتطوالاً ، والطرق تَرْحُب بنا أو تضيقوالقرى تبدو لنـا خيالاتها ، كأنها الأمل الباسم يومض نوره من خـلال الألم الطاغي ، وهي متكئة على أكتاف الصخور ، أو نائمة في حجر الجبل ، نومة الطفل المدلل في حضن أمه الرؤوم والمشاهد تتبدل لنواظرنا أبداً ، فلا تترك جميلاً الا الى ما هو أجمل ، فلا ندري فيم نتأمل ، وأين ننظر، كالذي يشهد معـارض الفن الجميل فيحار أين يقف ، وعلى أي لوحة يلقي البصر ...

ان لبنان معرض الفن العلوي الذي أبدعته يد الله ، فمن لم ير لبنان (لبناننا الشرقيّ النقيّ الطاهر ، ولبنان القوم المرح الشاعر) لم ير من دنياه شيئاً !

* * *

بلغنا من الصعود ما لا نطيق أكثر منه ، فنظرنا الىأقدامنا فاذا تحتنا أودية وأودية لا ينـال البصر أغوارها ، واذا هي غارقة في الضبـاب ، ومحجوبة بالسحاب الذي علونا عليه فصار جريه من تحتنا ، واذا هي

مهولة مخيفة ، ولكنها سبيلنا ما لنا من الهبوط اليها بدٌ ، بعد أن أضعنا الطريق ، وبلغنا هذه الذرى الخالية فتوكلنا على الله وأخذنا نهبط فزعين، ولم يكن ثمة من طـريق فكنا نثب من الصخرة ، وننحدر في المسيل ، ونتزحلق على الحصى ، والوادي العميق لا يزال كمـا كان غـارقاً في الضباب ، كأنه صـورة مبهمة لاحت لشاعر ، أو فكرة غامضة أومضت في رأس عالم ، وكنا كلما هبطنا درجة فتحت لنا صفحة جديدة من كتاب الجمال السرمدي ، فلا نكاد نقرأ منها حرفاً ، لأن لنا من حيرتنا وتعبنا وفزعنا ما يشغلنا عن تلاوة آيات الجمال ...

حتى اذا مضت ساعات وآذن النهار بالرحيل ، بلغنا قرارة الوادي ، فاذا هو خال موحش يبدو لنـا كأنه قبر ، واذا الأشواك والأزهـار والأوراد ، قد حفَّت به متشابكة مؤتلفة حتى لا سبيل الى بلوغه ، ولم تكن قد مستها يد بشـرية مدمرة فبقيت على طبيعتها متعانقة لم يفسد ألفتها شيء ، ولم يعبث بجمالها عابث ، فدرنا حولهـا نفتش عن مجاز نجوز منه ، فوجـدنا بعد لأي طريقاً ملتوياً ، فسـرنا فيه نلتوي معه حتى بلغنا الأعماق ...

كان الوادي ضيقاً عميقاً كأنه فجوة صغيرة ، فنظرنا في جوانبه فلم نلق أثراً لانسان ، فرفعنا رؤوسنا فاذا نحن نبصر على الجانبين جـداراً هـائلا من الصخر ، لا يبلغ البصر أعاليه ، واذا نحن في بئر عميقة نائية عن الدنيا ، لم تبلغها الحضارة بخيراتها ولا بشرورها ، بعيدة عن البشر لم يصلوا اليها ، ولم يعلموا بهـا ، فأيقنا أنا قد كشفنا سراً من أسرار الطبيعة في هذا الجبل . وكم للطبيعة فيه من أسرار لم يكشفها الى اليوم أحد !... وملكتنا رهبة المكان فسرنا صامتين ، وابتعدت عنهم أنقب في جوانب الفجوة ، فاذا أنا بسلسال ماء يهبط من الذرى العالية يقطع مئات الصخور والحدور ، حتى يستقر في هـذا الوادي ، كأنه رسالة الحياة وهديتها اليه ، فذهبت أتبع مجراه وأتقصى أصله ، فاذا أنا ألمح

داراً متوارية وراء صخرة من الصخور الضخمة ، واذا أنا أسمع صوتاً يختلط بخرير الينبوع ، ويرن صداه الخافت الفاتن ، في سكون الوادي الضيق ، فيهز من القلوب حباتها ، فأعجب من هذا الصوت وأقبل عليه على حذر ، فاذا أنا أتبين فيه هـذه الأغنية اللبنانية الخالدة التي تحمل عبقرية الأجداد ، وصورة آلامهم ومسراتهم ، وخوالجهم وهواجسهم ، فيتلقاها الأحفاد ويزيدون عليهـا آلامهم وآمالهم فلا تنتهي أبداً ، بل تبقى دائما نشيد الشعب ، بل أغنية القلب ...

عَ اليادل يادل يادل ... ...

لَطْلعْ عَ راس الجبـل	وَشْرِفْ عـلى الـوادي
وقول يا مـرحبـا	نَسَّـم هـوا بلادي
يا رب يطـوف النهـر	ويمتـلي الـوادي
لَعْمِـل زنودي جسـر	ومَـرِّء البنيـه

* * *

يا رايحـين عـلى حلب	حبـي معـاكم راح
يا مشيِّلـين العنـب	فوق العنب تفـاح
كل مين حبيبـه معـو	ونا حبيبـي راح
يا رب نسمـة هـوا	تـرد الحبيـب ليـا

فهزني الغناء ، فأقبلت على الرجل يدفعني الاستطلاع والفضول ، ويردني الفزع وخشية المجهول ، وأثبته نظـراً فاذا شيخ همٌ ، أبيض اللمة واللحية بأسمال بالية ، فلما رآني وثب مرتاعاً فِعْل من لم ير انساناً قط ، وقذف في وجهي بصرخة هي الى صراخ الوحش النافر ، أدنى منها الى صياح الناس ، وولى هارباً ، فخفته ولكني تجلدت ، وتبعته فمررت بأرض مزروعة ، ورأيت عدداً من الشاء نفرن لما أبصرنني ، فأدركته عند باب الدار ، فجعلت ألطف به وأكلمه ، وهو ينظـر اليّ وقد امّحت وحشيته الأولى ، وصار وجهه كوجه طفل بريء وجعل يصغي الى كلامي ،

شارد البصر يحاول أن يتفهم معناه ويردد الكلمات بصوت خافت رهيب، فوقع في نفسي أنه مجنون ، أو أنه قد نسي الكلام ، وكان الليل قد بسط على الدنيا جناحيه ، ولم يبق لنا بد من المبيت في هذا الوادي ، فعدت ألطف بالشيخ وأكلمه حتى انطلق لسانه فتكلم ...

قال :

— اني اخبرك ، فلا تشِ بي الى السلطان ... اني أخبرك بالحقيقة ، لقد فررت بها الى هذا الوادي ، أليست ابنة عمي ؟ أليس الحبَّ يؤلف بين قلبينا ، كما يربط الزواج جسدينا ؟ ما للسلطان ومالي ؟ لماذا يمنعها مني وهي حلالي ؟

فسألته عنها ، ولكني وجدته لا يعي الكلام ، ولا يفهمه وخفت ان أنا ألححت عليه ، أن يفوتني حديث منه قد لا أجد مثله أبداً ، فسكتُّ فعاد يقول ...

لقد عشنا سعيدين لا نرى أحداً ولا يرانا ، نزرع هذه الأرض فنأكل من ثمرها ، ونربي هذه الماشية فننال من ألبانها ولحومها ، وكنا أسعد الناس ، ولكنها ماتت ، ماتت منذ أربعين سنة ، فماتت معها نفسي ، وهذا هو قبرها ...

ماتت ، فماتت معها دنياي ، واسودّت أيامي ، ولم يبق لي بعدها شيء ، وقد كانت هي كل شيء ... ماتت فلم تُنِرْ بعدها الشمس ولا بسم الزهر ، ولا ضحك النهر ، ولم يجيء بعدها ربيع ، ولا تجملت بعدها الدنيا ...

ماتت ، وهذا قبرها ...

* * *

وغلب الشيخ البكاء ، فقام مسرعاً فاختفى بين الأدغال وترك لنا داره وطعامه وحديث غرامه ويأسه ، فلبثنا في الدار ننتظر الصباح .

من صميم الحياة

نشرت سنة ١٩٤٦

هذه قصة شاب مدرس في ثانوية من ثانويات البنات حديث السن لم يجاوز الى الآن الرابعة والعشرين ، معتزل متفرّد عاكف على كتبه ودفاتره ، لا يخالف الناس ، وليس ممن يبتغي الظهور فيهم والحظوة لديهم ، فلا يحاول أحد من القراء أن يبحث عنه أو يسعى الى معرفته ، وليكتفوا من قصته التي قصها عليّ بمكان العبرة منها ، اذا كان قد بقي في القارئين من يحرص على العبرة ، أو يسعى الى الاعتبار ...

* * *

وهــذا الشاب ابن صديق من أدنى أصدقائي الى قلبي ، وكان في صباه تلميذاً لي ، وكان من أذكى الطلاب قلباً وأطهرهم نفساً ، وأمتنهم خلقاً ، وأتقاهم لله في ســرّ وفي علن ، وكان على صغره جاداً بعيداً عن المزاح ، مجتنباً الهزل ، باراً بأمه وأبيه ، لا يعرف الا مدرسته وبيته ، لم يُرَ قط واقفاً في طـريق ، أو ماشياً الى لهو ، وثبت على ذلك حتى شبّ وأكمل الدراسة ، وفارق المدرسة ، وهو لم يدخل قهوة ولا سينما ، ولم يصاحب أحداً أبداً ، ولم يجالس امرأة غير أمه ولم يكلمها ..

وكان لذلك بمنزلة الأخ الأصغر مني ، أحبه محبة الابن ، ويُجلّني اجلال الوالد ، وكان ينفض اليّ دخيلته ، ويكشف لي سريرته ، وكان من مزاياه أنه صــادق اللهجة ، لم أجرِّب عليه في هذه المــدة الطويلة كذباً قط ...

* * *

واقطع عني مدة طويلة ، ثم رأيته فأخبرني أن والديه قد توفيا بالتيفوئيد في شهر واحد ، وأنه غدا وحيداً فاحترف لتعليم ، وبعثت به الوزارة ، لِمَا تعلم من عظم أخلاقه ، الى مدرسة ثانوية للبنات ، فثار وأبى وطلب نقله الى غيرها من مدارس البنين ، فما زالوا به يداورونه ويقنعونه بأنه ان كان معلمَ البنات رجل مثله ، فذاك خير لهن من أن يدخل عليهن فاسق خبيث ، وان قبوله التدريس في هذه المدرسة قربة الى الله ، فخدع المسكين وقبل !

قال : وبتّ ليلة افتتاح المدرسة بليلة نابغيّة لم يطبق فيها جفناي ، من الفكر والوساوس والمخاوف ، فلما أصبح الصباح ذهبت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، حتى دخلت المدرسة ، فما راعني عند الباب الا أن فتاتين كاملتي الأنوثة ليستا بالصغيرتين ولا القاصرتين قد دخلتا أمامي ، فلما صارتا من داخل ألقتا عنهما الخمار ، فعادتا كأنهما في دارهما ، وتلفتّ حولي فاذا ملء الساحة فتيات نواهد نواضج الأجساد ، قد حسرن ورحن يلعبن ويمشين ، شعورهن مهدّلات على الأكتاف ، فأحسست كأنما قد صبّ عليّ دلو من الماء الحامي ، فاحترقت منه أعصابي ، فاستدرت راجعاً ونفضت يدي من الوظيفة ، وقلت : لرزق على الله !

وقصدت بيتي فما وسعني والله البيت ، ووسوس اليّ (لا أكتمك) الشيطان ، وزيّن لي تلك المتعة بمعاشرة أولئك الفتيات ، والحياة بينهن، فاستعذت بالله ، وأعرضت عنه ، وذهبت أفتش عن عمل غير هذا ، فسدّت في وجهي الأبواب الا هذا الباب ، ولاحقتني الوزارة وادارة المدرسة حتى عدت مكرهاً ..

وأنا رجل رُضت نفسي على العفاف ، وأخذتها بضروب الرياضات حتى سكنت شِرّتها ، ولكنها مع ذلك كانت تثور بي كلما سبقت عيني وأنا غافل الى فتاة في الشارع كاشفة ، أو سمعت أذني حديثاً من أحاديث

الشبان سقط اليّ وأنا لا أطلبه ، أو قرأت (وقلما أقرأ) قصة خليعة ، أو نظرت (ونادر أن أنظر) مجلة من هذه المجلات الداعرة الخبيثة وما المرأة التي يفتش عنها الشبان ويتحدثون عنها الا هـذه النَّصَف التي تصلح ما أبلى منها الدهر بالثياب والأصباغ ومـا عند العطار ، والتي تقاذفتها الأيدي حتى صارت كالغصن الذاوي وكالثوب الخَلَق ، فما بالك بشاب كتب عليه أن يعاشر النهـار كله فتيات كزهرة الفـلّ ، أو كالغلالة الجديدة ، لم تمسسهن يد بشر ، ولم يعرفن من تجارب الحياة ما يتّقين به شباكها ، ويطلب منه أن يكون عفيفاً شريفاً ، وأن يكنّ هن أيضاً عفيفات شريفات ، وله في نفوسهن مثل الذي لهن في نفسه ؟

يا أستاذ ! ان الخطر أشد مما تتوهمون أنتم معشر الكتاب المعتزلين في بيوتهم أو في أبراجهم العـاجيَّة ، كما يقولون عن أنفسهم — الخطر أشد بكثير ... شباب وشابات ، يُصبي كلاً منهما أن يشم ريح الآخر من مسيرة فرسخ ، يجتمعون على دروس الأدب وقراءة أشعار الغزل... تصور (يا أستاذ) المدرس يلقي على طالباته حديث ولادة وابن زيدون، وانها كتبت كما رووا (كذباً أو صدقاً) على حاشية ثوبها :

أمكن عاشقي من صحن خدي وأمنح قبلتي من يشتهيهـا

ويمضي يشرح لهن ذلك ويفسره لهن .. حالة فظيعة جداً يا أستاذ ... ولو كن كبـيرات مسنّات ، أو كنّ مستورات محجبات ، أو لو كن صائمات مصليات يخفن الله ، لهـان الأمر ، ولكنهم يجتمعون بهن على سفور وحسور وتكشف ، وتنطلق البنت حرّة تزور معلمهـا في داره ، وتمشي معه ان دعاها الى السينما ، أو المتنزَّه ، كذلك يرى الآباء اليوم بناتهم فلا ينكرون ذلك عليهم !

أنا لا أقول ان الآباء كلهم لا يهمهم أعراض بنـاتهم ، وأن كل أب قرنان ، معـاذ الله أن أقول ذلك ، ولكن في الآباء قوماً مغفلين ، أعمى

أبصارهم بريق الحضارة الغربية فحسبوا كل شيء يجيء من الغرب هو خير وأعظم أجراً ، ولو كان ذهـاب الأعراض والأديان والأبدان ! ان هؤلاء كالنعامة يلحقها الصياد فتفر منه حتى اذا عجزت أغمضت عينيها ودسّت رأسها في التراب لظنها أنهـا اذا لم تبصر الصياد ، فان الصياد لا يراها ! ان هذا الأب يحسب أن كل رجل ينظر الى ابنته بعينه هو ، وطبيعي منه ألا ينظر هو اليها بعين الشهوة ، فلذلك يطلقها في الشارع ، ويبعث بها الى المدرسة على شكل يفتن العابد ، ويحرك الشيخ الفاني !

* * *

دخلت يا سيدي ودرّست ، وكنت أغض بصري ما استطعت وأحافظ على وقاري ، ولا أنظر في وجوه الطالبـات الا عابساً ، وكنت مع ذلك أداري من أثرهن في أعصـابي مثل شفرة السيف الحديد ، واذا قرع الجرس خرجت قبلهن مهرولا حتى لا أماشيهن ولا أدنو منهن ، فذهبت مسرعاً الى داري أصلي وأسأل الله أن يصرف عني هـذه المحنة ، وأن يجعل رزقي في غير هذا المكان ، وكنت أصوم وأقلل الطعام لأطفىء هذه النار ، فاذا مشيت الى الفصل وسمعت كلامهن ، وسبقت عيني الى بعض ما يبدين من أعضائهن وزينتهن زادت ضراماً واشتعالاً !

وكان فيهن طالبة هي ... لا .. لست أصفها ولا ينفعك وصفها ، وحسبك أن تعلم أنهـا ذكية ومتقدمة في رفيقاتها ، وأنها من أسرة من أنبل الأسـر ، وأنها فوق ذلك جميلة جداً .. جداً .. انها تمثال ، هل رأيت مرة تماثيل الجمال والفتنة ...؟ وكانت كلمـا نظرتْ اليّ قرأت في عينيها كتاباً مفتوحاً ، رسالة صريحة لي أنا وحدي ، وأحسست منها بمثل شرارات الكهرباء تخرق قلبي ... فكنت أزداد عبوساً واعراضاً ، فلا يردها عبوسي ولا يثنيها اعراضي ، وأسرعت مرة ورائي وأنا خارج وهي تنـاديني : « سؤال يا أستاذ » ... ولهـا في صوتها رنّة ... يا لطيف ..! فوقفت لها فجعلتْ تدنو مني حتى شعرت كأني ألامس ...

ألامس ماذا ؟ لا أجد والله شيئاً أشبهها به ، لأنه ليس في الدنيا شيء آخر له مثل هذا التأثير ... فهربت منها وأسرعت الى الدار ، وحرصت على ألا أدعها أو أدع غيرها تفعل مثل هذا !

وعقدت العزم عقداً مبرماً على ترك التدريس ، وخرجت من الفصل بهذه العزيمة ، وكان في الساحة تلميذات فرقة أخرى في درس الرياضة ، وقد اصطففن بالشنلحات ، كاشفات الأفخاذ والأذرع ، راسخات النهود ، يقفن كذلك بين الرجال (والمعلمون كلهم رجال) ... فكبر رأسي وأسرعت الى الشارع ، وقد حلفت ألا أعود ولو متّ جوعاً ، وبعثت بكتاب الاستقالة !

ومرت أيام وكنت وحدي في الدار ــ وأنا وحدي دائماً ليس لي زوجة ولا قريب ــ فاذا الباب يقرع ، فقمت ففتحت واذا بها تدخل عليّ ، وتغلق الباب وراءها ، وترفع الغشاء عن وجهها ، وتلقي المعطف عن منكبيها ، تحدثني تطلب درساً خصوصياً ، وعيناها تحدثانني تطلبان أو لقد خيّلت لي أعصابي أنهما تطلبان غير الدرس ... ولست يا أستاذي رجل سوء ولا أليف دعارة ، ولكني رجل على كل حال ... فلما رأيتها في داري ... وتحت يدي ... والباب مغلق ... وهي تريد ... ملكني الشيطان ... ورأيت الدنيا تدور بي ، ولما حاولت أن أتكلم اختنق صوتي ثم خرج وفيه بحّة غريبة كأني أسمع معها صوت انسان آخر غيري ، وهممت يا أستاذ ... ولكن صوت الدين رنّ في أذني ، ينادي لآخر مرة كما يصرخ الغريق آخر صرخاته ... فاستجبت له ... ولو أعرضت عنه لحظة لضاعت هذه الفرصة الى الأبد ، ولخسرت أنا والبنت الدنيا والآخرة من أجل لذة لحظة واحدة ... ولم أتردد بل قلت لها بصوت بارد كالثلج ، قاطع كالسيف ، خشن كالمبرد : « يا آنسة ، أنا آسف ، ان هذه الزيارة لا تليق بطالبة شريفة ، فاخرجي حالا ! » ... وفتحت لها الباب وأغلقته خلفها ، وتم ذلك كله في دقيقة !

ولما خرجتْ ندمت ... نعم ندمت ... وعاد الشيطان يوسوس لي، وضاق بي المنزل حتى كأني فيه محبوس في صندوق مقفل ، ولم أعد أدري ماذا أصنع ، وأحسست أني أضعت كنزاً وقع اليّ ، وتغلّبت غريزتي ، فأخفت صوتها صوت الدين والعقل ، وأحسست توتراً في أعصابي ، حتى وجدت الرغبة في أن أعضّ يدي بأسناني ، أو أضرب رأسي بالجدار ، وعدت أتمثل حركاتها ونظراتها ... فأراها أجمل مما هي عليه ، وأحس بها في نفسي ، فكأني لا أزال أشم عطرها ، وأرى جمالها ، بل لقد مددت يدي لأمسك بها ، فاذا أنا أقبض على الهواء ، وخيّل لي الشيطان أن هذه البنت لم تعد تستطيع الصبر بعد أن أذكى هذا النظام المدرسي نار غريزتها ، وأنها ستمنح هذه الـ ... هذه النعمة رجلا غيري ... فصرت كالمجنون حقاً ، وحاولت أن أقرأ ففتحت كتاباً فلم أبصر فيه شيئاً الا صورتها ، وأردت الخروج فرأيتني أنفر من لقاء أيّ من أصحابي كان ولا أريد الا اياها ، وحسدت اخوتي المدرسين الذين لم يتربوا مثل تربيتي الصالحة ، فتمنعهم من الانطلاق في هذه اللذائذ انطلاق الذئب في لحم القطيع الطريّ !

والعفو يا أستاذ اذا صدقت في تصوير ما وجدت ، فأنت أستاذي أشكو اليك ، وأنت الرجل الأديب قبل أن تكون الشيخ القاضي ، فقل الآن ماذا أصنع ؟ اني تركت التدريس واشتغلت بغيره ، ولكني لم أستطع أن أنساها ، ولو أنا أردت وصالها لقدرت عليه ولكني لا أريد ، فماذا أصنع يا أستاذ ؟ لقد حاولت الزواج ، فرأيت الأب الذي لا يكاد يمنع ابنته حراماً لا يمنحها حلالا الا بمهر وتكاليف يستحيل دفعها على مثلي ، فأيِستُ من الزواج ، فماذا أصنع ؟

* * *

ماذا يصنع يا أيها القراء ؟ قولوا ، فاني لم أجد والله ما أقول !

في معهد الحقوق

نشرت سنة ١٩٣٢

أمس ... قبل أن تبدأ الدروس .

كا نالصف الثالث هادئاً . والطلاب الذين جاءوا الى المعهد في مثل هذه الساعة المبكرة من شهر الصيام ــ وقليل ما هم ــ يحفتون بالمدفأة على نظام غريب واحد على كرسي الاستاذ وقد ألقى برأسه بين دفتّي مجلة وآخر جالس بجانب المجلة على منبر الصفالعريض ، يقرع برجليه جانبه فيصيح به جاره الذي جذب كرسي المعيد فوضعه حيال المدفأة وجلس عليه ماداً رجليه الى وجه آخر جالس على المقعد :

ــ حاجه بقى !

وتمر دقيقة يتبادلان فيها (الشتائم الوديّة) المعروفة . ثم يعود الهدوء كما كان حتى لا تسمع في قاعة الصف الواسعة الا صلصلة حديد الملقط في المدفأة ، أو قرقعة جريدة الأحرار في يد طالب ، أو سعال آخر في نغمة مزعجة يكون قرارها صوت أحد الطلاب هاتفاً به :

وآخرتها ؟ !

واستمرت الحال على ذلك ربع ساعة ، جاء فيها بعض الطلاب ، فجلسوا حول النار صامتين، بعد أن ألقوا على الحاضرين تحية الصباح...

* * *

ثم ظهر فجأة دوي حديث في زاوية الصف ، لم يلبث أن استحال الى ضجة هائلة اختلطت فيها الأصوات وتباينت فيها اللهجات ، فأسرع

الحاضرون من هنا وهناك يسألون :

ــ الطالب الشامي : شو ، شو الحكاية ؟

ــ الطالب الحلبي : أشو خبر خيُّو ؟

ــ الطالب العراقي : شنو هي الكصّة (القصة)

ــ الطالب المصري : طب ... ما تقولوا ايه الحكاية ؟

وبعد لأي ما ... استطعنا أن نطفيء لسان النار ، وبدأ الحديث يدور بيننا ، بهدوء واتّساق ، فقال السيد خ .

ــ أرجوكم أيها الاخوان ... لنتكلم بهدوء ، هل تريدون أن تسمعوا ؟

ــ ماذا ؟

ــ ان اربعين ورقة ندفعها في هذه الازمة الخانقة ، رسماً للشهادة ، أمر لا يطاق ، فيجب أن تتوسل بالطرق المشروعة .

ــ لالغاء الرسم

ــ كلا ... لا تتعجل أرجوك ، ان الغاءه غير ممكن ولكن نطلب انقاصه .

ــ كلام فارغ !

ــ آخر : وماذا يهمك أنت ... دعه يتكلم

ــ آخر : صَه ان السيد خ معه الحق

ــ خ : والطريقة المشروعة هي أن ..

ــ أن نرفع عريضة ... اقترح ذلك

ــ آخر : كلا ... ان اقتراحك في غير محله يجب أن نرسل وفداً .

ــ العريضة أحسن من الوفد .

ــ آخر : واذا لم تنجح العريضة

ـ اذا لم تنجح ؟... يجب أن تنجح !

ـ منطق ! !

ـ اذا لم تنجح نمتنع كلنا عن دخول الامتحان .

ـ موافق

ـ آخر : بالعكس (غير موافق) فكرة سخيفة جداً

ـ حافظ على أدبك ... أرجوك ؟

ـ أنا محافظ على أدبي ، ولكن أنت اسحب كلامك

خ :

أنا أسحبه عنه ، لنرجع الى صلب الموضوع .

اننا متفقون على الغاية ، وسنتفق على الطريق التي نصل بها اليها ... وأرى أن تؤجلوا ذلك الى حين اجتماع الطلاب ، وتسمعوا من الآن القصة :

ـ لا ... لا نسمعها ، لا نريد أن نسمع قصصاً .

ـ ولا أساطير (ضحك)

خ ـ انها قصة واقعة وليست أسطورة ثم انها تتعلق بالموضوع .

ـ من كان لا يريد سماعها فليسدّ اذنيه ، تفضل قل القصة ... سنتسلّى بها ، على الأقل . شهر رمضان تطلب فيه التسلية البريئة

ـ خ : هي قصة طالب في المعهد ، كان منذ عامين ، أظن أن بينكم من يعرفه ، هو السيد سلمان الفالح

ـ أنا أعرفه جيداً ... رحمه الله

ـ وهل مات ؟

ـ خ : اسمعوا ، سأتلو عليكم قصته ، كان من أذكى طلاب المعهد ، وأعمقهم ثقافة . اجتاز فحوص السنتين الأولى والثانية بتفوّق عظيم وكان محل اعجاب الأساتذة والتلاميذ وتقديرهم حتى ان المحاضرة التي

ألقـاها في ردهة المعهد تناقلتها ثلاث من جرائد المدينة ولخصتها مجلة المقتطف في مصر ، بعد ان أثنت على صاحبها وتنبأت له بمستقبل باهر .

ـ وكيف مات اذن ؟

ـ كان من أولئك الذين قال عنهـم الفيلسوف ... (وَسَكَتَ يفكر)

ـ اتركه ... مين ما كان . وبعد ؟

ـ الفقراء جيوباً ، الأغنياء نفوساً ، أجل لقد كان فقيراً ، لا يملك من نشب الدنيا وثرواتها ، الا هذه الثروة المعنوية التي جاد بها عليه الله . فلما أكمل الصف الثالث ، عرض له رسم الشهـادة ، ولم يكن له الى جمعه من سبيل ... فامتنع من دخول الفحص .

ـ باختصار ، جاء الاستاذ !

ـ وبالاختصار...فقد شعر أنه ضيَّع مستقبله وأنه قد انهار صرح آماله ، فأطلق على نفسه الرصاص في ساعة هياج وانفعال .

ـ مسكين

ـ مسكين ؟ انه مجنون

ـ بل أنت المجنون

ولما وصل (خ) من حديثه الى هـذا الحد كان الاستاذ قد دخل الصف ، فأسرع كل الى مكانه ، وعهدوا اليَّ أن أكتب مقـالة لتكون الخطوة الأولى في سبيل المطالبة بتخفيض « هـذا الرسم .. الباهظ » وقد فعلت .

شيخ في مرقص

- ١ -

نشرت سنة ١٩٤٦

كنت أصلي أمس في مسجد العباس ، فلما قضيت الصلاة وتلفتُّ للسلام لمحت (فلانا) فكذبت بصري وعدت اليه أتثبّته فاذا هو بلحمه ودمه ، واذا هو يصلي صلاة خاشع لله متبتل أوّاب ، وكان آخر عهدي به أنه ركب في طريق الغواية رأسه ، وأقدم اقدام الفرس الشّموس ، فخبَّ في الضلال ووضع ، وأغار وأنجد ، ثم انتهى به الخبط الى الهاوية ، فوقع (على أمِّ رأسه) في اشتهاء راقصة مشهورة ، وحسب هذا الاشتهاء حباً كالذي قرأ وصفه في الروايات فصنع مثلما يصنع المحبُّون : نسي عقله ودينه ، وجاد بقلبه وماله ، وعرفت منه الفاجرة هذه الحماقة ، فاستنزفت دم (جيبه) وماء قلبه ، ثم لم توصله الى ارْبه ولم تمتعه بحبّه ... وكان له ضمير يناديه فأعرض عن نداء ضميره ، وكان له اخوان ينصحونه فسدَّ أذنيه عن نصح اخوانه ، فلما يئسوا منه ومن صلاحه انصرفوا عنه وتركوه لنفسه وللراقصة ولابليس ، ثم للمرض والفقر وجهنم !

... فلما رأيته في المسجد عجبت وانتظرته حتى فرغ ، فأقبلت عليه وسألته ، فقال : ان حديثي عجَب ، واني لا أحب أن أتحدث به في بيت الله فتعال معي الى بيتي تسمع حديثي ...

***

وحدثني فقال :

ان الفضل عليَّ فيما رأيت من توبتي لله ثم للشيخ صلاح الدين

أحسن الله اليه ، فلقد هداني الله به وهدى أقواماً بعد اذ كانوا ضالّين .
ولقد عرفت رجالا شجعاناً أولي عزم واقدام ، وسمعت أخبار العلماء الذين واجهوا الملوك بما يكرهون ، وأحاديث أهل الجراءة والصدع بالحق ، ولا والله ما سمعت ولا عرفت بأجرأ من هذا الشيخ ، ولا أثبت منه جَناناً ...

قلت : اذْ صنع ماذا ؟

قال : اذ وعظ في المرقص ! أما سمعت الحكاية ؟ لقد استفاض خبرها وتناقلته الصحف ، وكان حديث السُّوامر أياماً طوالاً ... وذلك أنه نظر فرأى طلاب العلم لا يزالون ينقصون ، ورأى الناس ينصرفون عن المساجد فلا يحضرها الا الكهول والعجَّز ، وما يحتاج هؤلاء الوعظ انما يحتاجه الشباب . وسأل أين الشباب ؟ فأجَلّوه عن أن يخبروه ، ثم قالوا : ان الشباب في السينمات والمراقص ونوادي القمار ... قال : وما السينمات والمراقص ؟ لم يكن الشيخ يدري ما هي ، ولم يكن يعرف من الدنيا الا مسجده وداره ، ولا يسمع الا حديث العلم ، وقال المصنف، وذكر الشارح وعقّب عليه المحشّي ...

قالوا : ان المراقص أبنهاء واسعة تمتلىء بالناس وفي صدرها منصّات عالية لها ستُر ترتفع وتنسدل ، يقوم عليها نسوة عاريات الا من خِرَق لا تكا دتستر من أجسادهن شيئاً ، يقفزن ويلعبن ويحركن أيديهن وأرجلهن ...

قال : حسبكم ، حسبكم ! انا لله وانا اليه راجعون ! نساء يلعبن أمام أعين الرجال الأجانب ؟ ! ما ظننت أن مثل هذا يكون في دار الاسلام ، قوموا بنا الى المرقص !

قالوا : الى المرقص يا مولانا ؟ !

قال : نعم . تتّقي مثل لعنة داوود وعيسى بن مريم ، ونغيِّر هذا

المنكر بألسنتنا اذ قعدت بالحكّام رقّة دينهم عن أن يغيّروه بأيديهم .

قالوا : يا مولانا ، انهم يسخرون منا ويؤذوننا ، ولا يصغون لمقالنا .

قال : ما نحن بأفضل من الأنبياء ، وما نفوسنا بأكرم علينا من نفوسهم . ولقد سُخر منهم وأوذوا في سبيل الله فما ضعفوا ولا استكانوا ، وانما علينا البلاغ والهدى هدى الله .

قالوا : ان المدارس قد ابتدعوا فيها هذه الأيام بدعة جديدة من أخزى البدع وأرضاها لابليس ، وهي أن تبرز البنات سافرات حاسرات فيلعبن أمام الرجال ، فلنبدأ بالمدارس قبل المراقص فانهم سيقتلون فيها الأخلاق ، باسم الرياضة والصحة والفنّ !

قال الشيخ : بل نبدأ بالمراقص ان شاء الله .

فلما رأوا منه الجدّ والاصرار ، قالوا : أمهلنا يا مولانا حتى نعدّ لك مكاناً فيه تعظ منه الناس .

وذهبوا الى (مرقص أبي نواس) فسألوا صاحبه أن يؤجرهم المسرح ربع ساعة ما بين الفصلين ، ليجيء الشيخ فيعظ فيه الناس . فنظر الرجل فيهم لعلّه يبصر تحت معاطفهم المسروقة ثياب المستشفى التي فرّوا بها من (القصير[1]) وابتعد عنهم خشية أن تعاود أحدهم جنّته فيثب على عنقه فيخنقه أو يشج رأسه بحديدة يخفيها في كمّه ، ودعا أعواناً له لينقذوه من هؤلاء المجانين الذين يريدون أن يجيئوا بشيخهم ليعظ الناس على مسرح التياترو ... ولكن القوم قطعوا عليه ما هو فيه وجرّوه من رَسَنه[2] فانقاد ذليلا طيّعاً ، حين عرضوا عليه في هذا الـ (الربع من الساعة) نصف ما يكسبه في الليلة كلها ،

---

(١) القصير ظاهر بليدة دوما على بعد « ١٤ » كيلو متر من دمشق وفيه مستشفى الأمراض العقلية .

(٢) الرسن : الزمام من عامي الشام الفصيح .

وقبل منهم وشيّعهم الى البـاب ، ولكنه لم ينس أن يقبض المبلغ منهم قبل أن يغلقه دونهم .

وفرح الرجل بهذا الاعلان الجديد عن مرقصه ، وأمّل أن يغلب به (مرقص مطيـع بن أياس) الذي يقوم الى جنبـه يزاحمه ويقـاسمه قصّاده ، وانتظر أن (يمثل) الشيخ (مهزلة) تكون (رواية الموسم) ، وذهب فطبع (اعلانات) ضخمة عن (المفـاجأة المدهشة) التي ستروع الناس ، وجاء الناس يرون هذه المفاجأة وما يقع في وهم أبعدهم خيالاً ، الا انها راقصة جديدة ، أو انها رقصة مبتكرة ، وماذا يكون في المرقص الا الرقص ؟ !

وكنت تلك الليلة هناك ، ورقصت (فلانة) رقصة عبقرية مُبْدَعَةً عرضت فيها من فنونها وفتونها عجباً ما رأى الراؤون مثله ، وَجَنَّنَتْ الحاضرين حتى ما يدرون من الفتنة ما يصنعون ، وحتى دَميت الأكفُّ من التصفيح والتصفيق ، وبحّت الحناجر من الهتاف والصراخ ، وأرخي الستار على الراقصة وهي أحبّ الى كل واحد منهم من زوجه وولده ، وما واحد منهم الا ويبذل في ساعة منهـا ماله وشرفه ودينه ، وجعلوا ينادون باسمها ، يريدون أن يمتعوا أبصارهم برؤيتها كرّة أخرى ، فلما تمادى غيابها أقبلوا يرددون اسمها في الحاح واتصال ، ويقرعون الأرض بأقدامهم فعل الصبيان . وروّاد الملاهي ، لهم عقول كعقول الصبيان ، فارتفع الستار ونظروا ...

نظـروا فاذا هم يرون مكان ذلك الجسم الحبيب المشتهى ، وذلك العُرْي المغـري الفتان ، شيخاً جالساً بعمامته ولحيته وجبته ، شيخاً حقيقياً لا تمثالا مكسوّاً ثيـاب المشايخ ، ولا شيخاً مزوّراً من شيوخ (التمثيل) !

وبدأ الشيخ درسه بحمد الله والصـلاة على رسول الله ، وربطت

الدهشة ألسنة الحاضرين لحظة ، فكانت سكتة شاملة ، ثم صحوا فجأة ، فكان الانفجار ...

* * *

ان كل محاولة لوصف هذا الانفجار انما هي افساد وتشويه لصورته في نفس السامع ، وانك تعرف هؤلاء الناس وان فيهم كل ما جن خبيث ، وجبار[1] فاجر ، وفيهم السكران وفيهم الحشاش ، وقد جاءهم هذا الشيخ في الساعة التي اكتملت فيها نشوتهم ، وطغت (براح الراقصة) سكرتهم ، ليتلو عليهم حديث التقى والصلاح من فوق منصة المرقص ، وليقول لهم دعوا هذه المرأة فانها رجس ، وغضّوا عنها أبصاركم فانها عورة ، وانصرفوا عن هذه البقعة فانها دار دنس واثم ، وقد طلع عليهم وهم يرتقبون طلعة الغادة العارية المِغناج...فتصور ماذا يكون منهم !

لقد صفرّوا له وسخروا ، ورموه بكل قبيح في القول ، وسألوه أن يتجرد فيرقص لهم ويريهم غُنجه ، وعرضوا عليه كؤوس الخمر مترعة ، وهو ماض في كلامه كأنما هؤلاء ذباب يحوم حوله من بعيد ، بل ان الرجل ليحفل بالذباب وهو لم يحفلهم ولم يبال بهم . وتعب الشاّغبون وملّ الساخرون ، وكان في القوم من يعرف الشيخ ، فصاحوا بهم أن اسكتوا ويلكم نسمع ما يقول ، وكانت سكتة أخرى ، وهي كل ما كان يتمنى الشيخ فتمكن فيها من آذانهم ونفذ الى قلوبهم ، فأصغوا ثم اطمأنوا ، ثم خشعوا ، ثم انقادوا اليه وتعلقوا به ، وحلّ من قلوبهم محل (تلك) ، ولكن حبّهم اياها كان حباً سفلياً ، وهذا حبٌ طاهر مقدس ... فلما انتهى كلامه ، وقام ليخرج ، قاموا معه وخرجوا وراءه ، وتركوا المرقص لصاحبه وللشيطان ... ولازمته أنا من ذلك اليوم كما لازمه كثير ممن كان هناك ...

---

(1) كلمة المارد ، وكلمة الجبار من ألفاظ الذمّ – وان أولع بها بعض المتادبين وحسبوها من أوصاف الأبطال .

قلت : ألم تحفظ شيئاً من كلامه ؟

قال : هيهات ! انه تكلم بكلام عُلوي ، كنا نحسُّ به ينصبُّ في القلوب انصباباً فتَتَستَشرِفه وتتسامى اليه ، وما زال يقول وهي ترتفع حتى خلصت من هذه الحمأة الدنسة التي كانت غارقة فيها ، الى الفضاء الأرحب والى الجوّ الطهور . انه لم يتكلم كما أتكلم أنا وأنت ، ولا كما كان (هو) يتكلم ، فقد سمعته قبل ذلك اليوم ، فما سمعت منه مثل هذا ، واني لأظنُّ أن مَلكا نطق بلسانه فمن هنالك خرج الكلام نورانياً سماوياً .

قلت : مثل ماذا ؟

قال : أنا رجل عامي ، فاذا أعدته عليك لم آت به من ذهني الكليل الا أرضياً منطفئاً ، كالشهاب المنير اذا روته الأرض لم يكن على لسانها الا صخرة باردة جامدة ... أفتحب أن أردّ عليك ما حفظت منه من ذهني أنا لا من ذهنه ، وبلساني لا بلسانه ؟

قلت : نعم .

قال : ان مما حفظت منه قوله ...

شيخ في مرقص

- ٢ -

(الى كل شاب تريده نفسه على الاثم ، ويدفعه دينه الى العفاف ، وتسهل له دنياه طريق الفجور ، وتوعر عليه سبيل الزواج ...)

قال : لما كانت تلك الهدأة ، وسمعنا صوت الشيخ الوقور الخاشع يطلُّ علينا من فُرجة الضجيج ، كما يطلُّ شعاع البدر من خلال السحاب الداكن في الليلة الداجية ، تبيَّنّاه يدعو الله ، لا كما يدعوه خطباء الجمعة على المنبر ، ذلك الدعاء الرسمي الذي يستحضرون به هيبة النـاس أن يمسكوا عليهم لحنة أو حبسة ، وهيبة الحكام أن يبلغهم عنهم أنهم نسوا ذكرهم أو قصَّروا في تعظيمهم أكثر مما يستحضرون في نفوسهم هيبة الله ، بل دعاء مسلم يعلم أنه يخاطب رب الأرباب ، فلا يعلّق أمله الا به ، ولا يرجو غيره ولا يرهب سـواه . وأشهد أن الله قد فتح لدعـائه أبواب السماء ، وأنه قد استجاب له لأننا وجدنا أثر الاجابة في رقة قلوبنـا ، وما عهدناها ترقُّ ولا تلين ، وفي انصباب دموعنا برغمنا ، وبكائنا على نفوسنا ، وكان اذ يقول (يا ألله) تُحِسُّ أن قلبه قد خرج من صدره بهذه (الهاء) التي تمشي في الجو مبللة بدموع الخشية ، فتنعش القلوب وتحييها ...

ثم قال الشيخ : لا تقولوا انه مرقص ، فما المـرقص لمن يدعو الله خاشعاً صادقاً وهو يبكي على خطيئته الا مسجد مبارك ، ومـا المسجد لمن يدعو بلسانه وقلبه معلق بالشهوات وفكره باحث عن سبل الموبقات الا ملهى ، وما كان الله لينظر الى صوركم وأزيائكم وهندسة عماراتكم ،

ولكن ينظر الى قلوبكم • وكم في الأسواق والقهوات والسينمات[1] من وليٌ لله كتب له باخلاصه حسن الخـاتمة ! وكم في التكايا والزوايا من وليٌ للشيطان يرائي بالدين ليأكل الدنيا !

ثم تكلم عن الدنيا كلاماً عجيباً ، وساق أحاديث لم أحفظها ، وأخباراً من أخبـار الصالحين ، فَـلَـبَّـتْ والله قلوبنـا ، والله مقلّب القلوب ، فعظّمت في عيوننا ما كنا نحقره قبل ساعة واحدة ، وحقّرت ما كنا نبالغ فى تعظيمه ، وأرتنا هـذه الدنيا صغيرة ، حتى لكأنما هي حقاً جنـاح بعوضة !

ثم أخـذ في الكلام عن (الشهوة الجنسية) ، فحفظت من كلامه شيئاً من هنا وشيئاً من هناك ، لا أستطيع أن آتي به على نَسَق ، فأنا أقدم فيه وأؤخر ، وربما أخللت بمعنى أو أخطأت في لفظ ، فلا تأخذه هو بخلل أو خطأ مني !

وكان مما قال :

ان الله ركّب هذه الشهوة في الانسان ، وجعل لهـا سراً عجباً من العجب ، وسرُّها ، أنك اذا وضعتها في موضعها ، واتقيت الله فيهـا ، سكنت واستقرت ، وربحت مع السكينة والاستقرار الصحة في الدنيا والجنة في الآخرة ، واذا أنت أطلقتها ولم تقيّدها بقيد الشرع والخلق ، لم تزل هائشة هائجة كالنار كلما زدتها حطباً زادت للحطب طلباً ، ثم انك معها كالذي يطلب الماء من السراب لا يزال في عناء وظمأ ، وكلما اشتد طلبه زاد عطشه ونصبه ، والسراب عنه بعيد !

يرى الفاسق المرأة ، فيملأ منها بصره ، فيتبعها قلبه ، فلا يزال يتخيل فيها المفاتن ، ويتوهّم في وصالها الملاذ ، حتى يعتقد أن لذائذ الدنيـا كلهـا ومسراتها قد اجتمعت في لقائهـا ، وأن آلامها كلها في بُعدها ،

---

(١) ولست اقيسها وهي دور لهو بالمسجد وهو دار عبادة ، ولا اقول ان دخولها حلال ، ولكن اقرر معنى من معاني الاخلاص والرياء ، فلا يحمل كلامي اكثر مما تحمله الفاظه .

ويجعلها مطلبه من دنياه ، ويجنُّ بها جنوناً ... فان هو استطاع الوصول اليهـا ، وجد اللذة بهـا (نصف دقيقة) من الزمان ... ووجد أنه لم يشبع منها ، ولم ينل من وصالها ما كان يصوِّر له وهمه ... فيعود الى التفكير فيهـا ... والى تخيُّل اللذة بلقائها ... ويتوهم أنه سيحظى هذه المرة بما فاته المرة الأولى... فاذا عاد اليها عادت اليه خيبة الأمل... ولا يزال هـذا دأبه معها حتى يملَّها وييأس من أن يجد عنـدها لذته الموهومة فيتعلق بسواها .. ولو أنه قارب ألف امرأة ، ثم رأى واحدة أخرى ، لعلقها وظن أن طَلِبَتَه عندهـا ... فلا يشبع أبداً ... ولا يستريح !

وما هي لذة الوصال ؟ انها ليست في هذا التقارب الجسمي ، كلا ... انما هي في اتصال القلوب . وان ابن الرومي هو عنـدي أدقُّ شعراء الدنيا احساساً بالمرأة ، وأعظمهم بالحب معرفة ، وأحسنهم لجوع العاطفة تصويراً حين يقول :

أعانقها والنفس بعـد مَشُوقة	اليها وهل بعد العناق تداني ؟ !
وألثم فاها كي تزول حرارتي[1]	فيشتدُّ ما ألقى من الهَيَمانِ
كأنَّ فؤادي ليس يشفي غليـله	سوى أن يرى الروحين يلتقيانِ

وما يعانقها على الحقيقة فقط ، ولكن على المجاز ، فما يروي ظمأ نفسه الى الحب ذلك (العنـاق) ، وأنه يتمنى أن لو قطَّعها عَضّاً ، وأن لو أفناها فيه ، حتى عادا شخصاً واحداً ... وذلك ما لا يكون !

لا ... ما في اطلاق الشهوة من راحة ولا شبع ، وان نساء الأرض كلهن لا يُرضينها ، وامرأة واحدة بالحلال ترضيها وتشبعها . وهب أن رجلاً وسعته أحواله وأمواله أن يمدَّ يده حيث شـاء ... أفتسعه صحته ؟ هل يحمل جسمه أثقال هواه ؟ انه لا بد أن تجيء ساعة يعجز فيها ويرتد مريضاً وانياً يشتهي ذلك (الشيء) ولا يقدر عليه ، ويقعد

---

(١) كذلك أحفظها ـ واجـد بالذوق ان جملة (كي تزول حرارتي) مبتذلة لم يقلها ابن الرومي وانما قال شيئاً آخر بدله الرواة .

بالحرمان ، فلمـاذا لا يرتدع عن الاثم صحيح الدين والجسم والشرف ؟ أليس ذلك خيراً له من أن يجمع على نفسه الحرمان والمرض وجهنم ؟ !

وان من بديع صنع الله أنه لم يخلق امرأة تشبه في جمالها الأخرى ، فالنساء مختلفات ، ولكن طعم المتعة بهن واحد لا يختلف ، وما فرق بين هذه الراقصة وبين امرأتك الا أن الأولى تأتيك على جوعك بالرغيف قد لفّته بمنديل الحـرير ، ووضعت المنـديل في شملة ، وألقت الشملة في صندوق من الفضة المذهبة ، وجعلت حول الصندوق الورق الشفاف ، فأنت كلما رفعت حجاباً من هذه الحجب اشتد جوعك ، وشوقك الى ما وراءها ... فاذا بلغت الرغيف حسبته قد قطف من قمح الجنة ، ثم طحنته الملائكة ، ثم عجنته بأيديهن الحور العين... وتلك تأتيك بالمائدة الحـافلة مكشوفة ظاهرة ... وأنت لا تأكل المنـديل ولا الشملة ولا الصندوق ، انما تأكل الرغيف ، وأنت لا تريد هـذه الثياب ولا هذه الأنوار ... انما تريد المرأة ، ولعل امرأتك أبهى منها وأجمل !

وهب أن هذه أطرى جسماً ، وأحلى وجهـاً ، وأقدر على الفتنة ، فمن قال لكم ان الجمال هو هذا ؟ ان الجمال هو الاخلاص . انك ترى أمك جميلة في عينك ، حبيبة الى قلبك ، ولعلّ في وجههـا من تجاعيد الكبر أودية وجبالاً ... ولعل فمها كالمغارة الخالية ... ولعل يديهـا كمخالب الطير ، وترى المرأة التي خانتـك وغدرت بك قبيحة بغيضة ، وان كانت في عين الرائي أجمل النساء ...!

* * *

انكم تفتشون عن السعادة ، ولكنكم لا تعرفون طريقها ، ولا تفكرون بعقولكم فيهـا . لماذا تسعد أيها التاجر الذي يملك الآلاف اذا ربحت ألفاً آخر ؟ لأنك كنت تطلب هذا الألف وتشتهيه ، فجاء يسد مطلبك ، ويوافق شهوتك ، فمن هنا كانت سعادتك به ، ومن هنـا ألمك لفقده ،

على حين أن التلميذ الذي لا يبلغ أقصى أمله أن يمتلك عشرين قرشاً لا يألم ان لم يربح هذا الألف ، بل هو لا يفكر فيه ، أفليس التلميذ ذو العشرين قرشاً أغنى بها منك ياذا الآلاف بآلافك ؟ !

والموسر الغني الذي يملك عشر عمارات يألم ان عرضت للبيع عمارة أخرى ولم يقدر على شرائها ، على حين أن الموظف الصغير الذي يسكن غرفة بالأجرة لا يجد هذا الألم ، وينام ملء جفونه في الليلة التي يتقلب فيها الموسر من الأرق أسفاً على العمارة التي أضاعها ، أفليس الموظف بغرفته المأجورة أغنى منك يا صاحب العمارات بعماراتك ؟ !

والفاسق الذي قارب مائة غانية وراقصة يألم اذا جاءت راقصة جديدة فلم يحظ بقربها ، ويبيت الليل مسهداً من أجلها ، ويبذل حر ماله وماء وجهه في سبيلها ، وينغص عيشه من بُعدها ، على حين أن التقي الذي لم ير في عمره الا امرأته ، لا يأبه لها ولا يدري بها ، أفليس هذا التقي أسعد بامرأته الواحدة منك يا ذا الخليلات ويا زير الراقصات ؟ !

ان الحياة النفسية كدفتر التاجر ، ليست العبرة بضخامة أرقامه ، ولكن بالباقي بعد الجمع والطرح ، فالذي يملك مليوناً ويطلب منه مليون ، مثل الذي لا يملك شيئاً ولا يطلب منه شيء ، والذي نال من دنياه كل لذة ... وهيهات ! مثل (الدرويش) السائح في البرية الذي لا يطلب الا لقمة يسدُّ بها جوعه وجرعة يبلُّ بها جوفه ، وأرضاً يلقي عليها جنبه ، ومعه رغيفه وركوته ، وله أرض الله الواسعة ... ان هذا هو أسعد السعداء ، لا لأنه نال من الدنيا كل شيء ، بل لأنه حقرها عن أن يطلب منها شيئاً . فمن قنع أسعده الأقل الأقل ، ومن طمع لم يسعده شيء مهما جلّ ، لأن النفس تطمح الى اللذة ، فان وصلت اليها ، أبطلت الألفة اللذة فتطلب غيرها ... انك أيها الفقير تسعد لو ركبت يوماً سيارة الغني ، ولكن الغني ذا السيارة لا يحسُّ هذه السعادة بها . انها عنده كالترام عندك ، بل ربما كان الترام أمتع لك ، بل ربما اشتهى هو

أن يركب الترام ، كما يشتهي المترف صاحب المائدة الملوكية أكلة فول على التراب !

ان الله (جلّت ودقّت حكمته) لم يجعل السعادة في مال ولا نشب ولا متعة ، ولكنه جعلها صلة خفيّة بين الأشياء وصاحبها ، فلا تأخذوا الأمور على ظواهرها ، فان المريض الزّمِن لو حمل من الألم ما تظنه أنت حامله ما عاش ، والغني لو نال من اللذة ما تحسب أنه نائله ما وسعته الدنيا ، ولكن العادة تبطل اللذة والألم ، وتهوّن السجن على السجين ، والحرب على المحارب ، وتجعل الخليفة الذي كان في قصره عشرة آلاف غادة من جميلات الأرض حشرن اليه حشراً ، مثل الذي في بيته امرأة واحدة ! انما اللذة التي لا تفنى ولا تنقص لذة القلب ، لذة التأمل ، لذة المتعبد في هدأة الليل ، والمناجي ربه في الأسحار ... ومن هنا قالت طائفة الصوفية : « لو ذاق الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف »... اي والله وبالمدافع والرشاشات !

ذلك هو النعيم المقيم ، ولكن ذلك شيء لا يفسر ولا يعرّف :

لا يعرف العشق الا من يكابده ... ولا الصبابة الا من يعانيها

انها تمر على المتعبّد ساعات في كل لحظة منها لذة تفضل لذة (الوصال) كما تفضل الشمس الشمعة ، والبحر الساقية ، ومن ذاقها عرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « حبّب اليّ من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ليس معناه أن نبيّنا مولع بالنساء — كما فهم دوابّ المستشرقين — ولكن سرّ المعنى في قرن الطيب والنساء ، وهما من لذات كل نفس بشرية بالصلاة ، ثم رفعها عنهما ، للدلالة على أن الصلاة لذة ومتعة ولكنها أسمى وأعلى ...

ان مردّ ما تجدون من عرام الشهوة وشدتها الى أمرين : حب الغلبة ، والتطلّع الى المجهول . يسمع أحدكم أن فلاناً من الفسّاق قد صنع كذا

من الآثام ، فيتصور ما نال باثمه من اللذائذ ، فيمتد أمله الى تذوق مثله لعلّ فيه لذة جديدة ، وتأبى عليه غريزة المكافحة والتغلب أن يبقى محروماً مما نال فلان هذا ... وهو لو فكّر ، لعلم أنما اشترى فلان لنفسه الحرمان من لذة أنقى وأبقى هي لذة الآخرة ، ولسكت عنه الاغراء وذهب الألم ، وما يألم لفقد المعصية الا من جعلها أكبر همه ، وترك لنفسه الحبل على الغارب ، فأطلقت الجوارحَ كلها في شهواتها : فالعين تنظر العورات ، والأذن تسمع أحاديث الموبقات ، والذهن يحفظ هذه الصور والذكريات ، والخيال يوشّيها ويزيّنها بالمبالغات ... فلا ينتبه الشاب الا والسمُّ قد مشى في جسده من تلك النظرة ، واذا هو قد نسي الدين والخلق ومطالب الوطن ، ولم يبق له في الدنيا عمل الا ابتغاء الوسائل الى لذته تلك ، فهي في فكره يقظانَ ، وفي أحلامه نائماً ، وعلى لسانه متحدثاً ، وهي دينه ان كان متديناً ، ودرسه ان كان طالباً أو معلماً ، وشغله ان كان موظفاً ... ولذلك أمر الله بغضّ البصر ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لك الأولى وعليك الثانية » ! ووصفت النظرة بأنها سهم صائب من سهام ابليس :

كل المصائب مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

* * *

يا أيها الناس ، لقد عشتم من عمركم سنين ، وعصيتم الله وأطعتموه ، فانظروا الآن ما ذا بقي من ذلك في أيديكم ؟ أين لذة المعصية ؟ لقد ولّت وخلّفت سواداً في صحائفكم ! أين تعب الطاعة ؟ لقد ذهب وترك حسنات كتبت لكم ! أفما تتمنون الآن لو أنكم ما عصيتم الله قط ؟ ! بل تخيّلوا أنكم في ساعة الموت ... هل من الموت بد ؟ ! فماذا تنفع من يعالج آلام الموت كل لذة كان قد نالها بجنب تلك الآلام ؟ ! ثم تصوروا موقفكم بين يدي جبار السموات والأرض ، وقد ذلّ الأعزة بالاثم ، وسيق المتكبرون الى العرض على الله حفاة عراة ، ونادى المنادي من

جانب العرش : لمن الملك اليوم ؟ ! وأجاب المجيب : لله الواحد القهار ! !
وكان الامتحان الأعظم ، ونودي بأسماء الناجحين ••• ففتحت لهم أبواب الجنة ••• وبأسماء (الراسبين) ••• ففضحوا على رؤوس الخلائق ، وقذفوا في النار فرسبوا فيها •••! أين يومئذ تلك اللذائذ ؟ ! أين متعة العين بهذه الراقصة ؟! أين لذة الجوارح بوصالها ؟! أين جمالها وفتنتها والصديد يسيل منها ؟!!

يا ناس ! ! ان لهذا الكون الهاً • ان في الكون عدلا • ان من زَنى زُني به ولو بجدار داره[1] ، أفما لكم بنات ؟ ! أما لكم أخوات ؟ !••• فعفّوا تعفَّ نساؤكم[2] ، انكم لا تدرون ماذا يكون في غد ، ولعل ابنة أحدكم تقوم هذا المقام ، فأشفقوا على هذه المسكينة ، فان لها أباً وأماً •• انها ما جاءت من جذع شجرة ! !

قال صديقي : لما بلغ الشيخ من كلامه هذا المبلغ ، سالت دموعنا رحمة للراقصة ، واشفاقاً عليها ، وصرنا تنظر اليها كما ينظر أحدنا الى ابنته يسعى ليسترها ويحميها ، بعد أن كنا لا تنظر اليها الا لنقطف زهرتها وندوبها ••• ولقد وفق الله بعد ذلك ، فأخرجنا المسكينة من هذه الحمأة ، وزوجناها برجل صالح ، فهي الآن ربة بيت وأم أولاد ! !

قال : حتى صاحب المرقص صار يتردد على الشيخ ، وأحسبه سيغلق مرقصه اليوم أو غداً ، ويجد لنفسه عملا شريفاً ! !

هذه هي قصة الشيخ في المرقص ! فيا ليت كل مرقص يدخله (شيخ) !

---

(١) حديث .   (٢) حديث .

قصة للتجربة

نشرت سنة ١٩٣١

خرج[١] من ادارة الجريدة فوقف يرقب هذا الخيط من نور الأمل الذي انبعث في ثنايا نفسه المظلمة اليائسة ، ويبتسم راضياً مطمئناً ، وما أقل ما انفرجت شفتاه عن ابتسامة ، أو انضمت جوانحه على اطمئنان ، وهو الذي مرّ بالجليل من المصائب والآلام ، ولم يمر بالمرحلة الثانية والعشرين من محجة حياته ... وطال به التأمل ، واستغرق فيه حتى تجرد من نفسه ، ولم يعد اليها ، الا على صوت شديد من بوق سيارة ، وسرعان ما شعر أنه هبط من سماء أحلامه ، ولامس الحياة مرة ثانية ، ولكنه لامسها هذه المرة لمس المتفائل الراضي ، لا المتبرم الساخط .

وقد كان طالباً في كلية الحقوق ، ولكن ميله الجامح الى الصحافة والأدب ، وحاجته الى المال ، كانا يقذفان به من جريدة الى جريدة ، ولا يجد في واحدة منها مايشبع نهمه الى الكتابة الأدبية ، وحاجته الى المال... وكاد ييأس من الصحافة ويدعها الى الأبد ، لولا أن زار اليوم ادارة (ألف باء) وطلب اليه رئيس تحريرها ، أن يأتيه بقصة للتجربة ليقرأها حتى اذا أعجبته ورضي عنها ، سلمه الصفحة القصصية في الجريدة . وكان هذا الوعد مبعث الأمل في نفسه ، لأنه سيلقى في هذا العمل الأدبي لذة وراحة ، وفي استقامة صاحب الجريدة وحسن معاملته خلاصاً من عناء الفقر ، والمطالبة الدائمة بالأجر .

فاحتثت خطاه الى الدار ليكتب القصة ، ثم بدا له أن ذهابه الى

---

(١) أي المؤلف ، وهي قصته هو يسردها كما كانت .

الكلية خير له ، اذ يثبت فيها وجوده ، ثم يعتزل الدرس لفكره فيدع الأستاذ يلقي ما شاء من نظريات ، ويشرح ما أراد من قوانين ، دون أن يتفهم من ذلك شيئاً ، أو يصرفه عن كتابة القصة ، ولم يكن يفكر وهو في طريقه الا بالسعادة التي تنتظره ، والآمال العذاب التي يرقبها ، من وراء هذا العمل ، أما القصة فكان يحسبها شيئاً هيناً ، لا يعوزه الا أن يمسك بالقلم ويفكر لحظة حتى يسعفه الموضوع ، وتنهال عليه الأفكار... ولماذا لا يحسبها كذلك ، وهو يكتب كل يوم قصة ، فلا يحتاج في كتابتها الى شيء من التفكير الطويل أو التنميق والتهذيب .

وبلغ الكلية في منتصف الدرس وكان درس الأستاذ (فلان) بك الذي يغضبه التأخر عن درسه ، ويسوؤه أن يدخل الطالب وسط الدرس، فيقطع عليه سلسلة أفكاره ، وكان صاحبنا يعلم هذا ، ولكن حاجته الى (الميم[1]) جعلته يتوقح فيقرع البـاب ثم لا ينتظر الاذن ، بل يدخل متجنباً نظرات الأستاذ المليئة بالسخط عليه ، والزراية به ، وينتحي ناحية فيجلس فيها ، لا يبدي حراكاً ، ولا ينظر الى أحد ، حتى اذا هدأ الصف من الضجة التي ثارت فيه اثر دخوله ، وانصرف الأستاذ الى محاضرته ، اطمأن فأخرج اضبارة من الورق ، وجلس يفكر في موضوع القصة .

ـ هذا موضوع جيد لقصة ، وقد بدأت بها أمس ، ولكنها لا تصلح لقصة التجربة ، التي يجب أن تكون ممتازة ، لا يقرؤها رئيس التحرير حتى يقوم من فوره فيعدو الى كاتب العدل ليسجل (العقد) .

وتصور منظر رئيس التحرير وهو يعدو في الطرقات فرآه غريباً فقال في نفسه :

... ولكني سأمنعه من العدو ؟.. ولكن هل يجب القصص الفاجعة

---

(١) ميم أي موجود ـ علامة حضور الدرس ولم يكن يقبل طالب في الامتحان الا بعدد من (الميمات) .

أو الملاحم (الدرام) ؟ وهل يميل الى الجنايات التي تشغل الجمهور ، أم يميل الى موضوعات الحب ؟ الحب ؟... انه سخافة ، أقول ان فكرة الحب في القصص سخيفة ، وهـــذه هي روايات الحب كلها منذ القديم الى الآن ، لا تخرج عن أن هناك محباً ومحبوباً ، وان هناك عذولا أو مانعاً من الموانع ، فيغلبـــانه أو يغلبهما ... هذا كل ما هنـــالك . انه شيء ممل .

وكان يكلم نفسه بادىء بدء بصوت خافت ، ولكنه ارتفع تدريجياً ، فجعل رفاقه ينظرون اليه ، وشعر بذلك الأستاذ فضرب بيده على المنبر ينبهه ... فسكت صاحبنا حيناً ، ولكن فكره كان يبحث في موضوعات القصص التي يتصورها عقله ، ليختار أحسنها وأروعها ، فيعرضه على رئيس التحرير ، ولم يلبث أن عاد يتم حديثه لنفسه بصوت مسموع .

ــ ... وهذا أحسن بلا شك ، اذ القصة الواقعة هي الفن بعينه ، وهل أحسن من الواقع فلماذا يفسده الشعراء بخيالاتهم البليدة ؟... انهم حمقى ، والشاعر العبقري هو الذي يكون راوية الحيـــاة الأمين ، الذي لا يزور أحاديثها بشروح من عند نفسه .

اذن فأنا ...

ــ يا أفندي ، انتبه من فضلك !

فانتبه حينـــاً ، ولكن بعينه ، أما ذهنه فلم ينتبه الا الى موضوعات القصص .... ثم ابتسم ابتسامة قصيرة وقال ..

ــ لقد وجدته ، لقد وجدته ... انه موافق يرضي رئيس التحرير ويرضي هؤلاء القراء الذين تتعب أنفسنا من أجلهم في غير ما طائل .

ثم خطر في باله أن هذا من الكذب المعتاد وأنه لا يتعب نفسه الا من أجل نفسه ، فضحك من هذه الفكرة ثم رأى أن ضحكه في الصف غير

مناسب ، وربما عد جنوناً ، فتلفت الى جانبيه فلم يجد أحـداً قد لحظه فاطمأن .

ـ ... نعم انها (أنانية) أن يفكر المرء في نفسه ، ولكن كل الناس (أنانيون) ، وكاذبون لأنهم اخترعوا من خيالاتهم أكاذيب لا وجود لها أسموها الفضيلة والتضحية ... اذن فلنكشف الستار عن أكاذيبهم ، وليكن بطل قصتي شخصاً نادراً ذا شخصية عميقة و ...

ـ يا أفندي ، عيب عليـك انت طالب حقوق ؟ شغلتنا عن القـاء المحاضرة ، عيب .. أقول لك .. عيب ..

وعجب صاحبنا لمـاذا يرفع الأستاذ صوته الى هذا الحد ، ولكنه عرف أنه نبهه كثيراقبل الآن ، فسكت على مضض .. ولم يحرك شفتيه حتى رأى الأستاذ قد انغمس من جديد في درسه ورأى من الصعب عليه أن ينتبه له فعاد يقول ..

ـ انني لم أجد صعوبة في شيء كتبته مثلما وجدت في هذه القصة ، وأحسبني لن أقدر على اتمامهـا .. ليتني لم أدخل ، لعن الله العلوم والقوانين كلها .

ـ تفضل اخرج ... اخرج من الصف .

ـ ولكن لماذا يا أستاذ .

ـ لأنه يجب أن تخرج ، أو دعوت الخادم لاخراجك .

فرأى أن لا بد له من ذلك ، فخرج من الصف متألماً ساخطاً ، وذهب الى داره فجلس الى مكتبه .

* * *

... ورفع رأسه فنظر في ساعته ، فاذا هي الثالثة بعد الظهر واذا هي أربع ساعات قد مرت عليه وهو جالس الى مكتبه في داره ، يسبح

في عالم موحش من الذكريات ، يحس فيه الظلمة والكآبة ، وقد تنبهت في نفسه ذكرياته المؤلمة التي حاول أن يلقيها في هوة النسيان ، فشغلته عن كتابة القصة بل عن التفكير في نفسه ، فتمطى ومال في كرسيه الى الوراء ، ثم تثاءب وأغمض عينيه ليحجب عن ناظريه هذه الصورة المؤلمة ، فوجدها قد ازدادت وضوحاً ، ووجد هذا الخيط من نور الأمل الذي بعثه وعد رئيس التحرير في نفسه ، قد اختفى في عالم من الظلمة والرهبة ، ونظر حوله فلم يجد الا ركام الجرائد التي كان يعمل فيها ، فيوافيها كل يوم بمقالة يعتصر نفسه من أجلها اعتصاراً ، ويصب فيها ماء قلبه ، فلا يزيد القراء على قراءتها قراءة المتسلي اللاهي ... فمقتها من أعماق قلبه وأحس انها سبب شقائه ، فقام اليها حزيناً يجمعها حتى اذا أصبحت أمام الباب ، أشعل فيها النـار ، ولمح شهادة البكالوريا معلقة فوق رأسه ، فأخذها بيده ووقف ينظر فيها ، على ضوء هـذه الشعلة ، التي تلتهم ثمرات فكره ، وبنات فؤاده ، ثم لم يلبث أن ألقاها وسط اللهيب بحركة عصبية ، وانصرف الى مكتبه .. فكتب على بطاقة هذه الكلمات :

سيدي رئيس التحرير :

لم أقدر على كتـابة شيء فاذا كان لابد من قصة التجربة ، فهاكم قصتي ... وانها لتجربة قاسية .

منزلي هو منزلك

« قصة مقتبسة عن (F. Duviard) تمثل آراء هؤلاء الأوربيين الذين يعيشون بيننا ، ويأكلون خبزنا ثم يجزوننا عن الكرم لؤماً وعن المعروف نكراناً » .

نشرت سنة ١٩٣٤

الشرق . آه على الشرق

همست الفتاة بهذه الكلمات ، وقد رأت رودلف ڤالنتينو في رواية الشيخ .

وكان بيير أزناي المدرس في تجهيز ڤالاند ، قد طوّحت به الحاجة مرة الى مصر فكان معلماً في المدرسة العلمانية الفرنسية ولبث فيها عشر سنين ، ثم عاد الى فرنسا منذ عشرة أشهر ، وليس في جيبه شروى نقير ، ولم يربح الا حكايات وتجارب حملها معه من الشرق ، فلما سمع مقالة الفتاة اغتنم الفرصة فقال :

ـ الشرق يا سيدتي ؟ هل تحبين أن أقص عليك حادثة وقعت لي فيه ، انها مأساة هازلة عن الصداقة العربية . كان في مدرستي الفرنسية عشرون معلماً أوربياً ومعلم واحد عربي ، عربي قح ، ذو وجه أسمر مستطيل ، يلبس القفطان والجبة الواسعة ، ويبدلهما كل يوم بلون جديد ، وهو مدرس للغة القرآن ـ الاجبارية في مصر ـ ومعرَّض دوماً لاحتقار الأساتذة الأوربيين الذين يرون أنفسهم أرفع منه ، فلا يتنازلون الى مصاحبته .

أما أنا فكنت أحييه التحية المعتادة لا أبالي بسخط زملائي ودهشتهم ،

ولا بدهشته هو المسكين الذي ما كان يجرؤ على رد تحيتي الا بابتسامة عريضة ، ونظرات ملؤها العطف والاحترام ، ولا تمتد صحبتنا الى أكثر من هذا ، لأنه لا يعرف كلمة من الفرنسية ، ولأنني أجهل العربية الا المائة كلمة التي لا بد منها للسير في الشارع مثل (عندك هنا عربجي) و (اسمع فين شارع فؤاد) ثم شاء القدر أن نلتقي مرة في شارع فؤاد صباح يوم من ديسمبر حار ملتهب كأنه الظهيرة من اغسطس في فرنسا ، وكان معه ابن عم له أقل عروبة منه ، له المام بالانكليزية الا أننا لم نكن نتفاهم الا بصعوبة ، وكان علينا أن نفترق ، ولكن رغبتي في تعرّف الحياة الشرقية وضجري من الوحدة أبقياني معهما . والفضل في بقائي لابن عمه هذا .. وللغته الانكليزية (وأي انكليزية ؟ .) ولم تكن الا أيام حتى كنا أصدقاء .

* * *

كان طيب القلب ، بسيطاً محبباً ، ولكن فيه شيئاً من العنجهية والجفاء ، وكنا نذهب كل خميس وكل أحد الى النزهة جميعاً : أنا وهو وابن عمه ، فنزور المعاهد والمتاحف في عربة أو سيراً على الأقدام .

وكان ابن العم كثيراً ما يتخلف عن الموعد ، هرباً من مهمته الشاقة في الترجمة بيننا ، فنبقى وحيدين وتصوري موقفنا اذ نسير جنباً الى جنب ونحن ساكتان ، تتبادل النظرات في ابتسامة ساخرة حزينة ، ونسلم على المارة ، وكنت قد تعلمت التحية العربية وهي الاشارة باليد الى الجبهة والشفة والصدر رمزاً الى ان الصداقة تشغل العقل بالتفكير واللسان بالنطق ، والقلب بالعاطفة وكان صاحبي يتعلم الفرنسية ، ولكنه كان يحفظ مقطعاً واحداً في كل ساعة بعد أن أردده عليه مرات ويعيده عليّ محرّفاً ، فأشكره بابتسامة .

وكنا اذا بلغنا مسجداً دخل هو ووقفت أنا على الباب أستشعر الزهو

بأنني رومي لا كالأروام ، وأنني صديق الشيخ ، وأنني تشرفت بالوقوف في عتبة قبور الصالحين •

* * *

وكان مساء السبت ، وكنت في المدرسة ، فدنا مني أحد الطلاب وأعطاني رسالة من الشيخ ، مكتوبة بالفرنسية التي يحسنها طالب صغير، ففتحتها فاذا بها :

« يا صديقي الغربي العالم الفاضل ، تفضل بالمجيء غداً الى داري الحقيرة ، لنتناول الغداء معاً ، واعلم أن منزلي هو منزلك • »

منزله منزلي ! ولكن من الظهر الى الساعة الرابعة ، وطعامه طعامي وكنت وا أسفاه مضطراً الى الاجابة ، لأن أي رفض مني يكسر هذا القلب الطيب ، ولا أنسى ما حييت تلك الأكلة المنحوسة التي يسمونها (الملوخية) ولا أنسى كيف يأكلون من غير صحاف ولا شوكات ، انما يغمسون خبزهم جميعاً في صحفة واحدة ، وكان عليّ أن آكل بأصابعي هذه الدجاجات المحمرة التي أكرمني بها ، وجعل نصيبي منها اثنتين ، وقد ذهبت من الدعوة رأساً الى الفراش ، فلبثت ثلاثة أيام مريضاً !

وتوثقت صداقتي مع الشيخ ، فعرّفني بالقاهرة وحياتها ، ولم يكن غنياً ، غير أنه لم يمكنّي من فتح كيسي مرة واحدة حينما أكون معه ، بل يكون السابق الى دفع الحساب المطلوب ، كنا نزور الأهرام ، ونجول في القاهرة وهي أشبه بعشرين مدينة مجتمعة منها بمدينة واحدة ، بل هي عالم لا بد من رؤيته من ثلاثة أشهر • أما أنا فقد لبثت فيها مع الشيخ مدة قصيرة وان أنس ذكراها لا أنس وقوف القطار بنا يوماً في المحطة ، ورؤيتنا قريب الشيخ ينتظرنا ومعه البلح والبرتقال والموز المصري الصغير وغير ذلك مما لا أدري من أين أتى به ، وما كنا نتحدث الا بالابتسامات والجمل المقطعة والاشارات ، وكانت صداقتنا صداقة صامتة تتكلم فيها القلوب لا الألسنة ، ولما اعتزمت العودة الى فرنسا ،

في منتصف تموز ، ودعني على المحطة وألقى عليّ نظرةً كلها حب وعطف ، وقال لي : الى الملتقى ! ولا تنسَ أن منزلي هو منزلك . ثم اختفى بين الجموع وأنساني البحر الواسع ، وشواطىء الوطن المحبوب كل ما عداهما .

فقالت الفتاة :

ــ أهذا هو الشرق ؟ يا ضياع أحلامي !

فهز الأستاذ كتفيه ، وعاد يقول بصوت خافت : وبعد أمد من رجوعي عينت مدرساً في مدرسة ماجيدي الثانوية في الألب ، فلبثت فيها مدة ، وتزوجت فيها ، وكنت جد مشغول بأمور المدرسة ، حتى انه لم يكن في وقتي ساعة واحدة خالية ، واذا أنا ذات يوم أفاجأ بكتاب عليه خط رديء ، وطابع من طوابع مصر ، ففتحته فاذا هو من الشيخ ، واذا هو يخبرني بمجيئه مع امرأته وولديه ليقضي عندنا عدة أيام ، كأنما جاء يتقاضاني بدل ما أحسن الي ، وتصوروا وقع هذه المفاجأة على امرأتي التي أغمي عليها من شدة الدهشة ، ولم أجد بداً من الانغماس في هذه المهزلة ، ولا سيما وأنهم أبحروا دون انتظار جوابي .

نزلت الى مرسيليا أنتظرهم ، فوجدت شيخاً غريباً في سراويل متهدلة وطربوش ، ومعه امرأة ضخمة ، على رأسها منديل أسود والى جانبها بنت صغيرة ، واتفق أن تفتحت أبواب السماء يومئذ فهطل المطر غزيراً ، حتى شعرنا أن السماء قد هبطت على الأرض ، فدخلنا مقهى قريباً ، ولكن البنت ارتاعت منه ، فملأت الدنيا بكاءً ولم تشأ السكوت ، وأخيراً أزفت ساعة القطار فركبناه الى ماجيدي ، والناس يرمقونني يحسبون أني أنقل الى البلد (سركاً) غريباً ، وبلغنا المنزل ، فكان استقبال زوجتي بارداً ، وجاءت ساعة الطعام ، فلم تألف أيديهم الأكل بالشوكات والصحاف وانتشروا بعد الطعام في قاعة الأكل وفي الغرف

المجاورة • وبكى الطفل بكاءً شديداً ، وبكت زوجتي أيضاً ، ووقعت أنا في حيرة بينهما فلعنت الشرق ومن شاد بذكره •

ولما كانت صبيحة الغد سمعت وأنا نائم أصواتاً غريبة تمتزج بأحلامي، فصحوت فاذا بزوجتي ترقص أمام السرير ، وتغني وتصيح : لقد سافروا يا بيير ، لقد سافروا !

ونظرت فاذا الشيخ قد ترك لي بطاقة صغيرة ، فيها جملة واحدة عربية ، حملتها الى من يترجمها لي ، فاذا بها :

ــ وداعاً ! لقد علمت الآن أن منزلك ليس منزلي •

مسكين

نشرت سنة ١٩٣١

كان أبداً متفرداً حزيناً لا يرى في النهار أبداً ، فاذا كان الليل رأيته يمشي متسللا بازاء الجدران ، يتتبَّع الظلام ، حتى يبلغ مقهى اللونابارك — حيث عرفته هذا الصيف — فيجلس في زاويته التي لم يكن يغيرها أبداً ، ويسلم رأسه الى كفيه فلا يرفعه الا ساعة يسأله النادل عن طلبه ، فينتبه وينظر في وجهه بعينين زائغتين تتبين فيهما غالباً أثر الدمع ولا يقول شيئاً . فيعيد عليه السؤال في شيء من الشفقة والرثاء ، أو ينصرف فيحضر له أي نوع وجد ، ولا يبالي أن يكون شاياً أو هاضوماً (كازوزاً) أو قهوة ، لأن الرجل يتركه على المائدة دون أن يمسه ، ويعود الى غيبته وذهوله . ويبقى على حالته تلك الى أن يذهب الناس كلهم ويخلو المكان ، فيمر عليه النادل (الكارسون) فيوقظه في لطف ولين ، فيقوم صامتاً ويمشي ..

كانت هذه حاله التي ألحظها كل يوم ، لم تتبدل قط في تلك الشهور الثلاثة ، التي كنت أتردد فيها على اللونابارك ، وكنت أتأمله ذاهباً شتى المذاهب في تفسير آلامه وهواجسه ، ولكني لم أجرؤ مرة واحدة على الاقتراب منه ، أو سؤاله ، لما ركب في طبعي من تهيب ملاقاة الناس ، بل لم أحاول يوماً من الأيام أن أتصل به بسلام أو كلام .

ثم تبدل النادل بآخر جديد ، مر على صاحبي مرة ولم يكن معه شيء من المال ، فارتبك وتحير ، ورأيت ذلك فأشرت للساقي أن الحساب عليّ ، فتركه وانتبه صاحبي لما فعلت ، فلم يزد على أن ألقى علي نظرة

بلهاء ، أردت أن أفهم منها معنى الشكر ، فرددت عليه بابتسامة صغيرة ، قطب منها وعبس ، ولما قمت سمعت صوته ، فتلفت فاذا هو يناديني ·· فوقفت ، فقال لي من غير سلام وفي لهجة لم أستطع أن أتبين أهي تأنيب أم شكر :

ـ هل لك أن تقول لي ما الذي دفعك لهذا ·· لهذا الفضول ؟

فارتبكت ولم أدر بماذا أجيب ، ولكني نجوت من الجواب على كل حال لأنه تابع كلامه دون أن ينتظر مني كلمة واحدة ··

ـ ··· احسبك قد خفت علي الفضيحة ··· ولكنك مخطىء ، فأنا لا أخاف شيئاً ، لقد حملت من الآلام ما ينوء بأمة بأسرها ، ولم ··· ما فائدة الكلام معك ؟ اياك أن تعود لمثلها مرة ثانية ، أفهمت ؟

وكنا قد بلغنا المطعم العربي فقلت :

ـ ان من طبعي الا أفهم اذا كنت جائعاً فهل تحب أن نأكل أولاً ثم نتحدث ؟

ـ قال : تعني ؟··

ـ قلت : تفضل ، لنتعش أولا · أظن انك ستتكرم بالدخول معي ·

ـ نعم !

ودخلنا ، فأكل كمن لم يأكل منذ شهر ، وكنت أتأمله متعجباً ، احاول أن أنفذ ببصري الى سره ، فاذا رأيته ينظر الي تشاغلت بالأكل ، حتى شبع فأشعل سيجارة واستلقى في كرسيه ومال به الى الوراء ، ورفع نظره الى السقف وراح يتكلم بصوت عال لا يبالي بأحد من الحاضرين ، حتى جعلهم جميعاً ينظرون الينا ·

ـ قال : لقد رفعتني الآلام على أجنحتها السود ، فأصبحت أري

الدنيا ضيقة مظلمة ، ليس فيها سعة الأمل ، ولا نور الحب .

... لقد مر على ذلك أربع سنين كاملات ، ولكني أحسست كأنها دهر طويل لما مر عليّ فيها من آلام ، وأحسست كأنها لحظة واحدة ، لأنها لم تبعد عني شبح تلك الحادثة ، التي لا أزال أحس كأنها وقعت منذ ساعة ، لم أنس حركة من حركاته ولاأزال أذكر الأمكنة التي حل فيها ، والكلمات التي قالها بل أنا أذكر كل لحظة مرت عليّ منذ عرفت أمه الغادرة ، ليتني أقوى على لفّ هـذه الذكريات في رداء النسيان ، ان أكثر ما يؤلمنا في الحياة هو ذكرى الملذات كما يقول دانت ، أما ذكرى الآلام ... اني لا أدري ماذا أقول ؟

* * *

لقد رأيتها وأحببتها من النظرة الأولى ... لقد كان ذلك على رغم هؤلاء الذين يقيسون العواطف وهي شيء من عالم السماء ، بمقياس من عقولهم الأرضية ، فينفون الحب من النظرة الأولى ، ويأتون للتدليل على رأيهم القائل ، بألوان من السخف والبلادة ... ولكن مالي ولهم ؟ لقد رأيت عينيها الصافيتين كالسماء ، العميقتين كالبحر ، وأنفها الصغير الجميل ، وشفتيها الورديتين فأحببتها وكانت ... اني لا أزال أحس بها بين شفتي . لقد كانت شفتها السفلى كالوردة الحمراء مهيأة أبداً للقبلة .. كان فيها السر الجذاب ..

وسكت ونفخ في دخينته ثم عاد يقول ..

... لقد أحببتها حباً خالط روحي ودمي ، وأحسست معه بأنها جزء متمم لنفسي ، وانه لا حياة لي الا بها ، ولا سعادة لي الا بالاقتراب منها ... ولكن كنت مصوراً حقيراً ، وكانت امرأة غنية يحفّ بها كثير من ذوي الثراء ، كما يحفون بكل (ارتست) أخرى .

لقد كانت على درجة عالية من السلّم الاجتماعي ، وكنت في أسفله ،

والصعود عليه لا يكون الا بساقين ، من نفاق وتدجيـل ... لا أزال أذكر يوم وفرت بعضاً من دخلي القليل ، واختلستفرصة من غفلة الناس وقدمت لها طاقة من الزهر ، فيها صورة لها بريشتي ، استوحيت فنها من جمالها ، فجاءت غاية في الجمال الفني .. وخرجت مسرعا قبل أن أسمع كلمة واحدة منها فلما انصرف الناس عدت الى المكان الذي تركتها فيه ، فاذا باقة الزهـر مقطعة ذاوية واذا الصورة على الأرض وعليهـا آثار قدميها العزيزتين ... وسكت ..

ـ ثم ماذا ؟ ان قصتك تستحق النشر .

ولكنه لم يرد عليّ ، ولم ينظر في وجهي ، ولبثت سـاكناً مدة ثم انطلق يقول ..

* * *

عند ذلك عرفتني وأقبلت عليّ ، فعرضت صورة أخرى بلغت فيها غاية المجد الفني وجعلت اسمي ملء الأفواه والأسماع ، وجعلتالجرائد تتبارى في التحدث عن هذا الفنان العظيم ، فتسابق المترفون الى اقتناء الصورة .. ثم اشترتها وزارة المعارف وجعلتني مدرساً للرسم بمرتب كبير .

.... وتزوجتها وتحملت اسرافها راضياً ، وهجرت لأجلهـا أهلي وأسرتي لأنها أبت أن تعيشمع شرقيين همج ، وكنت أجد السعادة بقربها على رغم ما أجده منها من متاعب وهموم .. ثم تجسمت علاقة الحب بيننا غلاماً جميلا ، كنت أرى في عينيه سعادتي وهنائي ، وكنت آمل أن أحيا فيه بعد موتي ... لولا أنها ... لا لن أقول شيئاً ، لقد كانالذنب ذنبي أنا الذي أختار الزواج بأجنبية .

* * *

ثم قام فمشي لم يودعني ، ولم يشر الي ّ بسلام فلحقت به مأخوذاً أصيح به :

ـ الخاتمة .... الخاتمة ... يا سيد .. يا أستاذ .

وهو لا يرد علي ّ حتى قطعت معه شوطاً غير قليل وتبرم بي فوقف وصاح في وجهي مغضباً ..

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ خاتمة القصة

ـ ألم تدركها يا أبله ؟ لقد فرت مع عشيق لها من بني قومها ، وبعثت تخبرني انها ملت الحياة مع شرقي جاف مثلي ، وان الولد ليس ولدي . ولم أقع لها بعد على خبر .

نهاية الشيخ

نشرت سنة ١٩٣٤

... رفع الشيخ صوته مرة ثانية يأمر التلاميذ بالانصراف ، ولكنه لم يسمع لهم ركزاً ، فنظر فاذا المقاعد كلها خالية ، واذا آخر تلميذ قد بلغ الباب الخارجي ، ثم قفز فرحاً مسروراً وغاب في منعطف الطريق ، وعمّ المدرسة السكون .

فتنفس الشيخ[1] الصعداء ، وألقى عصاه جانباً ، ثم تمدد على كرسيه المستطيل ، يستريح من العناء الذي حمله في نهاره ، وكأن هذا السكون العميق ، وهذه الصفرة التي تبعثها في الغرف أشعة الشمس المحتضرة قد ملآ نفسه كآبة ورهبة ، فأغمض عينيه ، وأسلم نفسه لخيالاتها :

أحس كأن هذه السجف التي أسدلها دون الماضي ، ترتفع سجافاً سجافاً ، وان هذا الماضي البعيد الذي لفه في ثوب النسيان ، وألقى به في هوّة العدم ، قد استفاق في نفسه مرة واحدة ثم عاد يكرّ عليه كما يكر « شريط السينما » ، ولكنها سينما حياة طويلة ، مرت عليه كأنما هي يوم واحد أو بعض يوم ، سبعون عاماً جازت به في لمحة عين ، فلم يأخذ بصره فيها الا العمل المستمر في تعليم صبيان دمشق سبعون عاماً

* * *

(١) هو معلم الشام شيخنا الشيخ عيد السفرجلاني رحمه الله ورضي عنه كان أبي تلميذه ثم علّم في مدرسته وصرت أنا من بعد تلميذه ثم كنت معلماً في مدرسته .

لم يسترح في خلالها الا أيام الجمع ، ثم يعاود عمله منذ صباح السبت » هادئاً راضياً نشيطاً .

عادت به الذكرى الى ذلك اليوم الذي بدأ فيه حياته التعليمية ، وكان غض الشباب ، يقطع مرحلة العشرين ، وكان يوماً بعيداً طوى فكره للوصول اليه ثلاثة أرباع القرن ، وأدار الفلك راجعاً سبعين دورة ... يا لقدرة الفكر البشري ! كيف يدير الفلك كما تدير الاصبع عقرب الساعة تقديماً وتأخيراً ؟

كانت المدرسة التي استأجرها غرفة واحدة ، في (المناخلية) قبالة الباب الحديدي الذي بقي في قطعة من السور ، تراثاً لدمشق المفتحة الأبواب لكل طامع ، من دمشق المنيعة المتحصنة بسورها وبسالة أبنائها من كل طامح ، وفي هذا الباب نفحة من نفحات الغساسنة (العرب الخلص) يحسها من يجوزه ، كما يحس من يجوز الباب الشرقي روح خالد بن الوليد ، بطل عصره ، وأنيبال[1] العرب ، وكما يحس من يمر من باب الجابية روح أبي عبيدة بن الجراح ، ولم يكن هذا الباب معروفاً بباب المناخلية كما يدعى اليوم ، بل كان يدعى بالباب المسدود[2] ، وقد كان قبل أن يسد الباب الرسمي لملوك الغساسنة ، وكان يقابل قصر البريص ، حيث كان الغساسنة الكرام الحسب الشم الأنوف :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

* * *

ذكر كيف لبث نهاره كله منفرداً لم يجيء اليه تلميذ واحد ، وكيف أسرع المساء بالعودة الى داره . قبل أن يقفل العسس أبواب دمشق ، وبواباتها التي كانت تغلق منذ العشاء ، أيام كان الناس جادين مستقيمين ، لا يعرفون ملاهي الغرب ورذائله ، ولا يعرفون احياء الليل في الفاحشة ،

---

(١) هاني بعل . (٢) وهو باب الفرج .

وقتل النهار في الكسل وكيف كان قوي الأمل ، جم النشاط ، لا يخالط اليأس قلبه ، فلم يَنثنِ عن عزمه . وغدا في اليوم الثاني الى مدرسته التي أنشأها في البلد الذي لا يعرف القراءة الا اثنان في الألف من سكانه ، فجاءه خمسة تلاميذ ، وشرع يعمل ، لم يكن الشيخ يحمل شهادة ، ولم يكن في دمشق كلها من يحمل شهادة البكالوريا أو الكفاية ، ولكنه قد أتقن العلوم الاسلامية والعربية ، وثابر سنين طويلة على (الطلب) حتى ألمّ بالثقافة العامة المعروفة في زمانه الماماً حسناً . وانصرف للتعليم ابتغاء لمثوبة الله ، واجابة لرغبة نفسه ، فلما جاءه هؤلاء التلاميذ ، رأى فيهم تحقيقا لحلمه فأكب على تعليمهم وتهذيبهم .

وأشرقت نفسه بذكراهم ، فانطلق يدعو لهم ويترحم عليهم .

لقد كانوا أشرافاً عاملين ، ثيابهم سابغة وحركاتهم وأفعالهم فياضة بالرجولة ، وحياتهم مقصورة على البيت والمدرسة ، لا تعرف الرذيلة الغربية طريقاً الى نفوسهم ، ولم يكن الغرب قد غزانا بأزيائه وملاهيه وأبنائه المستعمرين ، وأبنائنا الذين علّمهم العلم والعقوق ، وأعطاهم السلاح ولقنهم كيف يقتلون به (التقاليد) الشرقية الشريفة ، فكانوا بمنجى من هذا كله .

لقد هاجت الشيخ ذكرى أولئك التلاميذ الذين أصبحوا اليوم شيوخاً ، ومات منهم من مات ، أين هم من تلاميذ اليوم المتأنثين المتخنثين الذين يتقنون التجمل ويغوصون في الملاهي القذرة الى أعناقهم ؟.

وازدحمت في ذاكرته الصور المؤلمة ، فرأى كيف كان يتلقى الفوج من تلاميذه أطفالاً ، فيعلمهم ويربيهم ويجعل منهم شباباً عاملين ، ثم يودعهم بعد أن يوليهم من نفسه أسمى ما يولي والد ولده ، فيغادرون المدرسة ، ليدخلوا الحياة ، ويرتقون من مقاعد النظارة الى خشبة المسرح ، ويحسبون أن هذه الشهادة غاية العلم ، وهي فاتحته ، وأنهم اذا نشروها ، طويت لهم المراتب الى الصدر ، وقدم لهم من كل شيء ما يشتهون ،

لا يدرون أن للحياة فناً غير فن الكتب ، وفي العلم آفاقاً لا تحيط بها المدرسة ؟ وكيف كان يلبث الأيام الطويلة يستوحش بالمدرسة والمنزل ، ويحس بالفراغ في قلبه بعد أن اقتطع منه كل فوج قطعة ، ويتألم ويجفوه النوم ، فلا يعلم الا الله بألمه ، ثم يستعين بالله ويستأنف العمل مع تلاميذه الجدد ، ويحاول أن يجد فيهم بدلاً مما فقد ، حتى اذا نضجت الثمرة خرجت من يده . وكان حظه من هؤلاء حظه ممن سبقهم : ينسونه مذ يتخطون بأقدامهم عتبة الباب ، وينصرفون عنه اذا لمحوه في طريق ، مصعّرين خدودهم ، شامخين بأنوفهم ـ وهم التجار الأغنياء ، أو الموظفون الكبار ، أو الوجهاء الكرام ـ على هذا الشيخ المسكين (معلم الكتاب) . أحد عشر ألف تلميذ ، أحد عشر ألفاً ، علمتهم وأفنيت فيهم حياتي ، فذهب تعبي فيهم أدراج الرياح . وفتح عينيه فوقع بصره على مرآة كانت الى جانبه فنظر فيها وأطال النظر كأنما قد انتبه الآن الى لحيته البيضاء الناصعة ، والى انه جاز التسعين ، فاسترجع مرة ثانية ، وسأل الله حسن الخاتمة .

* * *

ـ سقياً لتلك الأيام الهنيئة ، حين لم يكن في دمشق الا تلك المدرسة ، ومدرسة الشيخ الصوفي . أما الآن فالمدارس تعد بالمئات ، ولكن الناس لا يميلون الا للمدارس الاجنبية ، انهم يضنون على مدرسة كهذه المدرسة تقدم أبناءهم للفحص الرسمي العام ، وتحفظ لهم دينهم ووطنيتهم بعشرين قرشاً في الشهر ثم ينفقون مائتين وثلاثمائة في المدارس الفرنسية أو الايطالية أو الانجليزية ، ليعود اليهم أبناؤهم فرنسيين أو طلياناً أو انكليز ... اِه ، الحمد لله على كل حال ، الحمد لله ... اننا نجد ثمن الخبز .

واتنبه فاذا الباب يقرع قرعاً متواصلاً :

ـ ادخل تفضل ... ممَّن هذا الكتاب ؟

ـ من وزارة المعارف •

قرأ الشيخ الكتاب أولاً وثانياً ، وقرأه مرة ثالثة ، فغشيت وجهه سحابة أليمة من الغم ، ثم قام الى مكتبه صامتاً فأخرج دفتراً كبيراً مسح الغبار عنه ، وأخذ يقلبه يفتش عن هذا الاسم ، بين أحد عشر ألف اسم حواها هذا الدفتر ، فلما وجده تناثرت الدموع من عينيه • وارتمى على كرسيه محطماً •

ـ أهذه خاتمة المطاف ؟ • اِه ••• الحمد لله على كل حال •• الحمد لك يا رب •• انه تلميذي علمته ومنحته قسطاً من قلبي ، وعلمت أباه من قبله ، وعلمت ابنه من بعده ، ولكن لا بأس ، ان أمور المعارف بيده ومن حقه أن يفعل ما شاء ، وعاد فقرأ الخطاب للمرة الرابعة :

« ••• ولما كان يشترط فيمن يدير مدرسة ابتدائية أن يكون من حملة البكالوريا • ولما كنتم لا تحملون شهادة ، فان الوزارة تذكركم بوجوب تعيين مدير لمدرستكم مستوف الشرائط القانونية خلال شهر واحد من تاريخه ••• »

وأحس كأن قلبه يثب الى عينيه ، فيسيل دموعاً تقاطرت من لحيته البيضاء ، ثم قال :

ـ الحمد لله على كل حال • وقام الى صلاة العصر •

على ثلوج (حزرين)

قال لي صديق :

خطر لي من سنوات أن أرى لبنان في الشتاء ، ولبنان في الشتاء له فتنة الراهبة الصبوح بجلبابها الأبيض الذي لا يبدي من جمالها الا قليلا يثير الرغبة في الكثير ، كالجرعة من الكأس لا تبل الصدى ولكن تزيد العطش ، والفصل من الرواية لا يغنيك عنها ، ولكن يشوّقك اليهـا ، فرحلت بالسيارة مع جماعة من الاخوان من بيروت الى عاليه ، حتى اذا بلغناها ، تركنا الطريق المعبد الذي يمرُّ على بحمدون وصوفر ، وصعّدنا في الجبل ، نمشي على غير طريق ، وكان الصعود أول النهـار سهلا ، وكنا أقوياء أولي نشاط ، فما قارب المساء وجاوزنا قرية (حزرين) حتى توعّرت السبل ، وتبدّدت القوى ، وتشابهت المسالك ، فلم نعد نرى من حولنا على مدِّ البصر الا ذرى متعمّمة بالسحاب ، وتلالاً مكسوّة بالثلج ، تبدو القرى في سفوحها البعيدة ، وكأن بيوتها المتفرقة بمداخنها ، بواخر تمخر العبـاب ، فجعلنا نفتش عن طريق نعود منه ، فلم نجد الا ثلجاً منبسطاً ، يخفي السبل ويغطّي الأرض ، فلا تتبين مواضع الهوّى لنتجنبّها ، ولا نرى الحفر لنحيد عنها ، فلم تكن تمر لحظة حتى نقع في حفرة ، أو نقدم على السقوط في هوّة ، فآثرنا التفرق علّ واحداً منـا يرى منزلا فيدلّ عليه اخوانه ، وأظلم الليل ، وانفردتُ في مهامه الجبل ، واختلطت عليّ الأرض بالسماء ، والتقى الثلج بالسحاب ، وهبّت الرياح متجمدة من القرّ ، كأنها المبارد الخشنة ، تحمل برَداً ثقيلا جعل يسّاقط على وجهي ، كالرصاص المندفع من الرشاشات .

وألهب الخوف أعصابي وان كان البرْد يجمد أطرافي ، وصوَّر لي الوهم أشباحاً مرعبة تحيط بي ، فكنت أعدو هارباً منها حتى تكلّ قواي ، فأقف لأستريح قليـلا ، فأحسُّ كأن جنيّاً جباراً يسوقني فأعود الى العدو ... وطال المسير وطال الليل ، وتهت فما أهتدي الى منزل ، وتاه الفجر فمـا يهتدي الى مطلع ، ونفدت قواي وحطمني الجهد ، فتمنيت الموت وعزمت عليـه ، وجعلت أفتّش عن واد أتردّى فيه ، فرأيت من بعيد نوراً خافتاً ، يحاول أن يخترق حجب الظلام ، فيعجز ويرتجف كأنه مقرور مثلي يقضقض عظامه القرّ ، وأعصابه من التوتر والفزع كالأسلاك المحماة بالنار ، أو كأنه خائف مثلي من الوحدة في هذه الأعالي الموحشة فهو يرتجف من الخوف ، فأسرعت اليه اسـراع المشرف على الغرق في اللجة الهائجة الى السفينة المنجية يرى ضوءها ، أو الى الشاطىء الآمن يبصر مناره ، وهبطت وادياً كأنما تعزف فيه الشياطين من أصوات رياحه ، ثم صعدت جبلا كأنه من استوائه صرح قائم ، حتى وصلت الى النور ، فاذا بيني وبينه سور كأنه كان يوماً ... سور حديقة ، فعـالجت بابه لأفتحه فاذا هو صديء المفاصل كأنه لم يفتح من دهور ، فحططت عليه بمنكبي ، ودفعته دفعة الآيس ، فصرَّ صـريراً مخيفاً ، رددته هـاتيك البطاح ، فكان له مائة صدى انبعثت كلهـا معاً ثم حملتها الرياح الى بطون الأودية ، وعـاد السكون ، فولجت أحسب أن الرحمة في باطن البـاب ، الذي كان في ظاهره العذاب ، واذا أنا بشبح أسود يثب الى وجهي ، ويتعلق بي ، وله صوت لم يقع في أذني أفظع منه ، فنظرت اليه وقد شل الفزع أعضـائي ، وسمِّرت قدماي بالأرض ، فاذا هو كلب ضـار ، يهم بأن ينشب فيَّ مثل أنيـاب الذئب الكاسر ، فتبلّد حسّي واستسلمت للقضاء ، وتوقعت الشـر ... ولكني رأيت الكلب يدعني ويبتعد عني ، قد دعاه صوت من داخل البيت فانصرف اليه مزمجراً ثم أقعى غير بعيد . ومشيت الى البيت فدخلت الى ردهة دافئة ، فيها كهل

وامرأة وشيخان عجوزان ، فسلمت فلم يردّ أحد منهم ، ولبثوا يحدقون فيّ جميعاً بعيون فيها الدهشة والبغضاء ، شاخصة لا تطرف ، كأنهم يرون فيّ مخلوقاً عجيباً انشقت عنه الأرض ، فلما طال ذلك منهم ، ملكتني الحيرة وأخذني من الخوف ما لم يأخذني وأنا معلّق بين السماء والأرض، تائه لا أعرف لي متّجهاً ، وهممت بالفرار ثم خفت أن يلحقني الكلب ، وذكرت الكلب فنظرت اليه فاذا هو رابض يزمجر يريد أن يثب عليّ فيكفّه الكهل بقدمه ، وتجلدت فقلت لهم :

— أنا غريب ضلّ في هذه الجبال حتى وقع عليكم ، وأنا أعتذر أن أزعجكم ، وأرجو أن تمنّوا عليّ بقدح شاي أطفيء به حرّ جوفي الذي ألهبه الخوف ، وأدفيء به أطرافي التي جمّدها البرد .

فنظرت المرأة الى الكهل نظرة لمحت فيها خليطاً من الحب والبغض ، والشفقة والرهبة ، ولبثت لحظة متسائلة ، فهز رأسه كالموافق ، فقامت تعدّ الشاي ، وألقيت بنفسي على مقعد قريب من النار ، وجعلت أسارق القوم النظر ، فأرى الكهل قوياً متين البناء ، لم يجاوز الخمسين ، ولكن الهمّ الذي تبدو عليه ظواهره قد شيّخه قبل أوان الشّيوخة[1] ، وأرى المرأة في نحو الأربعين ، ذات جمال وادع قد حجبه ستار من الكآبة والغم ، فهو يضيء من ورائه كما تضيء الحلية النفيسة من تحت الغبار المتراكم ، وجاءت بالشاي فشعرت وأنا أشربه أنه يمشي في عروقي كما يمشي الريّ في النبتة الذاوية تسقيها الماءَ ، ثم قلت لهم : هل تأذنون لي أن أرقد ما بقي من الليلة على هذا الكرسي ؟

فقال الكهل بيده أن لا ، وأشار الى الخادم الشيخ ، فسلك بي ممرات وجاز أبواباً كأنها ممرات قصر كبير ، لا كوخ منقطع في رأس جبل لا يبلغه جنّ ولا بشر ، حتى دخل بي بهواً فسيح الجوانب ، تفوح منه

(١) الشيوخة هي الشيخوخة .

رائحة القدم والهجران ، أحسست لما ولجته أني ولجت جوف مقبرة من المقـابر ، فوضع الشمعة التي كان يحملها على المـوقد ، وأحنى رأسه وخرج ، وتلفت فرأيت الشمعة قد رسمت ظلالا على الجدران صورها لي الرعب شياطين ذات قرون وأنياب فذهبت الى الباب أريد الخروج فوجـدته مقفلا عليّ ، فلعبت بي ظنون السوء ، وزاد بي الفزع حتى رأيت الجدران تنأى عني ، والمكان يكبر ، ووجدت أن الأرض تدور بي ، فصرخت ، فعاد الخادم الشيخ فقال : مالك ؟

فاستحييت أن أقول له اني خائف . فقلت : ألا تتكرم بايقاد النار ؟

قال : ان الموقد لم يستعمل من عشرين سنة .

قلت : كيف تهملونه عشرين سنة ؟

قال : لقد أهملنا البهو كله ، منعنا هاني أن ندخله بعدها ؟

قلت : بعد من ؟

فانتبه وقد كان غافلا ، ونظر حوله جزعاً يخاف أن يكون قد سمعه أحد . ثم قال لي :

ـ تصبح على خير .

وانحنى وخرج مسرعاً .

وغطّى التعب أخيراً على مخاوفي ، وخفق رأسي ، فجئت الفـراش لأنام فاذا عليـه أرطال من الغبـار ، فنفضته فهبت زوبعة محملة تراباً فأغمضت عينيّ وغصت في الفراش ، لم أعد أبالي من الونى أن يكون مثواي قبر أو مزبلة أو جحر ثعبـان . فلم أكد أغفي حتى سمعت مثل أصـوات المدافع ، تدوّي في أذني فتبدد النـوم من عينيّ ثم ضعف الصوت حتى سمعت منه وأنا بين النائم واليقظان : هـاني . هـاني . ففتحت عينيّ ، فرأيت الفجر قد بدا ، ورأيت الرياح تحرك باب النافذة

فيكون منه هـذا الصوت ، فأغلقته ، ولكن الصوت لم يبرح يطنُّ في أذنيَّ ينادي : هاني . هاني . فذهبت الى آخر البهو ، وهو يلاحقني ، فعاودني الفزع فصرخت ، حتى سمعني أهل الدار كلهم ، وأقبل الكهل مغضباً يقول : ما هذا ؟ قلت : هل في هذه الدار مَن اسمه هاني ؟ ففتح عينه وقال : ولِمَهْ ؟

ـ قلت : صوت لا يفتأ ينادي ، هاني . هاني .

ـ قال : سمعته ؟ أنت سمعته ؟ أهو صوت امرأة ؟

وجعل يهزني كالمجنون .

ـ قلت : نعم .

فأرسلني وفتح الباب ، وعدا يخبُّ في الثلج ...

ولحقته المرأة كأنها تحاول ردَّه ، ولكنها وقفت في الباب ، وألجم الخوف لسانها فلم تنطق ولكن نطقت عيناها ، فأباتتـا ، وأطلَّ منهما الحب لحظة ثم ارتد ، كما يرتد عن النور سجين طال عهده بالظلام ... وقرأت في وجههـا صحائف تاريخ لم أفهم منها شيئاً ، فتركتها وأقبلت على العجوز ، وقد انتحَتْ ناحية تبتسم ابتسامة غريبة ، كأنها تقول : أنا أفهم ما لا تفهمون ، وأنتظر من زمان هذا الذي ترونه الآن وتعجبون منـه !

فأشرت اليها أسألها .

قالت : سأحدِّثك . سأشرح لك . انه تاريخ طويل ختم في هـذه اللحظة . انهـا قصة هائلة مشت بأحاديثها الركبان ، وكتبتها الأقلام ، وصورتها (الأفلام) وصارت من روائع الأدب ، لقد مثلت على هـذا المسرح قبـل أن تمثل في (السينما[1]) ولكن انتهت الرواية ولم يزح

---

(١) مثلت باسـم (مرتفعات وزرنج) . (قالوا) وهي محـرفة عن (حزرين) .

الستار ، فلبث الممثلون حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ؟ وعيون النظّار تكاد تأكلهم . تصوَّر ثقل هذه اللحظات وشدتها ، انها لا تحتمل وان كانت لحظات قصاراً ، فكيف ان دامت عشرين سنة ...

عشرين سنة ونحن نعيش بلا عمل ، ننتظر أن يرخى الستار على هذه المأساة التي مثلناها ، فلم يزح الا الآن ...

ـ قلت : وأين ذهب الرجل ؟

ـ قالت : ذهب يلبي نداءها .

ـ قلت : وأين هي التي كانت تناديه ؟

ـ قالت : لقد ماتت !

ـ قلت : ماتت ؟ وهل يرجع من مات ؟ !

ـ قالت : نعم ان في الوجود قوة ترجع الموتى : انها قوة الحب . فان كنت في شك فاستمع قصتها :

* * *

قالت :

بدأت هـذه القصة منذ أربعين سنة ، ولم تكن هـذه الضهور[1] موحشة مقفرة كما تراها اليوم ، ولم يكن القصر مهجوراً خرباً ، بل كان حافلاً بالأنس ، فيـاضاً بالنعيم ، يمرح فيه الصِّبا ، ويضحك الطهر ، وان كان قد خـلا من هيبة السلطان ، وهجره الجند والأعوان ، بعـد ما قضى بـ (مذبحة عين داره)[2] الأمـراء التنوخيون سـادة الجبل ،

---

(١) الضهور جمع ضهر : وهو ظهر الجبل من عامي لبنان الفصيح .

(٢) يسأل عن خبرها الرجل الذي لم يبق من سلالة الأمراء التنوخيين الا هو وآله صديقنا الاديب الكبير أبو قيس عز الدين علم الدين التنوخي ، وهو الذي قصَّ عليَّ هذه القصة ، وعنه رويتها .

ودالت دولتهم وذهبت أيامهم ، فلم يبق لسيدي الشيخ ناصر رحمه الله (مشيخة) بعدهم على هذي البقاع ، وكان هو (شيخها) وحاكمها ـ فما خلا من النبل والفضل ، ولا هجره العافون ولا الوافدون ، بل كانوا يؤمّونه أبداً فينصرفون وقد حَفِل وِطابُ كل واحد منهم بما يشتهي وما يريد من مال الشيخ ومن طيب قلبه ، ونبل نفسه ، واشراق وجهه ، فكان مجده في عزلته أكبر من مجده في امرّته .

وكانت ربّة القصر قد مضت جميلة طاهرة كزنبقة الجبل ، شابّة ناضرة كطلائع الربيع ، وكانت تنشر عطر الحب أينما سارت فتترك حبّها في كل قلب ، فلما تولت أبقت في كل قلب أعطر الذكريات ، وأحرّ اللوعات ، ورعى سيدي الشيخ عهدها ، وحفظ ودّها ، فلم يحلّ محلها من قصره أو فؤاده امرأة غيرها ، ووقف نفسه على ولديها : علاّم وليلى ، فكان لهما من بعدها أباً وكان لهما أماً ، ولم يكن في القصر امرأة الا أنا ، وكنت غضّة الاهاب ، ريّانة الشباب ، فكنت أقوم على خدمتهما وتربيتهما .

وكنا نعيش سعداء لا ندري ما الهموم ، ولا نسأل عن الغد ، كنا كالمسافر يقف على العين الباردة ، يتمتع بالماء العذب ، والظل الظليل ، ثم يسير لا يحمل معه قربة من ماء ، ولا يتزود زاداً ، لأنه لا يعلم أن الطريق أمامه شمس كله وعطش وجوع وضلال ، ولا بدّ له من سلوك هذا الطريق ...

كانت حياتنا كالبركة الساكنة ، ولكن الأيام ألقت في بركتنا حجراً كبيراً ، أزعج سكونها ، وعكر ماءها ، فلم تصفُ من بعدُ أبداً ، وكان الحجر الذي رمتنا به الأيام غلاماً قذراً حمله سيدي من أزقة بيروت ...

وهنا تبدأ القصة التي أروي لك مقاطع منها ، لأنها لا تروى كلها ، ومن يستطيع أن يروي قصة حب ، بكل ما فيها من عواطف وأفكار ، وآلام وآمال ؟

ان النفس البشرية أعمق من البحر ، فمن دخل البحر غرق فيه فلم يخرج منه ليخبر عما رأى ، ومن وقف على الشاطىء لم يلمس منه الا الزبد الذي يحمله اليه الموج ، وان أعظم القصص التي كتبها الأدباء ، لم تكن الا زبداً يلقيه الموج الى الشاطيء ، أما اللجَّة الكبرى فلم يصل اليها قلم أديب ، ولا غاص على جواهرها ، ولا وصل الى عجائبها .

هل رأيت الأفق عند الغروب ، والشمس تلوّنه كل لحظة بلون ، تخلق فيه عجائب لم تعرفها الأرض ثم تبيدها وتأتي بغيرها ، وتخطُّ فيه خطوطاً سحرية بألوان ما عرفها الفنُّ ثم تمحوها وترسم سواها ، كذلك النفس البشرية ، انها تبني وتهدم في (الثانية) من الأفكار والعواطف ، والخواطر والتأملات، ما يعجز أدباء الأرض جميعاً عن حبسه في القرطاس. فكيف يصف حياة امتدت أربعين سنة ، من عجز عن وصف حياةٍ ثانية واحدة ؟ وكيف يصوّر ألوان النفس الخفية من لم يستطع أن يصوّر ألوان الأفق الظاهرة ؟

ان الأدباء لم يأخذوا من قصص الحياة الا حوادثها ، وما الحوادث ؟ ما خطرها ؟ انها جسم القصة ، فهل رأيت محبّاً يقتل حبيبته ثم يعانق جسدها يحسب أن الجسد هو الحبيبة ؟

* * *

أروي لك حوادث هذه القصة وأدع لك أن تفهم ما وراءها ، وأن تلمس بيد بصيرتك روحها حتى لا تكون جسماً بلا روح ، وأن تسمعها بأذن نفسك لا بأذن رأسك ، فان النفوس متشابهات وربَّ اشارة أو كلمة أدلُّ عند النفس من كتاب ضخم عند العقل .

بدأت حوادث هذه القصة يوم عاد سيدي الشيخ من بيروت راكباً فرسه ، اذ لم تكن قد وطئت حرم الجبل الأشمّ هذه السيارات ... وقد لفَّ عباءته على غلام وضعه بين يديه لا يبدو منه الا رأسه ، فلما وصل

كشفها عنه فاذا غلام (شحّاد) عمره نحو عشر سنين ، وسخ الجسم ، قذر الأسمال ، فقال لنا :

ـ اني وجدته في رأس بيروت يهمّ بأن يلقي نفسه في البحر فحملته معي

وجعل الولد يتفلّت منه كأنه قطّ وحشي يريد أن يفرّ من الصياد ، فشدّ يده عليه ، ودفعه اليّ وقال لي :

ـ خذيه فأطعميه .

وياليته تركه يرمي بنفسه في البحر ، أو يا ليته خلّاه ليهرب ولا يعود ، اذن لما شقينا به ولما شقي بنا أربعين سنة كوامل ، لم نستمتع فيها بشباب ، ولم نعرف فيها السعادة ولا الاطمئنان .

وسحبته من ذراعه ، وهو يحاول التملّص مني ، ويعضّ يدي ، وينطحني ويثبت قدميه مستعصماً بالأرض كالتيس العنيد ، حتى بلغت به المطبخ ووضعت له الطعام فأكل أكْلَ من لا يخشى الفزر[1] ، فلما شبع عدت به اليه وكان يحدث الولدين ويدفع اليهما هداياه التي طلباها منه : القيثارة للصبي والسوط المرصّع اليد للبنت ، فلما رأته ليلى ، قالت :

ـ بابا . انه قذر .

ورحمته . أما علام فقد أبغضه منذ اللحظة الأولى .

فقال لي سيدي الشيخ :

ـ خذيه فاغسلي جلده ، وألبسيه .

ففعلت فرأيته قد استحال انساناً آخر ، وخيل اليّ أني لمحت على

---

(١) الفزر من العامي الفصيح .

وجهه وميض نبل قديم ، فلما أنعمت النظر فيه وجدته قد انطفأ وعاد وجهاً عادياً لغلام وضيء رائع المحيّا •

وعدت به الى الشيخ ، فسرّ به وقال :

ـ لقد أسميته (هاني) وجعلته مني كولدي •

ونظرت الى الولد فأبصرت عينيه تلمعان ، ثم رأيته يسرع الى الشيخ فيخبيء وجهه في طيّات جبّته ويبكي ، يعبّر بالدمع عن الشكر الذي يقصر عن التعبير عنه اللسان •

وكانت ليلى ترمقه باسمة ، أما علاّم فكان يأكل قلبه البغض ويجلّل وجهه الغضب •

* * *

ومرت الأيام ، وألفته ليلى اذ كان في مثل سنها وألفها ، أما علام فلم تزده له الأيام الا كرهاً ، وكان الشيخ قد اشترى لكل من الثلاثة فرساً ، فأقبل علاّم يوماً على هاني وكان يساير بفرسه ليلى ، فقال له آمراً :

ـ انزل عن الفرس وهاته ، فان فرسي قد أصابه العرج •

فأبى ، فسبّه وأخذ الفرس منه قسراً ، وآلمه عدوانه عليه ، وأنساه كرم الولد أصله ، وأنه لقيط من الطريق ، وأن (علام) هو الولد والوارث والفرس فرس أبيه ، وأنه أكبر منه سناً ، وأقوى ساعداً ، فهجم عليه يريد أن يسترجع الفرس منه فضربه علام على وجهه وصدره ، ثم أخذ حجراً ضخماً فرماه به ، فشجه وكاد يقضي عليه ، لولا أن أقبلت ليلى تدافع عنه بسوطها ، تنزل به على وجه أخيها حتى حجزته عنه •••

في هذه اللحظة ولد المخلوق الجبار الذي اسمه الحبّ •

أشفقت عليه ، وشفقة الفتاة على الفتى الجميل بذرة الحب تختفي في قلبها ، فلا تحسّ هي بها ، كما تختفي حبة الصنوبر الصغيرة في

حدور الجبل تطؤها الأقدام ، وتتجاوزها الأبصار ، ولا يدري بها أحد ، ثم لا تلبث أن تكون شجرة باسقة الفرع ، ممتدة الأصل ، شامخة الهام .

وجعلت تواسيه فيعرض عنها ، يستحي برجولته (الصغيرة) أن تراها كليمة مهزومة ، وهي تلح عليه ، حتى قالت له :

ــ هلم نقطف (أزهار الجبل) .

فأبى . فرفعت ذيلها وانحنت له متشبهة بالعقائل على عادتهن في تلك الأيام ، فاستلت بدلالها غضبه ، وابتسمت فأنارت بابتسامتها قلبه ، فأطاعها وغلبت أنوثتها رجولة الرجل ... ولا تزال المرأة غالبة ما حاربت بالأنوثة ، فان زهدت فيها وحاولت أن تجاري الرجل في ميدانه ، وتسابقه في حلبته ، وتقاتله بسلاحه ، اصطكت ركبتاها ، وكلت قدماها ، وعجزت يداها ، وسقطت .

ومسحت دمه ، وعصبت جرحه ، وأركبته فرسها ، ومشت به الهوينى ، تلقي في أذنه كلاماً من كلام الطفولة العاشقة ، يرفعه في عين نفسه ويحقق فيه عندها ما تتمناه هي في رجل أحلامها ، ولكل بنت حلم ولو كانت بنت عشر ، ولا يخلو حلم بنت من رجل ، ولو كان (رجلا) ابن عشر ! حتى اذا اقتربا من هذه الصخرة التي تراها قائمة على شفير الوادي ، كأنها قلعة من قلاع الجن ، أمامها خندق لا تبلغ قرارته الشياطين ، ولا تصل الى ذروته المردة ، قالت له :

ــ اسمع ما أنت بالوضيع ولا اللقيط ، أنت سليل الأمراء التنوخيين ، أنت الذي نجا يوم (عين دارة) وهذا قصر أجدادك .

فنظر مشدوهاً ، وقال : هذه صخرة !

ــ قالت : كلا . أنعم النظر انها قصر أجدادك ، وهذا الفارس

الأسود بالباب يمنعك من دخوله فخذ هذا السيف واعدُ اليه فاقتله ، اعدُ ... اعدُهْ ...

ـ قال : هذا سوط !

فصاحت متحمسة ، وضربت الأرض دلالاً بقدمها ، وانتثر شعرها الذهبي ، وزادها الغضب جمالاً على جمالهـا ، فأراه غضبها الصخرة قصراً ، والسوط سيفاً ، وأي رجل لا تخدعه الجميلة عن الأوهام حتى يراها حقائق ، ولا يندفع من أجلها اذا دفعته الى المهالك ؟

وعثر به الفرس ، وكاد يهوي الى الأعماق المظلمة ، ولكنه قفز الى الأرض ، وانطلق يقارع بسوطه الهواء ، وهو يرى أنه يجالد الفـارس الأسود ، حتى اذا قتله ... مسح سيفه من دمه ... ووضع قدمه على عنقه ... وصرخ بها صرخة الظافر ، فأقبلت اليه وقالت :

ـ أنت الملك ، وأنا أمتك .

ـ قال : بل أنت مليكتي .

وانحنى أمامهـا فقبّل يدها ، وذهب يقطف زهور الجبل ليصنعها لها تاجاً ...

ونما الحب الوليد فجأة ، فكانت له قوة هذه الصخرة وسموُّها ، وله طهارة هذه الثلوج ونقاؤها ، وله خلود هذه الجبال وبقاؤها .

* * *

قال صديقي :

وسكتت العجوز حيناً ، ثم قالت لي :

ـ انظر الى ما تحت قدميك .

فنظرت واذا أفتن منظر وقعت عليه عينا سائح وأبدعه .

قالت :

ــ هذا هو المشهد الذي كنت تراه في ظلام الليل أسود مخيفاً ، يبعث الرعب ، ما تبدّل ، ولكن غابت عنه الشمس فاستحال جماله قبحاً ، وكذلك الدنيا : تكون في عين سوداء وفي عين بيضاء ، وتكون يوماً حلوة حبيبة ، ويوماً مرّة كريهة ، ولقد اسودّت دنيانا منذ مات سيدي الشيخ ، وغربت عنها شمسه المضيئة فشملها الظلام ، وذهبت منها حلاوة نفسه ، فصارت مرة لا تطاق .

تبدلت (الدنيا) مذ مات ، وشب الصغار ، فلم يعد في القصر ثلاثة أطفال يلعبون قد ساوى بينهم كرم الوالد ، بل سادة وخدم ، وظالم ومظلومون ، صار علاّم سيد القصر ، فكشفت منه السيادة عن نفس عبد ، وأظهر السلطان منه طبع سوقة ، فاستبد بأخته واستأثر بالخير من دونها ، وجعل هاني خادم الاصطبل ، وسائس الخيل ، يمسك له فرسه ، وينحني له ليضع نعله الدنسة على كتفه ليركب ، ويعدو معه في ركابه ، ويذيقه ألوان الذل ، ويتعمّد أن يحمله صنوف الأذى ، وهو صابر من أجل حبّه ، وهي ترى هذا فيقطع نفسها حسرات ، ويمزق فؤادها أن ترى حبيبها و (ملكها) ذليلاً ممتهناً ، ولا تدري ما اللذة ولا تعرف طعم الحياة الا اذا غاب الأخ ، فهرعت الى الصخرة تسبقه أو يسبقها اليها ، فألقت بنفسها بين ذراعيه ، ما تبالي حطّة منزلته ولا وساخة بزّته ، لقد كانت هذه الصخرة ملاذهما ، وعش هواهما ، يستندان اليها ، فاذا الصخرة التي كانت صمّاء خرساء ، قد عاشت بالحب ، وَعدتها حياته الخالدة ، فصارت قلباً كبيراً أحنى من قلوب الأمهات ، ولساناً أحلى من ألسنة العشاق ، وعز كل شيء حواليها وغلا ، فالشمس عندها أضوأ في عينهما من شمس القصر ، والليل أعذب ، والورد أعطر ، والثلج أطهر ، وكان يحسّ وهو معانقها أن هذه السفوح المتسلسلة الى سيف البحر ، وهذه القرى المنثورة على السفوح ، وهذه الأحراج المطيفة بالقرى ،

وهذه السواقي المنبثقة من الأحـراج ، وهذه الذرى العالية ، وهـذه الحدور المتتالية وهذا البحر العظيم الذي يمتد حتى يصعد الى السماء أو تنزل هي اليه ، فيكون البحر سماء والسماء ماء ـ كل ذلك ملك له وحـده !

ويشعر بالقوة قد ملأت نفسه حتى كادت تتفجّر نشاطاً واندفاعاً ، وبالعاطفة يكاد يتمزق من طغيانها قلبه ، وأنه لم يعـد يحتمل السكون والانطواء على نفسه بعد ما حركه الحب ، فهو يريد أن يصنع المعجزات، أن يزيح الجبال ، أن يكون قائداً فيفتح بحبها الأرض ، أن يكون شاعراً فيملأ بوصفها الأسماع ، أن يكون كاتباً فيخلدها بروائع الآداب : بكل مقالة هي أعظم من قلعة يشيدها ملك ، وأمتن منها بناء ، وأعلى ، وأبقى على وجه الدهر ، تتخرّب القـلاع وهي باقية ، وتنسى أسماء الملوك ، وأسماء قائليها درر في صحائف التاريخ ، وجمال للماضي ...

وتنالها من خمرة الحب مثل نشوته ، وتغيب معه في سكرة الغرام ، فتهمس وشفتاها على خده :

ـ هل في الدنيا أسعد منا يا هاني ؟ هل في الوجود متعة أعظم مما نحن فيه ؟

ـ فيقول : نحن الوجود يا ليلى ، نحن المحبة والمحبة سرُّ الوجود . هذه الصخرة مارست هنا منذ الأزل الا لنأوي اليها ، هـذه السفوح ما بسطت الا لنطلَّ عليها ، والقمر ما طلع من وراء الأفق الا لينظر الينا ، والنجوم ما أطلّت من فُرَج السماء الا لتناجينا ، والفلك كله يدور من حولنا . نحن قطب الوجود ، أنا وأنت يا ليلى . لقد كنـا متحابين من قبل أن نلتقي ، وقبل أن نولد ، وسنبقى متحابين بعد أن نموت ، وهذا هو الحب .

الحب أن يعرف الحبيبةَ قبل أن تقع عليهـا عينه ، وتسمع باسمها

أذنه : يعرفها في سبحات التأمل في ليـالي الوحدة ، في ثورَان الميل في أعصاب الشباب ، في خفقات القلب للجمال ، في تطلّع الفكر للمجهول ، في فراغ النفس ، في صراخ الأعصاب ، في كل فرحة ، وفي كل ألم ، وكل ذهول . هذا هو الحبُّ الضالُّ الذي لا يعرف طريق الحبيب .

ليس الحب ضمّة ولا شمّة ولا قبـلة ، الحب أن يرى المحبـوبة فيحسّ في نفسه جوعاً سماوياً اليهـا ، رغبة جـامحة في أن يفتح قلبه ويضعها فيه ويضمه عليها ، الحب أن تفنى هي فيه ، وأن يفنى هو فيها ، أن لا يفرّق بين الحبيبين الزمـان ولا المكان ولا الميول ولا الأهواء ، فيكون أبداً معهـا ، هواه هواها ، وميوله ميولهـا ، ويكون في رأسه صداعها ، وفي معدته جوعها ، وفي قلبه مسرّاتها ، وأحزانها ، وأن تكون له ويكون لها ، وأن يدخلا معاً مصنع القدرة الالهية مرة ثانية ويخرجا وقد صارا انساناً واحداً ، في جسمين اثنين . فأين تروي جرعات اللذائذ الحسيّة هـذا الظمأ الروحي ؟ ! انها كالخلّ للعطشان ، يشربه فيحرق أمعاءه ، ويزيد ظمأه .

ـ فتقول له : يا ليتنا نموت الآن يا هاني ، حسبنا هذه الساعة من العمر . أو يا ليت الزمان يقف فلا يدور أبداً ، ولا نعود الى القصـر ولا نرى الناس .

ـ فيقول : ما الناس ؟ وما القصر ؟ كله باطل ! كل ما عنـد الناس أوهام ! الحق هنا ، هذا وحده الحق ، هذا هو الواقع ، هنا الدنيا !

ويعجز النطق ، وتضيق اللغة ، فيتكلمان باللغة التي يفهمها البشر كلهم ، لأن لغة البشرية ليست لغة أمم ولا أقوام ، اللغة التي ليس فيها الا كلمة واحدة ولكن معانيها أوسع من كل ما حوت المعاجم ، اللغة التي لا يفهم الرجل عن المرأة ، ولا تفهم المرأة عن الرجل ، الا بها : لغة القبل ! وتكون وسوستها الخافتة أبلغ من كل ما قال الشعراء .

ولو استجاب لهما الكون فثبت الفلك ، ووقف الزمان ، لكانا أسعد سعيدين عرفتهما الأرض ، ولكن هيهات ... فالفلك دوّار ، والزمان سيّار ، والأيام لا تستقر على حال ، وربّ يوم يحمل محض السعادة ، يتبعه يوم يحمل الشقاء ، وربّ فرَحٍ بالولادة والموتُ مترقب على بابه ، ومسرور بالوصل والهجرُ متربص على أعتابه ، ولو كشف للناس الغطاء لضحك باك ، وبكى ضاحك ، واستحالت مآتم أفراحاً وأفراح مآتم .

لقد غابا عن الدنيا في عناق لذّ تهون معه الدنيا وما عليها ، وتدنو به الآمال حتى لا مأمل بعده الا أن يدوم ، ولكن الدنيا لا يدوم فيها شيء .

لقد وقف هذا الطفل الجبّار ، الذي ولد بلا حمل ، ونما بلا زمن ، يعبث بهما ، هـذا الطفل الذي اسمه الحب ... فلما شبع من العبث ، نام ، وترك الفتاة لشياطين اللهو والترف والغني تلعب بها ، كمـا تلعب بكل فتاة في الدنيا ، نام في صدرها الحب أو شبع .

ولقد كانت تستطيع أن تجمع الحب والغنى ، والعاطفة والمال ، لولا أن هـذا الطفل كان (على جبروته) أعمى لا يبصر ، أمسك بيد ليلى فانقادت له وهي لا تشعر ، ثم جرّها وهو يتلمس طريقه في الظلام حتى اذا وقعت يده على أول رجل لقيه ، عقد قلبهـا بقلبه ، عقداً شيطانياً بلا شرع ولا عقل ، وقال لها : هذا هو الحبيب .

وكان أوّل رجل لقيه هاني ، هاني الذي لا يستطيع أن يصعد اليها ليعقد له عليها عقد الشريعة والعرف ، ولا تقدر أن تنزل هي اليه ، ولولا أن سيدي الشيخ رحمه الله أشفق عليه فحمله معه ، ما علقت به ولا علق بها ، ولا كان هذا القيد الذي ألقاهما معاً في جحيم الدنيا .

أفرأيت كيف يعلّق القدر سعادة الناس وشقاءهم بأوهى الأسباب ؟.
حكمة الهية تخفى عن أفهام البشر !

* * *

هذا هو الحب : ثوب برّاق تحمله المرأة وتمشي حتى تلقى رجلا ، فتخلعه عليه فتراه به أجمل الناس ، وتحسب أنه هو الذي كانت تبصر صورته من فُرَج الأحلام ، وتراها من ثنايا الأماني .

مصباح في يد الرجل ، يوجهه الى أول امرأة يلقاها ، فيراها مشرقة الوجه بين نساء لا تشرق بالنور وجوههن ، فيحسبها خلقت من النور وخلقن من طين ، فلا يطلب غيرها ، ولا يهيم بسواها ، لا يدري أنه هو الذي أضاء محيّاها بمصباح حبه .

خدعة ضخمة من خدع الحياة ، خفيت عن المحبّين كلهم من عهد آدم الى هذا اليوم .

هذي هي حقيقة الحب ، فلا تسمعْ ما يهذي به المحبّون !

* * *

لقد قبضت ليلى على الحاضر ، وهي عند الصخرة ، واطمأنت عليه ففكرت في المستقبل ، فقالت لهاني :

ــ ماذا تنتظر يا هاني ؟ اذهب فاضرب في الأرض وعد اليّ غنياً قوياً ، فاحملني معك الى حيث تشاء .

ــ قال : كيف أفارقك يا ليلى ؟ كيف أعيش بعيداً عنك وأنت حياتي ؟ ولكن تعالي نذهب معاً .

ولو سمعت هذه الكلمة قبل لحظات ، قبل أن يشبع هذا (الطفل الجبار) وينام ، لوثب قلبها الى لسانها ليقول نعم ، ولانطلقت معه الى البحار لتخوضها ، والجبال لتقطعها ، ولكنها سمعتها والحب شبعان نائم ، فقالت له :

وكيف نعيش يا هاني ؟ ومن أين ننفق ؟ أننام على بلاط الشارع ؟ .

وتصوّر هذا المصير الذي لا يرضاه لها ، فذابت كبده رقّة عليها ، وقال لها :

ــ اذن أبقى معك ، وأحتمل كل شيء من أجلك .

وسكتا ، وتكلم في أذنها شيطان اللهو والترف ، وغمز فؤادها فنظرت تحتها ، فرأت أضواء تلمع في أوائل الليل تبدو من (عاليه) من بيت فارس أفندي طنّوس الذي عاد اليها من أمريكا وفي جيبه نقد جديد لم يألفه أهلوها ، وعلى جسده ثياب لم يلبسوها ، وفي رأسه أفكار لم يعرفوها ، ولمحت بريقاً وحركة فعلمت أنها حفلة من حفلاته الراقصة التي أرقصت أحاديثها صبايا الجبل وشبابه ، وأغضبت مشايخه وكهوله ، فاستطارت قلبها الرغبة في رؤيتها ، وقالت :

ــ هذا ما أبتغي ، هذا ما أريد ، فتعال ، تعال نرَها من قريب .

وسحبته من يده وانطلقت به ، يقفزان كغزالين روّعهما الصيّاد ، لا يشعران بقسوة الحجر ، ولا بصعوبة المنحدر ، ولا ببعد الطريق ، حتى وصلا (عاليه) وكانت دار فارس أفندي التي بناها على الطراز الأمريكي أول دار فيها . فوقفا على صخرة أشرفا منها على الدار ، وطفقا ينظران .

رأيا الأبهاء قد حفلت بنساء يلبسن الثياب الكواشف من الحرير ، ورجال يلبسون السراويل الضيّقة من (الجوخ) ، وهم يرقصون متخاصرين حيناً متباعدين حيناً ، ينقلون الخطا على رنّات العيدان ، وسجحات المزامير ، ورأت الرجال يأخذون بأطراف أنامل الفتيات وهم يحنون لهنّ رؤوسهم ، ويبدون اعجابهم فتخيّلت نفسها في هذا النعيم ، وتصورت هؤلاء الرجال ذوي السراويل الأمريكية الضيقة ينحنون لها ، وقابلت في أعماق سرّها بينهم وبين هاني ، ثم طردت هذا الخاطر ،

وأبعدته عن حسِّها وحسبت أنها تخلصت منه ، لم تدر أن (السوسة) بدأت تنخر جذع السنديانة الضخم !

ـ قالت : هل ندخل .

ـ قال : ومن أين ندخل يا ليلى ؟

ـ قالت : أريد أن ندخل . أريد أن ندخل

وألحَّتْ الحاح الولد المدلل ، فأطاعها ، وهل يخالف العاشق معشوقه ؟ انه لا يستحق اسم العاشق حتى يرى كل نزوة للمعشوق حكمة بالغة ، وكل رغبة فرضاً لازباً ، وكل نقيصة كمالاً ما بعده من كمال .

وتسلّق الجدار ، وهبط بها ، فلم تكد تستقر على أرض الحديقة ، حتى أحسَّ بها كلبان كأنهما ذئبان ، فوثبا اليها فأنشبا فيها أنياباً من حديد ، ولم يستطع هاني دفعهما عنها ، وأسرع القوم الى الصوت ، فرأوا المشهد ، رأوا فتاة ناضرة الصبا ، نقية الثياب ، وفتى قذراً ، فحملوها مكرمين ، وأمروا الخدم بالقبض على (اللص) ، فأمسكوا به ونزلوا عليه ضرباً حتى هدُّوه ...

ثم جاؤوا به الى البهو ، وكانت على كرسي والخادمات يعالجن جروح قدميها ، فاقترب منها فسألها أن تعود معه ، فاعتذرت بعجزها ، وزجره القوم ، فقام بينهم فاستنزل اللعنة عليهم ، وأوعدهم أنه سيرجع فيهدم هذه الدار على رؤوسهم ، وبصق على الأرض وذهب . وبقيت هي في الدار التي كانت تحنُّ اليها .

* * *

لا ، لا تلمها ان فكرت في الترف ، ومدَّت عينيها الى متع المال ، وهي عند الصخرة ، محراب الحب الأقدس ، وجرَّت هذا البلاء على

حبيبها ، فانه لا بدَّ للحبيبين من مشغلة فان لم يجداها ، وظلا متعانقين العمر كله والحب بينهما ، فانه يختنق .

وكيف يعيش الحبيبان ان اقتصرا على حديث الحب ؟ وهل في لغة الحب الا : (أحِبُكَ) و (أحِبُكِ) ؟ كررها عشرين مـرة تنم ... وهل في دنيا الحب الا العناق والقبل ؟ فهل تمضي الحياة تَقَبُّل وتعانق ؟ ألا تملُّ ؟ ألا تكل ؟ ألا تجوع ؟ ألا تظمأ ؟ ان حياة كهذه خير منهـا السجن ، وأحلى منها الموت ، وأولى بالعاشق أن يفر منها ولو الى سقر .

* * *

ذاقت ليلى في هذه الدار لذة الغنى ، وعرفت متعة الترف ، واستمرأت الرقص والغناء ، وتخطَّرت في الثياب الغـاليات ، وأصغت الى حفيف الحرير من أردانها ، والى منمقات الألفاظ من القوم العلية من حولها ، فتملك شيطان الترف روحها فأفسدها كما تفسد جراثيم السلِّ أجساد الأصحاء ، وشغلها بفقاقيع البحر عن جواهره ، وأبداها لها تلمع في أشعة الشمس فحسبتها أكرم من الجواهر وأغلى ، وزاغت من بريقها عيناها فلم تعد ترى وجه الحب ، ولم تعد تذكر الحبيب ، ولبثت شهراً كاملاً تتقلب في الحرير ، وتمشي على الذهب وهو ينام على الجمر ، ويخطو على الشوك ، حتى تمَّ شفاؤها ولم يبق بدٌّ من عودتهـا الى المنزل ، فحملتها العربة الفخمة ، تجرها الجياد المطهمة حتى بلغت بهـا الباب ، فنزلت منها ، وأقبلت على دنياها التي لم تكن تعرف غيرها ، ولا تطمح الى سواها ، فرأتها ضيقة مقفرة ، وأحست بأن قلبهـا قد بقي في تلك الدار ، فتمسكت بأسعد (ابن فارس أفندي) الشاب المهـذب الأنيق الذي رافقها الى منزلها ، تتذكر به الشهر الذي مضى كأنه رؤيا منام .

وانها لفي هذا الشعور ، واذا بهاني قد وقف أمامها بثيابه الوسخة ثياب الأصطبل ، فابتعدت عنه ، وضمَّت اليها ذيل ثوبها الأبيض ، ولم

تكن تعرفه من قبل الا في هـذه الثياب ، ولكن الحب كان (صابوناً) يزيل أوضارها ، وطيباً يذهب ريحها ، وصبغة زاهية تفيض عليها ، فأين الحب الآن ؟ انه نائم لم يفق بعد في قلبها ، لذلك أنكرت هذه الثياب ، وفرّت منها ، وأبدت الترفع والاستعلاء ، ولم تذكر الا أنها ابنة صاحب القصر ، وأنه صبيّ لقيط سائس خيول يقابل أدبارها ، ويرفع أقذارها ، وتألمت لدخوله عليها أمام أسعد ، ورأت في ذلك صغاراً لها في عينه وخافت أن يظن أنها ليست من طبقة الأكابر المتمدنين ...

غضبت لعدوان هاني على كرامتها ، وتخطّيه قدره الى محاذاتها ، ولم ير هو فيها الا الحبيبة قد لبست هذه الثياب التي تكشف مفاتنها التي يعبدها ، وأبدت أعضاءها التي يقدّسها ، لغريب عنها ، فغضب للحشمة الجبلية أن يذهب بها هذا التكشف ، وللحب أن يهينه هذا العبث ، وقال لها :

ــ ما هـذا ؟

ــ قالت : وأنت من أذن لك أن تدخل عليّ ؟

ــ قال : أنا ... من أذن لي ... يا ليلى ؟

ــ قالت : لا أسمح لك أن تناديني باسمي لقد عدوت حدّك .

ودخلت الخادم فقالت لهاني :

ــ امسك عربة أسعد أفندي .

ــ فصاح بها : ليمسكها هو .

وخرج مغضباً .

وقال أسعد : أنا لا أفهم ما صبرك على هذا الخادم القذر .

الخادم القذر ؟ لقد كانت هـذه الكلمة صرخة عالية أيقظت الحب النائم ، فقالت له :

ـ أنا لا أسمح لك ، انه صديقي ، لا أسمح لك ، أخرج من داري ، أخرج .

وتركته حيران مشدوهاً ، وانطلقت الى (صخرة الملتقى) .

انطلقت الى (الصخرة) حين لم تجد في دنياها كلها ، أحنى عليها منها ، وأروح لقلبها . لقد كانت ملاذها والحبيب راض مواصل ، والقصر عامر زاهر ، أفلا تكون مثابتها وقد غضب الحبيب ، وأقفر القصر ، ولم يبق لها في الوجود غيرها ؟

ولمن تلجأ وقد فقدت صدر الأب الذي كانت تهرع اليه كلما دهتها من الحياة دهياء لم تستطع احتمالها ، فتخفي وجهها فيه ، وتبثه شكاتها ألماً خفياً ، ونشيجاً خافتاً ، فيمسح دمع عينها ، ويرقأ جرح قلبها ، ويرجع اليها سكينة النفس ، وفرحة الحياة . وفقدته الى الأبد ، حين احتوته تلك الحفرة الضيقة على شفير الوادي ؟

ولمن تلجأ وقد أغضبت الحبيب ، الذي نما حبه في فؤادها ، وخالط لحمها وعظمها ، ونشأت عليه ، وعاشت به ، وكان منبع ذكرياتها ، ومجمع آمالها ، وغذاء روحها ؟

ولمن تلجأ وما في القصر ملجأ ولا ملاذ ... لقد أقفر من بعد سيده ، وضلَّ طريقه اليه المجد ، وانصرف عن أبوابه العافون والزائرون ، حين انصرف عن مطالب النبل الى مطارح الهوى ومشارب الخمر ، سيِّدُه الجديد .

انطلقت الى الصخرة ، وقد علمت لما تيقظ في نفسها الحب أن كل ما في الدنيا من متع المال ونعم الغنى ، هو للمحب كأحلام النائم ، لا يجد في يده اذا صحا حبه شيئاً منه ، وأنها كموائد الرؤى يفيق الرائي فلا يلقى لها في معدته أثراً ، ولا في جوارحه خبراً وماذا يفيد العاشق فقد

الحبيب أن يخطر بغالي الثياب ، وأن يأكل أطايب الطعام ؟ وهل تدفيء الثياب قلباً فيه رغبة الى دفء القلب المحب ؟ وهل تشبع الموائد نفساً فيها جوع الى ثمار الثغور ، وظمأ الى رحيق اللمى ؟

ولقد علمت الآن أن صخرة منقطعة مع الحبيب أجمل من قصور الأرض ، وساعة معه أطول من سني الدهر ، ونومة على فخذه أحلى من نوم على وسائد الحرير بريش النعام على سرير الذهب وشمّة منه واحدة أطيب من انتشاق العطور ، وأن خفقات قلبه عند العناق أعذب من رنّات العيدان ، وعبقريات الأغاني ...

ولما دنت من الصخرة نعش نفسها نسيمها ، وشفاها مرآها وأحست بعد حياة (الحضارة ...) في عاليه ، أنها كالغريق يخرج من الماء وينتشق الهواء ، ونظرت الى قصر فارس أفندي فلم تره الا نقطة ضائعة في هذه السفوح التي تمتد وكأنها لا آخر لها حتى تتصل بالبحر ثم يصلها البحر بالسماء ... فأحسّت أن قد صغر مكانه في قلبها كما صغر منظره في عينها ، ولم تعد تذكر الا أماسي الحب وليالي الوصل ، عند هذه الصخرة التي قدّسها الحب .

ووجدت هاني قائماً ، فأسرع اليها وأسرعت اليه ، وألقت بنفسها بين ذراعيه ، ما أحست وسخ ثيابه ، ولا شمّت قبح ريحه اذ لم يدع لها الهوى أنفاً يشم ، ولا عيناً ترى ...

وسكرت من رحيق الغرام وخيّل اليها السكر أن لها هذه الدنيا كلها التي تبصرها تحت قدميها ، وأنها أسعد فتاة فيها . وأنها قد أمسكت بكفها الأماني ، وقبضت على الأحلام ..

فانتصبت والهواء ينثر الحرير الذهبي من شعرها ، ومدت يديها وصاحت نشوى :

— املأ يدي من (أزهار الجبل) .

فراح يقطفها ويملأ منها يديها .

* * *

وهبط الليل رفيقاً حانياً ، فأحاطهما بذراعي أم حنون وردّ عليهما كل همسة حب كان قد سمعها منذ مر على الدنيا ، وكل وسوسة قبلة وطلع الهلال رقيقاً زاهياً فعرض عليهما كل مشهد غرام رآه منذ ولد القمر ، وكل منظر هوى ، فلم يجدا في حديث الليل ، وصور القمر ، الا تاريخهما هما ، وقصة حبهما ، وأفقر قصة في الحياة قصة الحب ، فهي تتكرر دائماً بمشاهدها وفصولها ، لا يتبدل فيها الا أشخاص الممثلين .

قصة ألفها هذا الطفل الجبار فضاق به الخيال ، وقعد به العجز ، فلم يستطع خلال ألف قرن من الزمان ، أن يزيد عليها شيئاً أو ينقص منها شيئاً ، فهي تمثّل في غابة بولونيا وفي مسارب هايدبارك كما كانت تمثّل في مغارات سرنديب ، وكهوف بابل .

وهو أبداً يعبث بالمحب ويسيّره على هواه ، ويضيق عليه دنياه حتى يجد صدر الحبيب يسند اليه رأسه أوسع من رحب الفضاء وأفسح من جو الأماني ، ويسوّد عليه عيشه فلا يبيض الا ان بدت فيه طلعة الحبيب ، ويزهده في المجد والجد ، فلا يجدّ الا لوصوله اليه ، ولا يرى مجده الا في رضاه عنه ... حتى اذا ملّ العبث ، عاد فنام ...

* * *

وعادت ليلى الى القصر وقد نام الحب في صدرها كرّة أخرى

واستيقظت فيه شياطين اللهو والترف ... وجاء أسعد يزورها واشتهت أن تلبس الثياب التي أهداها اليها . ما آثرت جمال الثياب على متع الحب ، ولكنها كانت كالغني يأكل الحلوى حتى يشتهي الزيتون ، ويسكن القصر حتى يستحلي الخيمة ، ويركب السيارة حتى يتمنى ركوب الحمار ... هذه هي النفس البشرية ، يطغيها الغني وينسيها

لذةَ النعمة وجودُها ، ولا تعرفها الا عند فقدها ..

لبست الثياب ونظرت في مرآتها ، ومرآة الحسناء من أدوات شيطانها ، فرأت في مكانها فتاة من فتيات بيروت ، وأعجبها جمالها وهذا الصدر البادي الى سفح النهدين ، وملتقى الثديين ، وذراعاها الى الكتفين ، ونظرت الى ثيابها الجبلية التي نضتها عنها ، والتي تستر كل شيء الا الوجه ، كما ينظر المرء الى دودة كانت عالقة به وتخلَّص منها ، وأحسَّت في نفسها الشوق الى الاطراء الذي ألفته في (عاليه) أذناها ، وترقبت قدوم أسعد ، واستطالت الوقت في انتظاره ..

ثم رأته يفتح الباب ويدخل ، فتهيأت لاستقباله ونظرت فاذا القادم هاني ..

وعاد الخصام ولكنه كان شديداً عنيفاً هذه المرة .. قال لها :

ــ ثقي يا ليلى أنك لا تحبينه ، وانما تحبين مظاهر الترف .

ــ قالت : وأنت ما شأنك بذلك ؟ ولماذا تدخل نفسك فيما لا يعنيك ؟

وامتد الجدال وأطلق لسانه في أسعد .

ــ فصاحت به : هو خير منك على كل حال . انه خير ممن يسأل الصدقة بيد قذرة ...

خدعتها ظواهر الحب الناعمة فنسيت الرجولة الخشنة الكامنة وراءهما ، فلم تقدرها ولم تحسب حسابها ، لعبت بالقنبلة لما غرَّها بريقها ولمعانها ، فلمست زرها فتفجَّرت ، لقد انقلب لما سمع هذه الكلمة من سبع الملعب (السرك) الأليف ، الى أسد الغاب الضاري ، لم يعذرها ، ولم يضع نفسه في مكانها فينظر ماذا يصنع وهو في مثل حالها النفسية ، وهاله أن تترفع عنه وكان يراها مثله ، لم يجد نفسه دونها لأن الحبَّ سوَّى بينهما ، والحب (مذ كان الحب) مظهره البذل وحقيقته الأخذ ،

ورداؤه الايثار ، وجسمه الأثرة ، وكان يحتمل منهـا كل شيء الا أن تمسّ رجولته ، كالمرأة تحتمل من الرجل كل شيء الا أن يحقر جمالها وأنوثتها ، ولم يعد يرى أمامه الفتـاة التي ألبسها حبه ثوب المَلَك ، وحوّطها بهالة التقديس ورآها مثال الجمال وغاية الآمال ، ولكن امرأة من النساء تهينه ، وهو الرجل المعتدّ برجولته ، وهو الذي لم يحمل المهانة من أخيها الا حبّاً بها ، واشتعل دمه ناراً ، وجنّ قلبه في صدره ، وأراد أن يتكلم فشعر كأن لسانه قد وقف ، وحلقه قد جف ، ولم يَعِ على نفسه الا ويده ترتفع وتهوي على وجه ليلى بلطمة دوّت في أذنيه كأنهـا طلقة مدفع ، فصحا فجأة ، وهـاله ما فعل ، فانطلق هـارباً الى الاصطبل ، وخلا بنفسه يفكر فيما صنع .

لقد أفرغ غضبه في هذه اللطمة فلم يبق في قلبه الا الحب ، وما يتبع الحب من تقديس ، فكيف فعل هذه الفعلة ؟ وهل فعلها حقاً ؟ هل لطم محبوبته التي يشتري اللمسة منها بالحياة ، ويدفع عنهـا بروحه مسّ النسيم ، وشعاع الشمس ؟ أيكسر الوثنيُ صنمه ، ويبصق المجوسي على ناره ؟

وصارت يده أكره شيء اليه ، هـذه اليد التي هدمت مستقبله ، وطوّحت بأمانيه . وملكته نوبة هياج ، فضرب يده بالنافذة ، فحطّم زجاجها ، وأطار شظاياها ، وغسل كفه بالدم .

قالت العجوز :

وسمعت الضربة فأسرعت اليه ، وقلت له :

ـ ما هذا ؟ ماذا صنعت بنفسك ؟

وخرجت لآتيه بضماد ، واذا أنا بليلى ، تدخل عليّ بثياب المدنية ، متوثبة فرحى ، تقول :

ـ اسمعي ، اسمعي البشارة ...

ـ قلت : أي بشارة ؟

ـ قالت : لقد خطبني ، انه سيتزوجني •

ـ قلت : من ؟

ـ قالت : أسعد ، لقد أعلن خطبته لي الآن ، وقال ، ان أباه موافق وأخي •••

ـ قلت : وهل تحبينه يا ليلى ؟

وسكتُ ، وحبستُ أنفاسي في انتظار جوابها ، لأني أعلم أن هاني يستمع اليها ، فأحببت أن أذكرها بحبها • ولكن الحمقاء اندفعت بلا وعي ، تصيح :

ـ انني أحبه ، أحب الأرض التي يمشي عليها ، أحب الهواء الذي ينشقه ، أحب •••

وسمعت الباب يصفق •••

ـ قالت : ما هذا ؟

فلم أشأ أن أخبرها ، وتريثت وسألتها :

ـ أتحبينه أكثر من هاني ؟

فتنبهت كأنها كانت في حلم وأفاقت منه على الحقيقة ، وتصوّرت حياتها بغير هاني فلم تجد فيهـا شيئاً جميلا ولا بهيّاً ، وهل الحياة الا الذكريات والآمال ؟ وهل لها ذكرى حلوة الا معه ، وهل لها أمل الا فيه ؟ واذا هي تركته وتزوجت أسعد فهل يترك حبه قلبهـا ؟ هل يذهب من ذاكرتها ؟ ألا تذكرها به صخرة الملتقى كلما نظرت اليها ، والليل كلما اشتمل عليهـا ، والقمر الذي كان يرعاها ، والسماء التي كانت تصغي كواكبها لنجواهما ، والبحر الذي كانت تستمع أمواجه الى أحاديثهما ،

والتلول والوهاد ، والنسيم العليل ، والثلج وأزهار الجبل • ؟
والتفتت اليّ فجأة ، وقالت :

ــ كلا ، لست أحبه ، أحب هاني • ان هاني هو حياتي ، ان الفقر معه هو الغنى ، والجوع معه هو الشبع ، والسجن معه جنة الأرض •

ــ قلت : فلم اذن ، زعمتِ أنك تحبين أسعد ؟ لقد سمع هاني منك تلك الكلمة ، وفتح الباب ، وألقى بنفسه يائساً في خضمّ الليل •••

ــ قالت : ماذا ؟ ! أسمعني هاني ؟ !
وشخصت لحظة وقد جمد تفكيرها ، فما يسيل ، ووقف عند هذه النقطة فما يتحرك •

أهي تحب أسعد ؟
فما هذه الكلمة التي نطق بها لسانها في غيبة قلبها ، وزورها على نفسها تزويراً ؟ :

أهي تحب أسعد ؟ ومن أسعد ؟ وماذا بينه وبينها ؟ ما يربطه بها ؟ وهل تنسى هـاني وعهود الطفولة ؟ ألم ترضع هواه مع اللبن وليـدة وتنشأ عليه ؟ ألم تسلك معه طرق الحياة سهلها ووعرها ؟ ألم تأكل معه على مائدة الحيـاة حلوها ومرها ؟ ألم تشاركه أفكار الحيـاة خيرها وشرها ؟ أفتهدم سعادتها كلها بكلمة رعناء ••• أنفخة في الهواء تقتلع صرحاً ممرّداً ثابت الأساس ، رفيع الشرفات ؟

ووثبت الى الباب ، ففتحته واقتحمت الظلام •

* * *

وكانت ليلة قارسة البرد ، عاصفة الريح ، جنّت فيها الطبيعة فهي تضرب بيديها ، وتنثر البرد والثلج ، وتلطم الوجوه والبِنَى • فخرجنا وراءها تناديها ••• وهي تعدو متحدّرة ، تثب على الصخور وتقفز الى

الأعماق ، تنادي : هاني . هاني . فيضيع صوتها في عويل الرياح ، وعزيف العواصف ، ثم انقطع الصوت ، وخفي الشخص ، وضاعت منا ، فلم نجدها ...

ورأينا أخاها مقبلا سكران ، فخبّرناه ، فقال :

ـ سأشرب كأسا أخرى على هذه البشرى . وقهقه كأن ابليس يضحك بفيه ، وأمّ القصر ، ولبثنا نفتش حتى بدا الصباح فاذا هي ملقاة في حفرة ، قد علاها الثلج ، فتعاونّا حتى حملناها الى دار أسعد في عاليه ، لتلقى ناساً يعنون بها ، وطبيباً يداويها ...

أما هاني فلم يعد ولم نسمع عنه خبراً ...

أقامت ليلى في دار أسعد شهرين محمولة على الأكفّ ، مفدّاة بالأرواح ، قد هيئت لها كل أسباب الرفاهية ، وأحيطت بكل مظاهر الترف ، وسيق لاسعادها كل ما وصلت اليه الحضارة ، وأبدعه العقل ، فلا ترى الا جميلا ، ولا تشمّ الا طيباً ، ولا تسمع الا سارّاً ، ولا تأكل الا لذيذاً ، ولكنها لم تكن سعيدة ... ولم تر حسن ما هي فيه ، لأنها افتقدت النور الذي ترى به جمال الدنيا حين افتقدت الحبيب .

ولم يكن لها ما تشكو منه ، فقد أعطاها أسعد كل شيء ، ولم يطلب منها شيئاً . وكان يسرّها محضره ، ويهزّها كرمه ، ويعجبها أدبه ، ولكنها لا تحسّ الفراغ في نفسها لغيبته ، ولا تجد الخفقان في قلبها لحضوره ، ولا يحملها حديثه على أجنحة الخيال ، الى العالم المسحور الذي كانت تحملها اليه أحاديث هاني ، على جفوتها وفراغها ...

ولقد أحبّ أن يتم عليها سعادتها بالبحث عن هاني ، فبعث الرسل ينفضون الأرض ، ويفلّون المدن ، ويبحثون في الهضاب والشعاب ، فلم يقعوا له على أثر ، وطفقت ليلى تفكر فيه حتى خدر فكرها وكلّ ، وانطوى على هذه (الفكرة) الواحدة ، فلا يعنى بغيرها ، ولا يفرغ

لسواها ، وأدركت أن هذا العالم الذي بدا لها أول مرة بهياً فاتناً : عالم الذهب والحرير والزهر والعطر ، جميل ، ولكنه كجمال الدمية الفنية ، لها المقلة الساحرة ، والقامة الفتانة ، ولكنها باردة ليس فيها روح ، وهل روح الحياة الا الحب ؟

جز بأجمل البقاع ، واسمع أحلى الأغاني ، وشم أطيب العطور ، وافتقد الحبيب لا تحس لذلك لذة ، ولا تجد طيباً ...

... ولكن الأيام تبدل كل شيء ، وقد بدل ليلى كر الأيام ، فلم يجف الجرح في قلبها ، ولكن مس الحنان قد راضه على السكون ، ولم يذهب الحب من نفسها ، ولكن عرفان الجميل ، قد ألقى عليه غطاء فأخفاه ، ولم تنس حياة القصر وساعات الصخرة ، ولكن غياب هاني قد حملها على الأنس بهذه الحياة الناعمة المرفهة التي نشأت عليها وتعودتها ، هذه هي معيشتها لا معيشة هاني ، الذي ألقته المقادير أمامها ، وقد ولد في غير بيئتها ، وجبل من غير طينتها .

ويا ليتها لم تكن عرفت هاني ، وياليت أسعد كان السابق اليها ، اذن لوجدت السعادة كاملة ، لا ينقصها شيء ، ويا ليت الحب ، هذا الطفل الأعمى ، لم يكن رماها بهاني ، بالغلام القذر الذي جيء به من أزقة بيروت ، فتعلقت به ، كما يتعلق المرء بكأس الخمر ، تهري أمعاءه ، وتشتاقها نفسه ، بل هو القدر ، القدر الذي جعل جسدها منعماً في هذه الجنة ، وقلبها معذباً في ذلك (الاصطبل) ، وكتب عليها أن تعيش مع أسعد ، ويكون حبها لهاني .

ولم يكن أسعد وأخته ، يدعانها لحظة كيلا ينبثق جرح قلبها ، وكانا يطرفانها أبداً بأجمل الطرف ، وأرق الأحاديث ، ويجددان لها كل ساعة مسرة ، ولكنها كانت كلما خلت بنفسها ، أو لمحت الصخرة من بعيد ، ذكرت ليالي الحب عند الصخرة ، وعادت تفكر في هاني : أي

أرض تحمله ، وأي سماء تظلله ، وهل هو حي لا يزال ، أم قد طواه الثرى ؟ ويا ليتها تستيقن موته ، فتستريح الى اليأس ، وتتعزى بالعجز ...

وكان أسعد يوماً من أيام النقاهة الى جانبها ، وقد أضجعها على أريكة في الحديقة ، تضحى بشمس الصباح تظللها بواسق الصنوبر ، وتحف بها فواتن الأزهار ، وقعد على كرسي صغير ، ينظر اليها كما ينظر الوثني الى صنمه ، يطل قلبه من عينيه حباً ، ويقف لسانه هيبة ، وتنقبض يده اكباراً فلا يمسّه ان مسّه الا بأطراف الأنامل ، وكان يتأمل شفتيها حتى اذا تحركت طالبة شيئاً جاءها به قبل أن يتم اللفظ ، ويلحظ عينيها حتى اذا مالت الى شيء حمله اليها قبل أن يرتدّ الطرف ، وطغت عليها عاطفة الشكر وعرفان الجميل ، فأمرّت أصابعها على شعره فأحسّ رجفة الكهرباء العلوية ، التي لا تمشي في سلك ولكن تسير في الأعصاب ، ولا تضيء البيوت ولكن تنير القلوب ، ولا تحرك الآلات ولكن تحرك الكون ، الكهرباء التي اسمها الحبّ ، وتجرأ فقال الكلمة التي كان يرددها في نفسه على عدد الدقائق والثواني ولا يجرؤ أن يقولها ، قال لها :

ـ هل تقبلين بي يا ليلُ زوجاً ؟

وسكت يرقب الكلمة التي تعرّفه مصيره في هذه الدنيا ، اما الى جنة الحب ، أو الى نار الهجران ، وسكتت ليلى لحظة ولكنها لم تذكر ماضياً ولم تفكر في مقبل ، وانما نظرت الى الحاضر وحده ، واستجابت لندائه ، كما تفعل كل امرأة في الدنيا وقالت :

ـ نعم .

وتم الزواج !

* * *

ومرت سنوات طويلة ، ناعمة هادئة ، كأنها مياه البحر في خليج جونيه ، واستقر الجرح في قلب ليلى ، حتى ظنته قد التأم ، ومنعته عناية أسعد ومحبته أن ينفجر أو يتّسع ، واتصلت المودة بينها وبين أسعد ، والمودة ان اتصلت بين الرجل والمرأة لا تلبث أن تصير حباً ، وكاد يجيء الحب ، لولا أن عصف البحر في الخليج فجأة ، وماج واضطرب ، حين دخل الخادم يعلن قدوم هاني •

انفجر الجرح ، وعاش الماضي ، ونظرت ليلى الى حاضرها الذي كانت تأنس به وتطمئن اليه ، فوجدته يتهدم ويكاد يضمحل حين داهمه هذا الماضي بسيله الدفّاع ، فتمسكت بأسعد الذي هو رمز هذا الحاضر ، كما يتمسك الغريق ببقايا الزورق وهتفت به أن يمنعه من الدخول • فأبى أسعد ، وحسب لغروره وجهله بطباع المرأة ، أن الحبَّ قد مات ودفن ، لا يدري أنه دفن في القلب ، ودفين القلب يحيا اذا ناداه الماضي ، وأذن له بالدخول ، وقام لاستقباله ، وبقيت ليلى جالسة ، ساكنة الجوارح وقلبها في زلزال ، معرضة عنه وكل شعرة في جسمها تنظر اليه وتحسُّ به ، قد شحب لونها ، واصفر وجهها حتى لم يبق فيه قطرة واحدة من الدم ، ورفعت اليه عينيها أخيراً ، فوجدته قد عاد بأبهى حلّة ، وأكمل زينة ، تبدو عليه مظاهر الغنى ، وعلائم الثروة ، وتخاطبت العينان في لحظة ، فألقتا ألف سؤال وسمعتا ألف جواب ، وروتا قصصاً وساقتا أخباراً ، ولم يدرِ حديثهما أحد ، ثم أغضت ، وأخذها مثل الدُّوَار •

وسمعت وهي في غيبتها أطرافاً من الحديث ، فعلمت أن هاني قد عاد من أمريكا غنياً ، وأنه اشترى قصر أبيها ، وصار مالكه •

وكان لكل كلمة يقولها ، وحرف ينطق به ، معنى في نفسها ، لا يدركه الزوج ولا ينتبه له ، لقد كان يفهم معاني الكلمات في المعجم وهي تفهم معانيها في القلب المحب ، وفي الماضي المبعوث ، وتحسُّ أن

الحديث بينه وبينها ، وان كان الذي يرد عليه زوجها ، ثم غشي عليها فلم تعد تشعر بشيء .

* * *

وذهب هاني الى القصر ، وقعد على كرسي سيّدي الشيخ رحمه الله وراح ينظر حوله : لقد خرج من القصر أجيراً ذليلاً ، وعاد اليه سيداً مالكا ، وصار علاّم تحت يده ، يجرّعه ان شاء المرّ من كأس الانتقام ويجزيه بالسيئة قدمها له عشراً ، وحالفه الحظ ، وسعى اليه المال ، ولكن ما فائدة هذا كله ، وفي نفسه هذا الفراغ الذي لا يملؤه مال ولا قصر ، ولا تسدّه لذة الانتقام ، لقد ذهبت نشوة الظفر وعلم الآن أنه لن يسعده شيء مما على ظهر الأرض الا هذه المرأة التي اسمها ليلى . وقد صارت ليلى لغيره ... فلن يسعده شيء !

وعرض ماضيه كله ، فتمنى أن تعود أيام الفاقة والعوز ، وأن يعود خادماً ذليلا يحيا بقربها ، لقد كان في الحنان الذي ينبثق من عينيها ، والفتون الذي يبدو في صوتها وحديثها ، والعطر الذي يشمه من جسدها الغالي ، ما يغنيه عن المال والجاه فهل يغنيه الجاه والمال اليوم عن حنانها وفتونها ؟ لقد كان يفرّ الى الصخرة الجامدة ، فينسى القصر وعذابه ، فهل ينسيه القصر ونعيمه اليوم تلك العشايا الحبيبة عند الصخرة ؟

لقد ضرب في الأرض ، وخاض البحار ، وذهب الى أميركا ليعود بالمال الذي يشتري به قلبها الذي صبا الى المال ، فماذا ينفعه الآن ان اشترى القصر وخسر القلب ؟ ألهذا كدّ ونصب ، وحمل الجوع والتعب ، وسامر طيف الحب في ليالي الغربة ، وتجرّع مرارة الهجر في دار النوى ؟ وانتظر أن تلبي صوت القلب ، وتستجيب الى دواعي الحب ، فلما رآها صنعت ما تصنع كل فتاة خيِّرة شريفة ، فآثرت الزوج على العاشق ، والفضيلة على اللذة ، تبدّل بنفسه التي كان عليها نفساً جديدة ، نفخت فيها سبعة شياطين ، فامّحت منها كل صفات الانسان ، ونظر الى الدنيا

ومن فيهـا بعين الحاقد الحاسد المنتقم ، وكان من سـوء حظ سلمى (اخت أسعد) ، وهي المرأة التي رأيتها حين دخلت هـذه الدار ، أن مالت الى هاني وشغفها حباً ، والحبُّ جنون يدفع الى كل حماقة وشرّ ، ففرّت اليه ، وألقت نفسهـا على قدميه ، وتزوجهـا بأسرع من كرّة الطرف ، وما تزوجها عن حبٍّ لها ولا ليسعدها ويبرّها ، بل لينتقم بها من أخيها ، كره الناس كلهم ولكنه بقي على حبِّه لليلى وحدها ، فلما ماتت بعد ذلك على يديه ، وهي تنظـر الى الصخرة التي كانت مرتع صباها ، ومربع هواهما ، لم يبق في قلبه الا البغضاء .

ولبثت سلمى معه هذه السنين الطوال ، عشرين سنة ، ما أطولها ، وهي تقاسي منه أكثر ممـا يقاسي السجين من جـلاده ، والاسير من آسريه ولم تفقد حبها اياها ، أرأيت حبَّ المرأة ؟ ! انهـا تحب بقلبها ، والرجل يحب بشهوته ، فحبُّها باق وحبُّه متحول ، ولم تنقص مع ذلك كراهته اياها وايذاؤه لها ...

ـ قلت : ما ذا تقولين يا امرأة ؟ انك تسردين قصة أدبية مشهورة ، هي (مرتفعات وزرنج) ؟

فضحكت وقالت :

ـ أما قلت لك ، انها قصة كتبتها الاقلام ، وصوّرتها (الافلام) ؟ وزرنج ؟ وما وزرنج ؟ انها حِزْرينْ يا سيدي ، ولكم سرقوا القصة ، وحرّفوا الاسم .

* * *

ولما أصبح الله بالصباح ، فررت من هذه الدار ، وأنا لا أدري أتقول العجوز حقاً ؟ أم هي تسخر مني ؟ أم أنا قد أمضيت ليلتي في مستشفى مجانين !

خاتمة

هـذه فصول كتبت في أوقات متباعدات . فاختلف أسلوبهـا ، وتباينت طرائقها ، ولم أكتبها على أنهـا قصص أسلك فيهـا المذاهب المسلوكة للقصة ، وأستوفي فيهـا شرائطها الفنيَّة ، ولم أفكر في ذلك بل جريت فيهـا على طبعي وأسلوبي ، وتركت القلم يمضي حيث شاء فان وافقت أسلوب القصة الذي تعرفونه فبها ، والا فسمُّوها مقالات أو صوراً ــ ان آخر ما أباليه هو الاسم الذي تسمَّى به .

وقد سقت هـذه القصص (أو المقـالات) مساق الخبر الواقع ، وحددت فيها الازمنة والامكنة ، ولكنني لا أحتاج أن أبيِّن أن ذلك كله من الفنّ الذي تستلزمه الكتابة ، وان الأدب الواقعي هو الذي يمكن وقوع مثله ، لا الذي قد وقع فعلاً .

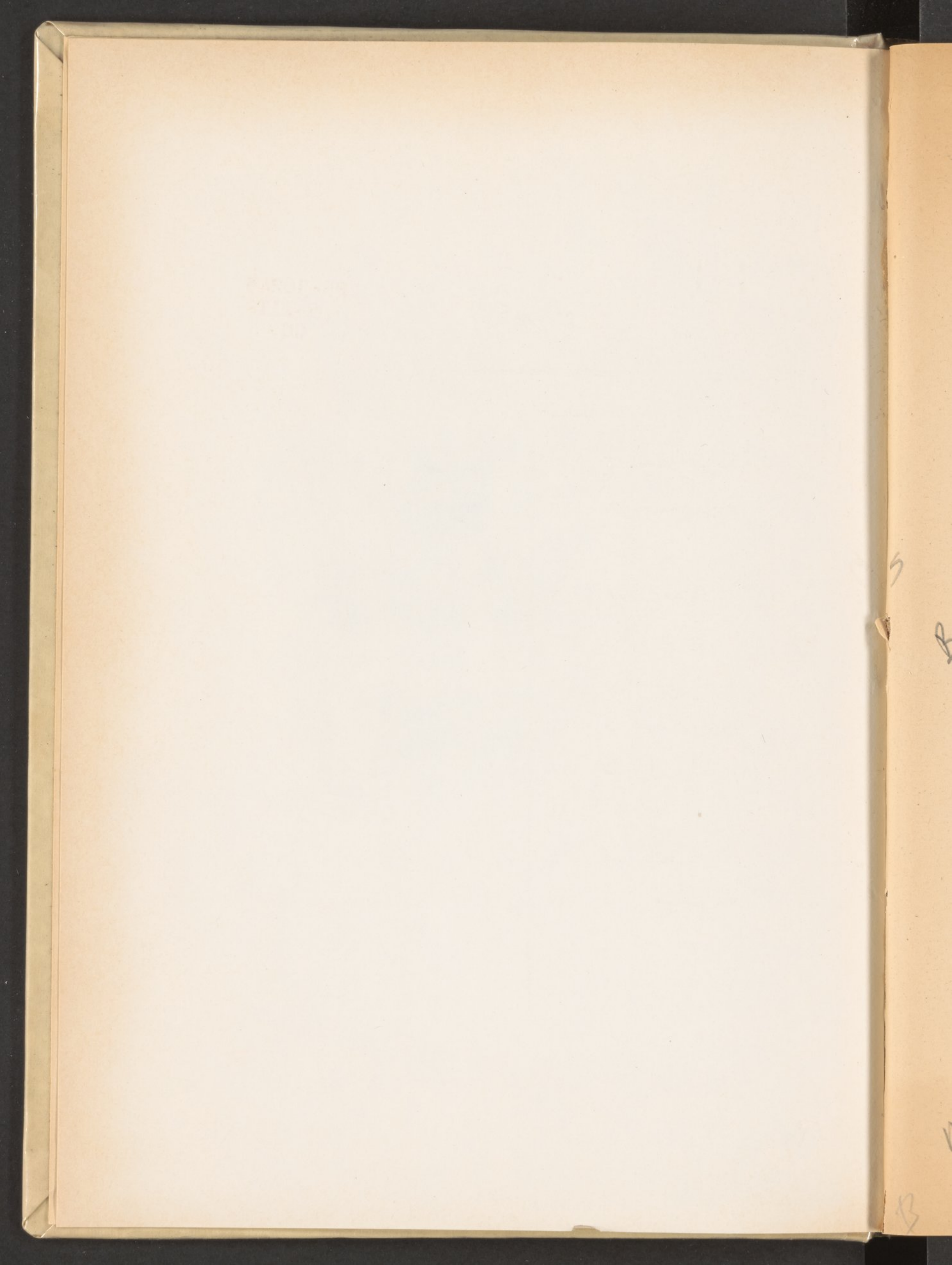
وكل ما أرجوه أن تثير هـذه الفصول في نفس قارئهـا عاطفة من عواطف الخير ، أو فكرة من أفكار الحق ، وأسـأل الله أن يتجاوز عن ذنوبي .

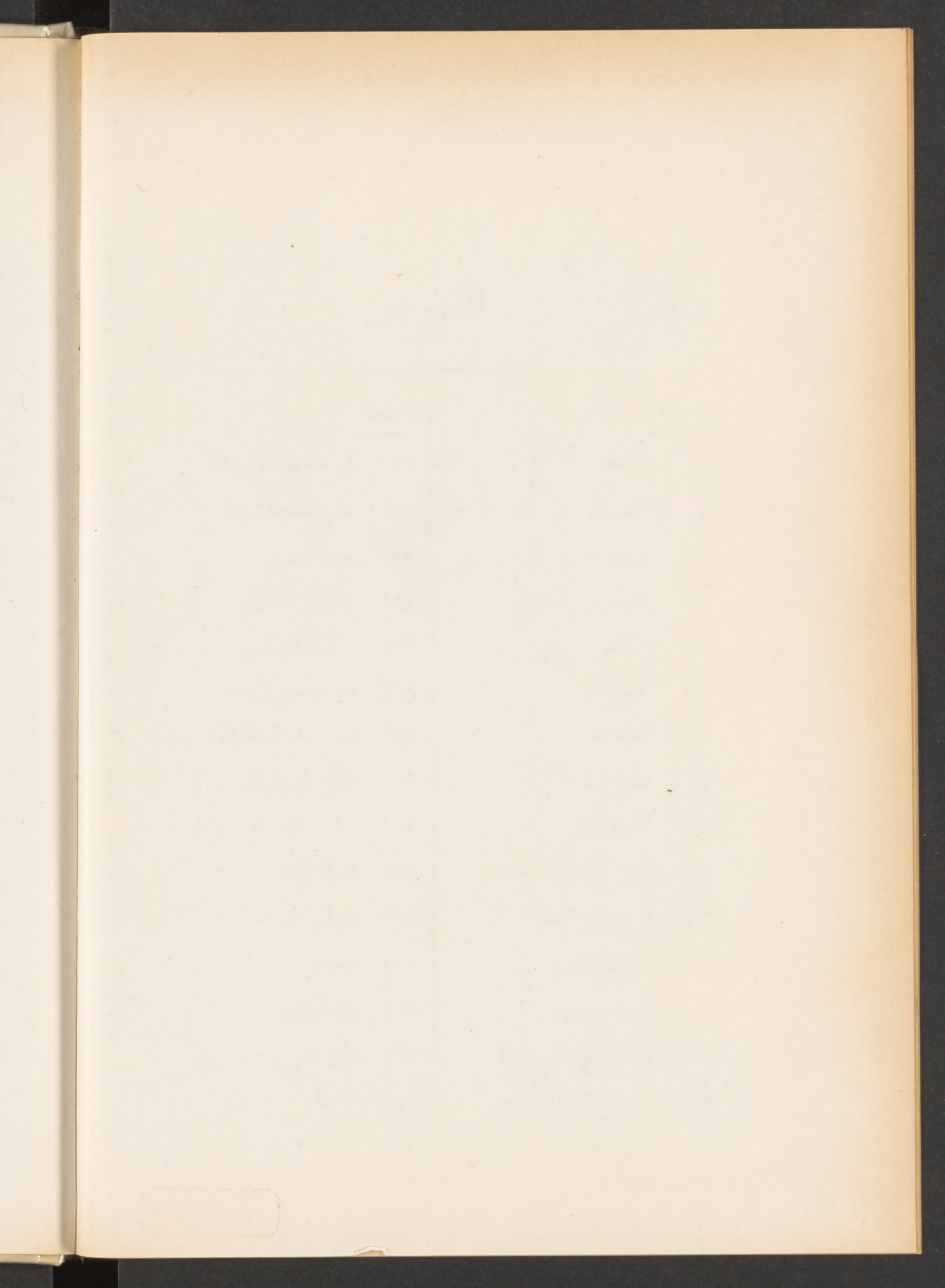
علي الطنطاوي

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	٣	أو	ان
٢١	١٠	أني	كأني كنت
٧٤	١٥	كمان	كما
٧٥	١١	دوّار	دُوّار
١١١	٢	«	»
١٤٧	٨	وأن	وإن
١٤٨	١٤	أيها	أيّتها
١٥٣	١١	ولكنه	ولكنه كفّ
١٦٠	١٥	لا يعقل	من لا يعقل
١٦٨	٥	يخالف	يخالط
١٩٢	٢٠	فاحتشت	فاحتش
١٩٩	٢٠	من رؤيته	لرؤيته
٢٠٤	١٤	القائل	الفائل
٢٠٤	٢٢	ولكن	ولكني
٢٠٧	٩	الغرف	الغرفه
٢٠٧	١٧	دمشق سبعون	دمشق ٠ سبعون

الفهرس







صـدر للمؤلف :

قصص من التـاريخ

رجال من التـاريخ

صـور وخواطـر

قصص من الحيـاة

ويصدر له قريباً :

« هتـاف المجـد »

وتطلب جميعها من دار الدعوة بدمشق ــ حلبوني ــ ص ب ٨٠٠

الثمن ٣٠٠ ق.س